

ترجمة وتصنيف : د. محمد بن عميرة

الفتح الإسلامي لببلاد المغرب في كتابات المؤرخين الفرنسيين



صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

جميع الحقوق محفوظة

الدار الوطنية للكتاب

Maison Nationale du Livre

ص.ب رقم 163D درارية - الجزائر العاصمة

هاتف: +213 (0) 23 26 53 17

فاكس: +213 (0) 23 26 53 18

e-mail : watania62@hotmail.com

الإيداع القانوني: 2014-306

ر.د.مك 0-02-394-9931-978 ISBN

مقدمة

تطرقت في عمل سابق، إلى موضوع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب واعتمدت في إنجازَه على المعلومات التي زودتنا بها المصادر العربية، وحدها، وها أنا أعالج، هذه المرة، نفس الموضوع من زاوية أخرى، معتمداً فيه على ما جادت به قرائح المؤرخين الفرنسيين، الذين اعتمدوا، بدورهم، في كتاباتهم على نفس المادة وراحوا يشرحونها ويفسرونها ويحلّلونها ويعلقون عليها ويستتجون منها أموراً، وفق منهج بدا لي أنّ ظاهره يطغى عليه الطابع العلمي - العقلاني، في حين أنّ باطنه يطغى عليه الطابع العاطفي الذاتي، واقتناعاً مني بأن الاطلاع على مثل هذه الأعمال سيكون مفيداً للقراء باللغة العربية، أقدمت على جمع أهمها وبادرت بترجمتها إلى لغة الضاد وتصنيف أفكارها، مركزاً على الجوانب التي تضيف جديداً في الموضوع، بصرف النظر عن قيمة هذا تجديد العلمية، وعن اتجاهه الفكري.

مع العلم أنّ الغالبية الساحقة من أصحاب الأعمال المشار إليها هم فرنسيون، والقليل منهم أوروبيون كتبوا بالفرنسية، غير أنني أضفت إليهم عربيين مسلمين هما: الجزائري إسماعيل هامت (HAMET Ismail) لأنّه زودنا بمعلومات جديدة عن نشاط عقبة بن نافع ببلد السودان في مقال نشره عام 1899 بالمجلة الإفريقية، وكان هذا المقال محل تعليق لبعض الكتاب الفرنسيين، أمّا الثاني فهو التونسي محمد طالبي، صاحب كتاب الإمارة الأغلبية والذي كتب عدة مقالات في الموسوعة الإسلامية، وهو لا يكاد يختلف بشيء، في أسلوبه ومنهجه، عن أصحاب هذه المدرسة، حتى أنّ الذي يقرأ له، دون الاطلاع على اسمه، يصعب عليه تمييز كتابته، عن غيرها من كتابات الفرنسيين أنفسهم، فرأيت أنّه

بالإمكان اتخاذه نموذجا لفئة من المسلمين تأثرت بمنهج تلك المدرسة، خاصة في مقالاته التي نُشرت في دائرة المعارف الإسلامية.

ومن المحاور التي تعرّضتُ إليها تلك الكتابات والتي اعتيتُ بترجمة الجديد منها، أسباب الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وهذا المحور، على سبيل المثال، لم تُورد المصادر، في شأنه، أية معلومات، ومع ذلك، فإن المؤرخين الفرنسيين حاولوا ملء هذا الفراغ بما ينسجم مع توجهاتهم. أمّا في المحور الذي يليه: "حملة عمرو بن العاص على منطقتي برقة وطرابلس"، فقد اتخذوا من الأخبار المتوفرة في المصادر منطلقا لبلوغ أهدافهم، وطبقوا نفس المنهج على بقية المحاور وهي على التوالي:

أوضاع إفريقية البيزنطية عشية الفتح الإسلامي وحملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وحملة معاوية بن حُديج التُّجيبِي، ونشاط عقبة بن نافع الفهري قبل ولايته على بلاد المغرب، وولايته الأولى عليها، وولاية أبي المهاجر دينار ثم ولاية عقبة الثانية، فولاية زهير بن قيس البلوي وحسان بن النعمان الغساني بعدها ثم ولاية موسى بن نصير وأخيرا مقاومة البربر المزعومة للفتح الإسلامي.

وقد حاولتُ القيام بترجمة أمينة، قدر المستطاع، لكل ما ورد من جديد في المحاور المشار إليها، مبتدئا بأقدم تلك الكتابات ومنتهايا بأحدثها، إلا في حالة الضرورة القصوى.

وأرجو التوفيق من الله، عز وجل، كي أتمكن من تقديم هذا العمل، في صورة لائقة ومفيدة، للقراء باللغة العربية، كأداة يستطيعون الاعتماد عليها في الاطلاع على أفكار غيرهم، في جزء هام من تاريخ البلاد العربية، واتخاذه مادة من المواد التي يستخدمونها لبناء أبحاثهم في تاريخ بلاد المغرب.

- أسباب الفتح الإسلامي لبلاد المغرب:

من اللافت للانتباه أن المصادر العربية عندما عالجت موضوع فتح بلاد المغرب " أغفلت الحديث عن أسبابه، ومن ثم تركت الباب مفتوحا على مصراعيه للاجتهادات والتفسيرات والتأويلات المختلفة، ولم يضيع الكتاب الفرنسيون الفرصة، فراحوا يعملون على ملء هذا الفراغ بطريقة التي تنسجم مع اتجاهاتهم الايديولوجية والسياسية.

ومن هؤلاء، على سبيل المثال، Mercier E. الذي يقول: "إنه، بعد انتهاء حروب إقرار (établissement) الدين الإسلامي، بانتصار حَقَّقَهُ هذه العقيدة رَمَى محمد (Mahomet) (صلعم) المناطق المجاورة ببلاده بأتباعه، ثم صار الجهاد، بعدما رسمه، الذريعة المتجددة، دائما، لتوسعات (Conquêtes) أخرى؛ وعند وفاة النبي (prophète) أراد عمر، الذي تولى بعده الخلافة، اتباع الطريق المرسوم، فتوجَّ النصرُ سُنْحَتَهُ، بحيث أنه بعدما أخضع بلاد الشام، اتخذ قرارا جريئا باحتلال مصر، ولبلوغ هذا الهدف سَيَّر مساعده عمرو بن العاص، حوالي 640م، فتمكن هذا القائد من انتزاع إمبراطورية البطالمة القديمة، من أيادي ممثلي هرقل (Héraclius) الضعيفة، مواصلا سيره، بعدئذ، نحو الغرب حيث تقدم إلى كيرينايا (Kyrénaique) المعروفة عند العرب ببلاد بركة⁽¹⁾.

وفي نفس هذا الاتجاه يذهب Bousquet G.H بقوله: "إن النبي محمد الذي لم تتجاوز توسعاته (ses conquêtes) حدود بلاد العرب،

(1) Histoire de L'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale, Constantine- Alger 1875, pp.51-52

توفي سنة 632م، وبعد عشر سنوات، كان أتباعه يحتلون جزءا من بلاد البربر: أرض برقة (Cyrinaïque) سنة 642م، وأرض طرابلس (Tripolitaine) عند مدخل إفريقيا الشمالية سنة 643م⁽¹⁾.

وبالنسبة لـ Terrasse. H. "فإن الإسلام بعد توسّعه السريع في بلاد الشام وبلاد الرافدين ومصر وبلاد فارس وآسيا السامية والإيرانية، سجّل توقفا مؤقتا في مدخل عالمين جديدين بالنسبة إليه: استبس آسيا الوسطى، حيث يبدأ العالم التوراني، شرق إيران؛ وأراضي الهند وحوافها الغربية، جنوبا"⁽²⁾، مضيفا أن "بيزنطة" بعدما تركت بلاد الشام (La syrie) ومصر تسقطان، أوقفت الإسلام، بعناء، شمال-شرق إمبراطوريتها الحديثة، ونظمت على الحدود الشامية لآسيا الصغرى مقاومة متأخرة لكنها فعالة... فتراجع الإسلام أمام شساعة آسيا الوسطى أو الهندية، واصطدامه بالحاجز البيزنطي، جعله يبحث عن توسعات جديدة في أماكن أخرى"⁽³⁾.

كما يرى Terrasse أن قيام الأسرة (dynastie) الأموية واستقرار الخلافة بدمشق أدخل، الإسلام الذي احتفظ بمركزه، حتى ذلك الحين ببلاد العرب (Arabie)، في مدرسة بلاد الشام، فتسلّم، شيئا فشيئا، إرث العالم الإغريقي وتحولت الهيمنة (primauté) التي كانت تتعم بها بلاد الشام، منذ قرون، في العالم المتوسطي، إلى هيمنة سياسية، وكان الشاميون الذين دخلوا في خدمة الخلافة الجديدة يعرفون مسالك (chemin) البحر الأبيض المتوسط، إذ كان تجارهم متواجدين، قبل ذلك

(1) Les Berbères, Que sais-je, Presses universitaires de France, Paris 1957, p.47.

(2) Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du protectorat français, éd. Atlantides Casablanca, 1947, livre II, p.76

(3) Ibid.

في الموانئ وفي كل المدن الكبرى للإمبراطورية الرومانية القديمة،
والأساطيل الشامية هي التي زوّدت الإسلام بقواته البحرية الأولى
ومكنته، في وقت قصير، من السيطرة على البحر...»⁽¹⁾.

ومما يذكر نفس المؤلف أيضا أن "تأثر شمال إفريقيا
(l'Afrique du nord) وشبه الجزيرة الإيبيرية كان أقل من
تأثر إمبراطورية الغرب (occident) القديمة بالغارات البربرية
(invasions barbares)، أي الوندال، وقد تكون سمعة غناء أراضيها
تعبّر هي التي جذبت إليها الجيوش الإسلامية، فكان أول عمل قامت به
في توسعها (conquête)، هو الإغارة (razzia)، وستعيش، بعد النصر،
على استغلال الأرض المحتلة (conquise) وبذلك ستمكن الخلافة
ثموية من هزيمة بيزنطة في شرق بلاد البربر ومن إضعاف قوتها
بحرية بالاستيلاء على قسم كبير في السواحل التي استردها
جوستينيان (Justinien)"⁽²⁾.

ويعتقد (Terrasse)، أخيرا، أن الخلفاء الأمويين "كان عليهم أن
يوسعوا حدود الإسلام، بعيدا، لتبرير ألقابهم (leur titre) ولإظهار
جدارتهم بخلافة الرسول، قبل غيرهم...، ولذلك أخذت الإمبراطورية
إسلامية تتظّم نفسها قليلا، وكانت في حاجة دائمة إلى قفزة (L'élan)
توسع للحفاظ على نفسها."⁽³⁾

1 op.cit., p. 77.

2 id

3 id.

ف" كل هذه الأسباب، تقريبا (كما يقول) كانت خارجة عن بلاد البربر التي لم تقم بأي عمل لجذب أو لدفع الخطر الإسلامي".⁽¹⁾ ويلنقي Terrasse H. في كثير من أفكاره هذه مع جورج مارسيه (Marçais G.) الذي يرى: "أنّ التفاني في نصرة العقيدة، إنّ لم يكن التعطش إلى الشهادة (la soif du martyre) يجتمعان، بدون شك، في روح تلك الجحافل (contingents) الأولى (من الجيش الإسلامي)؛ ويبقى عقبة بن نافع، الذي تمجّد صورته مجموعة من الأساطير، أبرز مثال للإسلام المقاتل؛ أما زهير بن قيس الذي استأنف عمله، فقد عُرف بحماسه (ardeur) الحربية وبمثالية زُهده..... إلا أن مثل هذه المآثر (traits) نادرة لدى العرب المحتلين (conquérant) فقراءة الحوليات تترك لدينا إحساسا (impression) بأن أمل الحصول على الخيرات الدنيوية (temporels) يتغلب (prévaut)، عند غالبيتهم، على رغبة الموت في ساحة القتال من أجل العقيدة... فالغرب (l'occident) يبدو للشرقيين بمثابة أرض للغنيمة أكثر مما يبدو أرضا للجهاد (guerre sainte)⁽²⁾.

وفيما يخص الثروات التي يجنونها، كما يضيف نفس المؤلف، يجب اعتبار الأرقام مبالغاً فيها باستمرار، بسبب الفعل المركب (l'effet combiné) للخيال الشرقي، من سَراب (mirage) يقذف به في الماضي ورغبة تعظيم المنافع (avantages) التي أتى بها الإسلام"⁽³⁾.

وعند وضع المبالغات بجهة (en faisant la part) فإن العرب المعاصرين لمحمد، مثل الوندال قبلهم بثلاثة قرون، والبدو الهلاليين،

(1) op. cit.

(2) La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris 1946, p.22

(3) Id.

بعدهم بأربعة، كانوا يعتبرون بلاد البربر أرض الميعاد، غنية مثل البلدان التي سبق لهم احتلالها إن لم تكن (sinon) أكثر، فهي بلاد الحياة السهلة حيث ينتشر الرخاء وميوعة الرؤساء (chefs) الكفار، وهو ما تجسده في نظره ظهور ابنة البطريق جرجير في أعلى بُرج، وهي محاطة بأربعين جارية بديعة الزينة والحلي، ومُشاركة جرجير في المعركة وراء صفوف جيشه، على ظهر مطية رمادية ثقيلة، وإلى جانبه جاريتان تظللانه من أشعة الشمس بريش الطواويس، على أنه ليس بديها أن تكون حاملتا المظلات أو بالأحرى الفلابلا (flabella)، هي اختراع محض⁽¹⁾.

غير أن كثرة الأشجار هي التي أذهلت غالبية المهاجرين القادمين من مصر، ومنطقة طرابلس (la tripolitaine)، حسب هذا المؤرخ: "إذ يرتبط ذكرى ذلك الخصب، في الحوليات، بذكرى تاريخ الكاهنة الذي تطغى عليه الصبغة الأسطورية، فقد تسببت ملكة البربر في تخريبها تخريبا منهجيا" فالبلاد، كما يقال، كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة" وكنا سنلقي برواية العصر الذهبي هذه في مجال الخيال لولا أن الشهادات التي سنذكرها والاكتشافات الحديثة لأعمال الري والاستغلال الزراعي، في المناطق القاحلة اليوم، جاءت لترد لها بعض الاعتبار وقد كان للمحتلين (conquérants) هذا المفهوم (notion) الذي بيّنت صحته: وهو أن أشجار الزيتون هي التي صنعت ثراء إفريقيا الشمالية التي كانت، قبل ذلك، تزود روما والقسطنطينية بالزيت؛ والأسطورة هي التي عبرت عن ذلك مرة أخرى فعبد الله بن سعد، بعدما انتصر على البطريق جرجير " رأى قطع النقود التي وضعت أمامه أكواما، سأل

(1) Ibid, pp. 22-23

الأفارقة: من أين لهم هذا الورق؟ فجعل الرجل منهم يتلمس شيئا في الأرض، حتى جاء بنواة زيتون، فقال: "من هذا أصبنا الأموال" فقال له عبد الله وكيف ذلك؟ فأجابه الرجل: إن الروم (les grecs) ليس لهم زيتون فكانوا يمتارونه من هنا" (1).

وعلى الرغم من التدهور الاقتصادي الذي لم يتمكن التوسع (conquête) البيزنطي من إيقافه بدرجة ملموسة، يضيف Marçais، فإن بلاد البربر قدّمت للمسلمين موارد حقيقية، محرّكة كلّ الأطماع (à exciter toutes les convoitises): إذ كانت المنفعة الخيالية (fabuleux) المتحصل عليها هي التي تهم الإخباريين، على ما يبدو، في الروايات المتعلقة بالأوقات البطولية للاحتلال وقد أخذ جزء من تلك الثروة طريقه إلى المشرق وانتهى إلى المدينة ثم إلى دمشق ثم إلى بغداد، فضلا عن أنه ثبت أن أكثر من مقاتل (solda) كان يبحث، أثناء الغارة، كيف يستولي على خيرات ينوي إيعادها عن التقسيم (2).

ويذهب Marçais إلى القول: إن الاستيلاء على المدن زوّد الشرقيين بالمال (argent) والأشياء الثمينة (objet de prix) وإن عمليات النهب (pillage) في الأرياف وفرت لهم ثروات ليست أقل قيمة: أولها الخيول التي يبدو أن قوتها أذهلتهم: فعقبة المنتصر على سكان بغاية "أخذ منهم عددا (منها) يذكر النويري أن المسلمين لم يروا مثلها في حملاتهم"؛ وجمال معروفة بصبرها، كان البربر، على حدّ قول ابن حوقل، يملكون منها أعدادا أكبر مما يملكه عرب شبه الجزيرة؛ وأخيرا وبصفة خاصة الرجال: إفريقيا الشمالية هي خزان لا ينفذ، تقريبا،

(1) Marçais G. : op.cit., p 23

(2) ibid, pp.23-24.

ومع أن المؤرخين يضحّمون الأعداد بسخاء، هنا أيضاً، إلا أن المادة أكثر غزارة (la matière plus abondante) تسمح بتقدير أوسع: فالأسرى يُعدّون بقطعان من عشرات الآلاف، ومن ذلك أن عقبة بن نافع أتى بـ 80000 على حد قول Théophane، وحسان ابن النعمان 35000 وموسى بن نصير 100.000 فالرجال يباعون في أسواق المشرق... أما النساء البربريات فالرغبة فيهن خاصة، ذلك أن عقبة، عند تقدمه حتى السوس وتقتيله عدد كبير من المغاربة، أخذ بعضاً من نسائهم لم يكن لجمالهن نظير "ويروي النويري أن الواحدة من جواريتهم بيعت في المشرق بألف دينار".⁽¹⁾

ومما يضيفه Caudel M أن "هناك تعليمة (Il est un commandement) يسمعها العربي بأذن صاغية، ويشعر أنه على استعداد تام لإتباعها و هي تلك التي تأمر بالحرب المقدسة، الجهاد، فتعاليم (précepts) الشريعة القرآنية الأخرى مطاعة (sont obéis) وشمك، دون همس، لكن هذه التعليمة تُنفذ بحماس، وبإمكان المسلم حيناً مناقشة صيغ آيات الكتاب الأخرى لكن التي تتحدث عن الجهاد ستغني عن التعليق، ويقضي الجهاد: الهجوم على أرض الكفار، في دار حرب، لمطاردة جيوشهم النظامية وإدخال بلادهم في دار الإسلام، أي مجموع المقاطعات الخاضعة لسلطة أمير المؤمنين، فالعقيدة الإسلامية، عموماً، يمكنها إرضاء طموحات الجنس العربي، وهي تعكس ولا شك في ذلك، طريقة تفكيره... ومفهوم الجهاد أشبع (satisfit) أكثر رغبة لتوسع الجامعة وهوس المآثر (rage de prouesses) التي كانت تتخر

(1) Marçais G., op.cit., p.24.

(rongeait) أبناء إسماعيل في القرن السابع: إذ كانوا حتى ذلك الوقت يتقاتلون في حروب لا تنتهي (interminable)، تقوم لأتفه الأسباب وتستمر سنوات، من الإبادة، ولا تنتهي إلا بالإرهاك (épuisement) التام للخصم، وقد وحدث عبقرية (génie) محمد هذه القوى التي كانت تُرهق عبثاً، ضد بعضها البعض، وبينت لهم نقطة الضرب فلولا الجهاد الذي أعطى متفئساً كبيراً لهيجان حروب أتباع (sectateur) العقيدة الجديدة لألتهم الإسلام في صراعات داخلية دون أن تصلنا أخبارها. وقد اكتسح (envahissent) أتباع محمد العالم بعد موته بقليل، عبر طرق ثلاثة سطرته لهم الطبيعة فقصدوا ثلاثة اتجاهات مختلفة، ومنها مصر، فلما وصلوها فكروا في أقصى الغرب⁽¹⁾.

وفي رأي Caudel: أن ما يُدهش، على الخصوص، في الحملات العربية هو الأهمية التي تحتلها الغنينة فيها: إذ بمجرد ما تنتهي المعركة يقتسمها المقاتلون، ويبدو، من العناية التي يوليها الإنسان العربي لهذه العملية، أنها تمثل في نظره منفعة أساسية (intérêt capital)، وهاهنا توجد واحدة من التناقضات التي تُحير ذهنياتنا (esprit) الغربية: فنحن نعرف أن العرب تهيجهم (enflammés) حماسة دينية كبيرة، ونراهم يخرجون من بلادهم لنشر الإسلام في العالم؛ ويُفترض أنهم منشغلون بنجاتهم (salut) وبالحياة الأخرى وبوسائل نيل مكان جيد (bonne place)؛ ونجعل منهم أمة من المحاربين النساك، وكل هذا صحيح، لكننا نكتشف أنهم، في آن واحد، جشعون جداً (très après) في الربح (gain) ومهتمون بنفس الدرجة بمصالحهم المادية ومستعدون أحياناً

(1) les premières invasions arabe dans l'Afrique du nord, 21-78/641-697 j.c. p 27-s q

لإخضاع. (Subordonné) كل شيء لها. وهذا التناقض الطبيعي جدا، في حد ذاته، يذهلنا عندما يكون ميسورا (elle est portée) لهذه الدرجة، وهو يترك بسهولة كبيرة تعاضد إحساسيين (sentiments) متماثلين في القوة، بأنفسنا، حافزين (deux moteurs) إجباريين بنفس الدرجة في مزاج (deux moteurs) نريد أن يكون أبسط كي يتضح لإدراكنا، فعلينا التعود على هذه التناقضات العنيفة، إنها من طبيعة البشر، وعند الرغبة في تقليصها سنسبب كثيرا ما لا يمكن تبسيطه، وللتوضيح أكثر سنكون أقل صدقا⁽²⁾.

(2) Caudel M.:op cit., pp.30-31

- حملة عمرو بن العاص على منطقتي برقة وطرابلس:

يلاحظ Caudel M. عن حملة عمرو بن العاص على برقة "أن ابن أبي دينار هو المؤلف الوحيد (من بين المؤلفين العرب) الذي يتحدث عن حملة خاصة لعقبة (بن نافع) على برقة؛ في حين أن الآخرين يتحدثون عن التي قادها إلى زويلة فقط" وبناء عليه يستنتج Caudel أن عمرا يمكن أن يكون وجهه، فعلا، دورية استطلاع (avant -garde) إلى منطقة برقة (Cyrénaïque) ثم وصل، هو نفسه، تحت أسوار مدينتها (Barqa) ليستخدم جيش الحملة التي صارت جاهزة للزحف على زويلة⁽¹⁾.

وبرقة المعنية هنا، حسب Julien (Ch. A.) هي "أهم المدن الخمس المسماة (Pentapole)، وقد سقطت في أيدي العرب منذ خريف سنة 642م. ثم سقطت بعدها كل المنطقة التابعة لها (La Cyrénaïque)⁽²⁾.

ويبرر Terrasse H. قيام الجيوش الإسلامية بغارات غرب مصر ببعود العرب، على طبيعة الصحراء في بلادهم، مما جعل الصحراء الليبية لا تقف حاجزا⁽³⁾ في طريقهم.

ويطلق Gautier E. F. تسمية قرصنة (Course) على تلك الغارات أو الغزوات التي شنت على منطقتي برقة وطرابلس سنتي 641-642م، كما يقول⁽⁴⁾.

(1) Caudel M.:op.cit., p.45

(2) Histoire de l'Afrique du Nord, Payot- Pairs 1966, T.2, P.13

(3) Histoire du Maroc, livre II, P.78

(4) Le passé de l'Afrique du Nord, Payot Paris, 1937, p.249

وفي رأي Mercier E. أن "بربر هُوارة ولوآنة الذين يسكنون برقة حاولوا، عبثًا مقاومة محاربي الإسلام، فهُزموا، وقد يكونون اشتروا أنفسهم بغرامة ضخمة"⁽¹⁾ كما أن "المغتصب جرجير بقي، أثناء غزو منطقة طرابلس (la Tripolitaine)، في عاصمته سبيطة، دون محاولة الدفاع عن بلد كان، قبل ذلك، متروكا للبربر البدو، مع أنه كان من السهل عليه أن يتوقع بأن العرب الذين أغرتهم (alléché) انتصاراتهم الأولى، لن يتأخروا في القيام بتوسعات أخرى"⁽²⁾.

وهذا نفس ما ذهب إليه Julien Ch. A.، تقريبا، فيما سجله عن قيام العرب، انطلاقا من برقة، بغارات نحو الجنوب حتى فزان (زويلة) ونحو الغرب حتى طرابلس... ولم يصطدموا حتى ذلك الوقت سوى بالقبائل البربرية، وقد شجعتهم لا مبالاة الأكسرخوس (l'exarque) على مواصلة غزوهم، مع أنهم حددوا احتلالهم الدائم في بلاد برقة (Cyrénaïque)، ولم يتخطوا جبل نفوسة⁽³⁾.

وقد استخلص Caudel M. من روايات المصادر العربية عن حصار طرابلس أنه "كان طويلا، وربما كان شاقا على المسلمين الذين لم يستولوا على المدينة إلا عن طريق الحظ السعيد، ثم تمت تصفية سكانها بحدّ السيف (au fil de l'épée)"⁽⁴⁾ كما استخلص من إرسال عمرو لبسر ابن أبي أرطاة إلى وِذَان، بعد سيطرته على طرابلس، أن حملته "تُسبّه الحملة التي قادها عقبة على زويلة وأن كليهما حصلت على نفس النتيجة، وهي أخذ الجزية ثم الانسحاب الفوري، بعد ذلك، وفي تلك

(1) op.cit.,p.52

(2) Ibid, p.53.

(3) op. cit., T.2,P.14

(4) op.cit.,p.46

الأثناء عاد عمرو من طرابلس إلى برقة، وعندئذ فقط، حسب ابن زيني ودحلان، أبرم معاهدة، مع بربر هذه الناحية، تقضي أن يدفعوا له جزية قدرها ثلاثة عشر ألف (13000) دينار⁽¹⁾.

ويفسر Caudel إرسال عمرو لعقبة بن نافع نحو الجنوب الغربي، إلى زويلة، بما بدا له من أن العرب لم يعرفوا، في البداية، طريق الاحتلال (conquête) الحقيقي المباشر نحو الغرب، وقد يعود ذلك أيضا إلى تخوفهم من مجاورة البحر، حيث لم يستطيعوا المغامرة بأنفسهم فيه، لأن شجاعته الهائلة كانت مفرعة بالنسبة إليهم، أكثر من فراغ الصحراء الهادئ، ويعترف هذا المؤلف أنه يجهل الغريزة التي دفعتهم في غزواتهم، بادئ الأمر، نحو الجنوب، حيث الرمال والصخور الجرداء والواحات والآبار النادرة⁽²⁾.

وفي تعليقه عما لاحظته من عدم إدلاء المؤرخين بتفاصيل أخرى تتعلق بالاستيلاء على برقة وبحملة عقبة، يرى هذا الكاتب أن هذه الأحداث لا تستحق معلومات أكثر، لأن ما قيل عنها يكفي لتحديد طبيعتها وأبعادها؛ فالإنسان العربي يتوسع بسهولة، وغالبا ما يوقع معاهدات، وقتاله لا يستمر طويلا، ونادرا ما يكون حاسما، لأن ساكن المدن يفضل التفاهم مع المحتل على الصمود خلف الأسوار، وفقدان السهل (التابع للمدينة) كما أن المحتل، الذي يجهل فن الحصار، يفضل التفاوض على تضييع الوقت في عمليات حرب غير مضمونة النتائج: لقد قدم دون مخطط جاهز، وهو يجهل البلاد تقريبا، ولا يعرف أبدا، إلى أين يذهب بالضبط ولا يعرف العدو الذي يقصده، وهو يخشى دائما، مساء

(1) caudel M., op.cit., p 47

(2) Ibid.

انتصاره، من التقلب المباغت للحظّ ومن وصول الإمدادات للعدوّ ومن الهزيمة، ومن ضياع الغنيمة التي تحصل عليها، ثم إنه غالبا ما يحقق فوائد حملاته في أسرع وقت ممكن، نقداً، ليتمكن من حملها بسهولة أثناء أي انسحاب، ولكي يحصل على المزيد منها، يضع شروطا يسيرة على الساكن الذي لا يهتم أمره كثيرا ولا يحكمه ولا يخضعه إلا قليلا⁽¹⁾.

والمهم أن القائد العام (généralissime)، حسب نفس المؤلف لم يغادر الغرب (غرب مصر) الذي لم يكد يلحمه، دون أمل العودة، لأن احتلاله كان سهلا، فطرابلس وحدها هي التي دافعت عن نفسها، بدون نجاح، وقد أثبت مساعداه، بتقدمهما إلى ودّان وزويلة، أنه يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك، دون عناء كبير⁽²⁾.

وحول نفس الموضوع يذكر Julien (Ch.A.) أن عمرا" الذي هبّته انتصاراته قد يكون حاول القيام بحملة إلى إفريقية، أي البلاد التونسية⁽³⁾. وذهب Caudel قبله إلى القول: إن عمرا لم تكن لديه مشاريع عن الغرب (L'occident)، وهو لم يرد أن يفعل في إفريقية إلا ما فعله، قبل ذلك، في منطقة طرابلس بقدر كبير من النجاح: أي الاستيلاء بسهولة على البلاد ثم الانسحاب، لأن انشغالاته المستمرة كانت في مكان آخر، وبالتحديد في مصر التي سرعان ما صارت تطالب كلّ عناية: ففي سنتي 23 و 24 أو 25 هـ، حسب ما ذكرت المصادر، حاول الإغريق (الروم) الاستيلاء على الإسكندرية التي خضعت في واقع الأمر، إلى قائدهم مانويل (Manuel)، غير أن هذا الأخير قُتل في

(1) Caudel (M.): op.cit., p.44

(2) Ibid.p 46

(3) op.cit.,p 13

معركة جرت بضواحي المدينة التي سقطت، مرة أخرى، بأيدي العرب⁽¹⁾.

وقد حاول أغلب الكتاب الفرنسيين تقديم وجهات نظرهم في مسألة رفض الخليفة عُمر لاقتراح عَمْرُو، الخاص بفتح إفريقية، وفي الرسالة التي ورد فيها جوابه، ومنها: أن Mercier E. يعلّل ذلك الرفض بعدم ثقة الخليفة في بلدان المغرب، التي كان يسميها: البعيدة الغدّارة (lointaine perfide)⁽²⁾، ويعلّله Caudel M. باحتراز عُمر من جرأة قائده الحربية⁽³⁾. ويردّ Marçais G. ذلك إلى أنّ فكرة إلحاق بلاد البربر بدار الإسلام بدت لعُمر كأخطر مغامرة، وأنّ خطرها أكثر من فائدتها، كما يعود تحفظه إلى بُعد هذه المنطقة عنه ممّا سيحوّل دون مراقبته للجيش والقادة⁽⁴⁾.

وفي تعليقه على مضمون رسالة الخليفة إلى قائده، يذكر Gautier أن كلامها التاريخي الوارد على لسان عُمر، قد يكون تنبؤاً ويُحتمل أن يكون مزيفاً (apocryphe) لكنّه يَختصر، بكل تأكيد، وهنّ الرأي العام المتأثر بالإخفاقات الكثيرة، في شكل الرواية الشفاهية⁽⁵⁾.

ويؤيد Terrasse H. كلام Gautier بقوله: إن الرسالة يُحتمل أن تكون مزيفة، مضيفاً أن الخليفة قد يكون بيّن لقائده فيها أخطار هذا البعيد الغادر، المتملّ في المغرب، وأبقاه في عين المكان⁽⁶⁾ ونفس الطريق سلكه Julien Ch. A. فيما رآه، من أنّ تلك الرسالة، إن لم تكن

(1) Caudel op.cit., pp 47-48

(2) op.cit., p.53

(3) op.cit., p.47

(4) La Berbérie musulmane, p.20

(5) Le passé de l'Afrique du Nord, p.249

(6) Histoire du Maroc, livre II, p.78

مطابقة للأصل فهي، على الأقل، تعكس الشعور بالعداء الذي صار يكنه، فيما بعد، عرب القرن التاسع (الميلادي) لأرياف إفريقية المملوءة بالمكائد⁽¹⁾ ثم يعلق Julien على مضمون روايتين مختلفتين لتلك الرسالة، كما أوردهما ابن عبد الحكم، قائلا: لم يترك الدرسان (les deux leçons) (أي الروايتان) مجالا لأي شك في الشعور المنسوب إلى الخليفة⁽²⁾.

- أوضاع إفريقية البيزنطية عشية الفتح الإسلامي:

يُلخّص Caudel M. تعامل الرومان والبيزنطيين، بعدهم، بصرف النظر عن الوندال، مع البربر في طريقتين أو تكتيكين (Deux tactiques)، يعتمد أولهما على تثبيت عدم استقرارهم، مما يحتاج إلى سحق القبيلة ونهبها إلى أقصى حد ممكن، وإجبارها على طلب العفو، والاستيلاء على خيولها وأسلحتها والجزء الأكبر من قطعانها، ورميها مع غيرها في السهل، تحت رقابة مراكز صغيرة، تصل بينها طرق عسكرية، وإقامة خط متعذر العبور (infranchissable) من القلاع، بين هؤلاء الهمجيين (barbares) الخاضعين وبين إخوانهم في الصحراء، وقمع أي تحرك يهدف إلى الاستقلال، بكل صرامة، والرومان هم الذين تبعوا هذا التكتيك فكلفهم غالبا لكنه كان ناجعا، إلى أن تصدع الحاجز (Digue) المقام ضد تدفق البرابرة (barbares)، في بعض نقاطه، ونطلق الغزو (invasion) من جديد إلى الأراضي الآمنة⁽³⁾.

ويعتمد ثاني التكتيكين على الاتفاق مع بعض الرؤساء، ومنحهم شريفات وألقابا وربما منحا، واستعمالهم في إيقاف إخوانهم الآخرين عند

(1) Histoire de l'Afrique du nord, T.2, p.13.

(2) Ibid, p.14.

(3) Les premières invasions arabes, pp.19-20

حدّهم، وغالباً ما كان هذا التكتيك هو التكتيك البيزنطي، وكان صعباً (scabreuse) ويكلف الخزينة غالباً، كما يؤدي إلى النيل من كبرياء الإمبراطورية، ولم يكن، فيما عدا ذلك، سوى الافتراض الأسوأ الذي انتهت إليه ظروف الدولة في نهاية القرن السابع: إذ اختفت قوة القيصر، وأعلن الوالي (gouverneur) استقلاله، وأصبح يُسيّر المقاطعات القديمة أو على الأقل بعضها، بموافقة رؤساء الأهالي (des chefs indigènes)، ومارس جرجير، بطبيعة الحال، السياسة البربرية (la politique berbère) في سببيلة، واستمر على حاله، يستعمل لصالحه الوسائل التي كان سابقوه يستعملونها لصالح الإمبراطورية. وقد استخدمت الوصيلتان، سابقاً الذكر لغرض السيطرة على الإنسان البربري⁽¹⁾.

والسياسة الإغريقية بإفريقية تبدو لنا بمثابة جهد هائل، حاول فيها شعبٌ متحضر (police) إخضاع ودمج مقاطعة بعيدة، يهددها من كل جانب، تدفق البرابرة، وقد تمكن الرومان، قبلهم، من ذلك؛ وكان الإغريق يمتلكون تقاليد هؤلاء لكنهم لم يمتلكوا قوتهم، فبدلوا أقصى ما في وسعهم، ولم ينتج عن مجهوداتهم سوى تهيج (déchaîner) موكب مرعب من النكبات على مُزاق (Byzacène) والولاية البيزنطية (la proconsulaire) وإنهاء تحطيم العمل اللاتيني بكامله في إفريقية⁽²⁾. ففي بداية القرن السابع، إذًا، كان البلد، إسمياً على الأقل، تحت السيطرة البيزنطية، لكن قوة الإمبراطور (Basileus) كانت منعدمة، إذ حاولت عبثاً، لمدة حوالي مائتي عام، إعادة النظام والأمن إليها، حيث أن

(1) Caudel· op.cit., p.20

(2) Ibid, p.10

لبيزنطيين شرعوا، بمجرد نزولهم في مُزاق (Byzantium) سنة 533م، في إقامة سلسلة من القلاع (forteresses) ثم راحوا، بعد ذلك، يحولون إدارة المقاطعة، لكن أمورهم باءت بالفشل، على الرغم من مظاهر بعض النجاح، إذ أن ثورات البدو (maures) المستمرة وعصيان لؤلؤة، والاضطرابات التي سببتها الصراعات الدينية، أفلست سلطة إمبراطور، لدرجة جعلتها منعدمة، عند بداية تاريخنا (تاريخ الفتوحات الإسلامية)، وضَعُفُ الإغريق يفسر جزئياً نجاح العرب⁽¹⁾.

وكان سكان القرن السادس مستضعفين (diminuées) ومُعوزين (appauvries) يكتفون، بما تيسر لديهم، من صُدَفِ المحاصيل، فلم تُعدّ لهم مرونة الماضي الاقتصادية، وكانت الضرائب الباهضة المسلطة عليهم كافية لجعل وسائل استمرارهم على قيد الحياة دون الحد الأدنى للزوم⁽²⁾ ولما آل الحكم للعسكريين في المقاطعة، نجحوا أكثر، تقريباً، في نفع عنها ضد البدو (les maures) إلا أنهم كانوا قليلي المرونة مع لِسْنة المركزية: ففي سنة 608م. احتجز Héraclius في قرطاجة سفن لعمى. التي صدرت إليه أوامر بإرسالها إلى القسطنطينية، وفي 610 أخرج ابنه الصغير الذي يسمى مثله (Héraclius) ضد المغامر الصغير phocas فخلعه وتُوِّجَ إمبراطوراً في مكانه، وبعد ذلك دخل تاريخ فرعية في غموض إلى سنة 646م. حيث انتهز المسمى البطريق حريير (Grégoire) فرصة قصور (minorité) الإمبراطور Constant II الذي لم يتجاوز سنّه الخامسة عشر، متذرّعاً بالميل الذي كان هذا الأخير يبدية لمذهب الوحانية (monothélisme)، وأعلن نفسه

(1) Caudel, op. cit.,

(2) Ibid, p.9 .

إمبراطورا فوجد، على ما يظهر، تأييدا واسعا من السكان، بمن فيهم الأفارقة المرومنون والقبائل البربرية، وقد يكون سبب مغادرة Grégoire قرطاجة إلى الداخل للإقامة في مدينة سبيطلة، الكبيرة والغنية، راجعا إلى رغبته في الاقتراب من حلفائه، فكانت تلك هي نهاية السيطرة الإمبراطورية على إفريقية⁽¹⁾.

ولا يختلف ما ذكره Julien (Ch. A.) إلا قليلا عما ذكره Caudel، فالبيزنطيون، بالنسبة إليه، عندما استعادوا المقاطعات الرومانية القديمة سنة 533م وطرّدوا الوندال بدّوا وكأنهم استأنفوا، وبكل بساطة، التقاليد الإمبراطورية التي عطّلها جنسريك (général) وأتباعه مدة قرن تقريبا. والواقع أن إفريقية البيزنطية لم تشبه بالمرّة إفريقية الرومانية، وهذا ما يفسّر، تقريبا، سبب الدور المحدود الذي لعبه البيزنطيون عند ظهور المحتلين (conquérant) المسلمين.⁽²⁾

فالأرض التي احتلها البيزنطيون كانت أقلّ بكثير مما كان يحتله الرومان، وكانت الأراضي المتروكة تتفصل ببطء عن الحضارة الرومانية لتعود، شيئا فشيئا، نحو التقاليد البربرية القديمة، وكان ذلك سهلا في الأرياف حيث كان دخول الرومان قليلا؛ أما في المدن والقرى فالبربر المرومنون كانوا يبتعدون تدريجيا، كما لو كانوا مكرهين، عن نمط حياة أعجبهم، ومهما كان فالبربر: ريفيون ومدنيون، كانوا استرجعوا عادة الاستقلال السياسي الذي كان يبدو لهم ثمينا، وفي داخل المناطق الخاضعة لبيزنطة نفسها كانت تُشتم رائحة حاجة التحرر

(1) Caudel (M.): op. cit., pp.12-13

(2) Histoire de l'Afrique du nord, Payot- Paris 1966, T 2, p.9

السياسي: إذ كانت تجمّعات بربرية كبرى، تظهر مستقلة بوضوح، على ما يبدو، عن حاكم قرطاجة⁽¹⁾.

إضافة إلى أن البيزنطيين لم يجلبوا لإفريقية نفس الصلابة (solidité) التي جلبها لها الرومان: فقد جاءوها بخلافاتهم الدينية وأحدثوا بعض الانفعالات، في كل المجتمعات المسيحية بالبلاد، وزرعوا بذور الفتنة⁽²⁾، ولم يكن موظفو بيزنطة، أخيراً، مثاليين في علاقتهم مع السلطة المركزية: إذ كانوا يتفحصون الأوامر قبل تطبيقها، إن طبقوها أصلاً، وقد جاءت موت هرقل (Héraclius) ووصول إمبراطور، في بداية مراهقته، إلى السلطة، وهو قنسطنس الثاني (constant II) سنة 641م، لتزيد من حدة الاتجاه النابذ (tendance centrifuge) سلطة المركزية: ففي سنة 646 ثار البطريق جرجير (Grégoire)، حكم إفريقية البيزنطي، على حكومته وأعلن نفسه إمبراطوراً⁽³⁾.

تلك هي إفريقية التي ستلقى هجوم المسلمين، بلذّ بدون تماسك (cohésion)، في حالة الابتعاد عن حضارة تحتضر، تاركة، شيئاً فشيئاً لمؤسسات الرومانية، لتعود إلى التقاليد السالفة، قليلة الخضوع لرؤسائها ليزنطيين الذين ينفصلون بدورهم، عن حضرة بلادهم⁽⁴⁾.

ولم يعثر Fournel H. عندما حاول التعرف على وضعية فريقية، عشية الفتح الإسلامي، إلا على ما يفيد أن هرقل (Héraclius)، وقت إمبراطور المعروف بهذا الاسم، كان إكسرخس (exarque) فريقية، عندما اجتاز ابنه البحر لتتحية phocas، وأن قاصده الرسولي

(1) Julien, op. cit., t 2, p 9.

(2) Id.

(3) Caudel: op.cit.,p.10

(4) Ibid, pp.52-53

(légat) هو البطريرق grégoras، وأنّ الاثنين كانا في وضعية استقلال وثورة معلنة، بحكم أنهما توفقا عن إرسال محاصيل إفريقية ومصر إلى القسطنطينية، بإيعاز من بريكسوس (priscus)، صهر فوكاس، ولا شك أنّ إرسال تلك التموينات، قد استؤنفت أثناء حكم هرقل (Héraclius) إلّا أنه من المؤكد أن المصرية منها كانت متوقفة، عندما سقطت الإسكندرية بأيدي المسلمين، في بداية حكم قونسطانس الثاني سنة 642م، وقد انقطعت أخبار كل المصادر عن إفريقية في هذه الفترة. ومن الأحداث التي وقعت مباشرة، بعد موت هرقل سنة 641م. أو بالأحرى موت ابنه قنستنتين الثالث، يمكن إقامة الدليل على أنّ سبنة كانت آنذاك تابعة للإمبراطورية، ما دام هرقلوناس (Héraclonas) نفى إليها فيلاغريوس (philagrius) خازن (trésorier) أخيه. وفي شرق إفريقية، عندما استولى العرب على طرابلس سنة 23هـ/643-644م، استغاث السكان بالنفوسيين، مما يدفع إلى الاعتقاد أنّ بيزنطة لم يعد لها أي وجود في منطقة طرابلس، أما في إفريقية بالذات فقد كان يحكمها شخص يُسمّى جرجير (Grégoire)، عقّد سنة 646م. نوعا من المعاهدة (une espèce de pacte) مع الأهالي، شروطها غير معروفة، ونصب نفسه حاكما (souverain) بانفصاله عن القسطنطينية (métropole)، ما دام ضرب الدينار على وجهه، حسب ابن عبد الحكم⁽¹⁾.

وبالنسبة لـ Mercier E. فإنّ البطريرق جرجير (Grégoire)، ممثّل إمبراطور الشرق في إفريقية، كان قد ترك مقره، قرطاجة، قبل تلك الأحداث (فتح برقة و طرابلس) وانتقل إلى سبيطلة حيث حمل

(1) Les Berbères ,T.1,p.109

الأرجوان (la pourpre)، واستلم حاكم آخر، أرسلته بيزنطة، ولاية قرطاجة والأراضي الضيقة التي استمرّ ولّاؤها للإمبراطورية، وهكذا كان الإغريق، في حالة الاحتضار (au moment suprême) ينتزعون من بعضهم البعض، بخلافاتهم الداخلية، كلّ وسائل المقاومة الجديّة، بدلا من تجميع قواهم لصّد المحتل⁽¹⁾.

- حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح:

يعتقد Fournel H أن ابن أبي سرح "يكون قد أرسل، ولا شك، نوريات (des détachements) للقيام باستطلاعات (excursions) سريعة على حدود إفريقية سنة 26هـ، وأن نجاحها هو الذي جعل الخليفة عثمان يقرر القيام بغزو (Conquête) هذا البلد سنة 27هـ"⁽²⁾.

ويرى Caudel M أن حملات تشبه تلك التي قادها عقبة وبُسُر وعمرو نفسه، ربما لم تكن نادرة، فهي سهلة ومُغرية جداً، بالنسبة لتجيوش المقيمة في مصر وبرقة، تُتيح لها فرصة كسر الجمود، وهكذا كُنت جرائد الخيل (corps de cavalerie) تذهب لجسّ نبض حدود إفريقية، في ولاية عمرو بن العاص وولاية خلفه، ومن حقّاً (كما يقول) ن نفترض أن حملات بسُر بن أبي أرطاة وعقبة بن نافع وعبد الله بن سعد وقائدين آخرين، يسمّى كلّ منهما عبد الله بن نافع...، كانت تخرج سنوياً، من سنة 21 إلى سنة 27 هـ، إلى الجهة الأخرى من سُرّت، حدّ عن الاتصال مع بقية القوى (puissance) البيزنطية⁽³⁾، ويبرّر هذا لكتّب إرسال ابن أبي سرح لسرايا (escadrons)، نحو الغرب،

(1) op.cit., pp.52-53

(2) op.cit., p.110

(3) op.cit., p.48

للاستكشاف، بمجرد أن عُيِّن سنة 25هـ/644م. بما كانت له من أهداف حقيقية (de bonnes raisons)، ومنها: الفضول بالنسبة للمجهول الذي لَمَسه هو نفسه، أثناء حملة عمرو الأولى على طرابلس، وأمل الغزوة (ghaziah)، والانشغال بنشر العقيدة الإسلامية، وبالأخص، على ما يَظُن، الرغبة في استعمال الجنود العاطلين الذين كانوا يمثلون عائقا (embarras) يُمكن أن يتحول إلى مشكل، فقد كان يرسل المتلهفين (impatients) منهم للاستكشاف، وربما كانت غزواتهم كثيرة ومتتالية. (1)

بل إنّ Julien (ch.A.) يذهب إلى القول: إن عبد الله بن سعد يكون " قد قام بغارة جانبية أولى (Une première Pointe) سنة 645 أو 646، لكن الغزوة (razzia) الكبرى التي زخرفتها الأخبار التاريخية العربية بأحداث عجيبة وخيالية وقعت سنة 647م. " (2).

ويقول Becker (C.H.) "إنّ عبد الله قام بحملات مختلفة (divers) ضدّ إفريقية الرومانية (Romaine): يُفترض أن تكون أولاهما قامت سنة 25 هـ/ (3) 645-646م، لكن الأهم والأكثر مجدا أيضا لم تَحُدث إلا سنة 27 هـ/ 647-648م، وهو ما يُذكر بما لاحظته Caudel من أن "الغزوات الأولى والكثيرة، بدون شك، يمكن أن تكون أربكت مصادرنا وتسببت، بكل تأكيد، في التباس (CONFUSION) التواريخ التي تُسجَل أحيانا في رواياتهم وهذه، مع ذلك، تختلف قليلا، ولا نتردد بالنسبة للحملة الكبرى الأولى إلا بين عديدين: (26 أو 27 هـ/ 645-646م أو 646-647م).... مع العلم أن المؤرخين البيزنطيين يحدّدون

(1) Caudel, op. Cit.

(2) op.cit.,p.14

(3) E.I., n^{elle} éd, Leyde-Paris 1960, T.1, art. Abd Allah b.Sa'd, p.53

تاريخ وقوع هذا الحدث بالسنة السادسة من حكم الإمبراطور قنسطانس الثاني (Constant II)، وهو ما يوافق سنتي 646-647م وبالضبط سنة 27هـ⁽¹⁾.

وقد تسبب الالتباس في التواريخ في التباس آخر: حيث أن تحديد تاريخ حملة عبد الله (بن سعد) بسنتي 25 أو 26هـ. جرّ (بعض) المصادر إلى اعتبار عمرو هو المَوْجِي (Inspirateur) بها، والواقع (أن)... عمرا صار بعيدا آنذاك عن مصر، ولم يكن يستطيع المشاركة في تنظيمها، وكان عبدالله بن سعد خلفه سنة 25هـ... ولم يصل إلى هذا المنصب الرفيع إلا بفضل الخليفة، ولن يجرؤ على القيام بحملة جديّة كهذه دون موافقة سيّده (son maître) وحاميه...⁽²⁾.

وبحاول Marçais G. إعطاء تفسير لتبلور فكرة فتح إفريقية اعتمادا على رواية لأبي العرب، تُنسب كلاما إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضه) مفاده أن "إفريقية باب من أبواب جهنّم" ثم يعبر نفس لمؤلف عن ميله إلى "مقابلة هذه الإدانة (condamnation) المدهشة بتأكيد المنسوب إلى النبي محمد (صلعم) نفسه، من أن بابا من أبواب لجنة يوجد، بالضبط، في إفريقية؛ ومع أن هذا الحديث ليس أقل تزويرا من ذلك الكلام (كلام عمر)، فقد يكون ورد لتغيير المصير السيئ العالق بلاء البربر، وحثّ المؤمنين على طلب الشهادة فيها، فقد ظهر المغرب (occident)، بالنسبة للمشرق، منذ وقت مبكر جدا، كأرض مباركة تجهد، وقد أعلنت عن ذلك أحاديث كثيرة، يكون من اللائق التمييز بين... إذ يحتمل ألا تكون كلها عائدة إلى ساعة مبكرة، فلم تُؤلف

(1) Les premières invasions arabes, p.52

(2) Ibid, pp.52-53

(inventés) لتشجيع الانطلاقة الأولى نحو الغرب، بل من المتوقع أنها تدرجت مع الوقت، وطبعت ما يمكن تسميته تحولات متتالية على الجبهة، وبالفعل فقد أُنْتُتَا بعض الأساطير بصدى الغارات (incursions) الأولى على بلاد البربر ومنها، على سبيل المثال، أنّ النبي بعث "سرية في سبيل الله، فلما رجعوا، ذكروا شدة البرد الذي أصابهم فقال رسول الله - صلعم -: لكن إفريقية أشدّ برداً وأعظم أجراً" ... هذه الروايات الباعثة على التقوى تربط، رغم كل الاحتمالات، تاريخ التوسع الإسلامي في بلاد البربر بشخص رسول الله الوقور، وإذا كان من غير المعقول أن يكون محمد عبّر عن رأيه في حرب ستجرى بعد وفاته بخمس عشرة سنة، فإنّ ذكره تبقى، مع ذلك، مرتبطة ارتباطاً غير مباشر بالاحتلال (الفتح) عن طريق ما لعبه فيه أصحابه من دور ... فقد قرر عثمان، بناء على معلومات شجعتة، تلقّاهَا من منطقة طرابلس، إرسال حملة، لكنه لم يأخذ قراراً نهائياً، في ذلك، إلا بعد استشارة الصحابة: فالخليفة المتردد (scrupuleux) كان يحتاج إلى تدعيم قراره باستفتاء المؤمنين (dépositaire) على سنة الرسول، في مشروع يرهن مصير الإسلام فشكّل الصحابة، ومن بينهم مهاجرون حقيقيون ... أطرجيش الاحتلال، ومع كل واحد منهم جماعة من قبيلته ...⁽¹⁾.

وحسب Caudel فإنّ المعلومات التي شجعتة على اتخاذ قراره وردت في تقارير المستكشفين الذين أرسلوا إلى حدود إمبراطورية جرجير (حيث بُيِّنَتْ) وجود بلاد عامر وغني، وراء منطقتي سيرت (الكبرى والصغرى)، يبدو الدفاع عنه ضعيفاً. والعرب يعرفون،

(1) La Berbérie musulmane, pp.20-21

بالتقريب، أن حاكمه هو والٍ بيزنطيٌّ ثائر، سلطته ضعيفة، فبدت لهم فوائد القيام بحملة عليه مُعتبرة، والأخطار فيها مقلَّصة إلى الحد الأدنى، (وكان) في مصر جنود سئموا (الفراع)، وفي الحجاز رجال كثيرون لا يطلبون سوى السير (للقتال)، وكان وجود هؤلاء المقاتلين غير مطمئن كثيرا للخليفة العجوز، عثمان، الذي سارع بانتهاز الفرصة للتخلص منهم، فبعث العاطلين (désœuvrés) من المدينة ومصر إلى الغرب، وهو يعرف، عن طريق التجربة، أنهم لن يعودوا إلى الجزيرة العربية بعد خروجهم منها...»⁽¹⁾.

فعثمان، في رأي نفس الكاتب، لم يكن يخاف، مثل عمر، على جيوش الإسلام، من البعيد الغادر (le lointain perfide)، وكان أكثر سعادة لمنح فرصة البروز لمحميه (son protégé)، من عمر الذي كان قير الانشغال (peu soucieux) بإضافة نصر جديد إلى عمرو، وربما حر (عثمان) على علم بالاضطرابات التي كانت تحرك (agitait) نبطقة، آنذاك، فقد كانت ثورة الحاكم (gouverneur) جرجير (Grégoire) على قنسطانس الثاني (Constant II) سنة 26هـ/646م، يمكن تعرب يعرفون "جرجير" هذا، كما يسمونه، وربما كانوا يعرفون أن وضع حكومته كانت سيئة...»⁽²⁾.

والبطريق جرجير هذا، حسب الجنرال Brémond هو خَلَف أخيه ~~Heracleus~~ Heracleus، بعد ذهابه إلى القسطنطينية لتتحيه phocas العاجز وتولية ~~منه~~ فقد أعلن استقلاله سنة 642م، عند بلوغه وفاة ابن أخيه

(1) Les première invasions arabes, pp 72- 73

(2) Les première invasions arabes, p.49

الإمبراطور، مما جعل الإخباريين العرب يقولون: "إن مقرّ حاكم إفريقية كان، آنذاك، مدينة يقال لها قرطاجة، وكان ملكها جرجير: (George, Grégoire)، وهي كلمة إغريقية تعني فلاحاً، في الأصل....." ⁽¹⁾ علماً أن Brémond يوثق كلامه هذا من ابن عبد الحكم، دون ذكر الصفحة وأن هذه المعلومة غير موجودة أصلاً؛ في الطبعة المستخدمة في العمل.

ويذكر Brémond أيضا أن Grégoire تخلى عن قرطاجة،
 كعاصمة، واستقر بسببئيلة وله قصر بتيماقاد... وأن البيزنطيين بقيت لهم
 حاميات في قرطاجة وبعض المدن الساحلية⁽²⁾.

ويستنتج Caudel من القائمة الطويلة لأسماء المشاركين في تلك الحملة، كما سجلها المالكي وصاحب كتاب معالم الإيمان بأنها "تُبين إلى أية درجة كانت إفريقية تشغل بال المسلمين، إذ يوجد فيها: أبناء الخلفاء وصحابة الرسول، وأشد السواعد (les meilleurs bras) وأكثر الناس عنادا (les plus fortes têtes) في الإسلام، ولكي ينضم أناس بهذه البسالة (valeur) إلى الحملة، لا بدّ وأن تكون مُعدّة بعناية، وأن يكون الخليفة اعتبرها هامة، ولا يخشى أن يبعث فيها أكثر الناس وفاء إليه"⁽³⁾.

وَيُصَفِّ هَذَا الْمُؤَلَّفُ الْآخِرُ، قَائِدُ الْحَمْلَةِ، عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ،
 "بِالْمَحَارِبِ الْبَاسِلِ (de valeur) الَّذِي أَثْبَتَ جِدَارَتَهُ فِي جَيْشِ مِصْرَ الَّذِي
 قَادَهُ فِيهَا، وَبِأَنَّهُ أَكْثَرُ حِظًا مِنْ سَابِقِهِ، عَمْرُو، لِحَصُولِهِ عَلَى إِنْزَامِ أَمِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ بِغَزْوِ (envahir) إِفْرِيقِيَّةٍ"⁽⁴⁾، كَمَا أَنَّهُ يَرْبِطُ بَيْنَ مَا نَقَلَهُ الْمَالِكِيُّ
 عَنْ الْوَلَدِيِّ فِي شَأْنِ "إِرْسَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سُرْحٍ لِسَرَايَا إِلَى

(1) Berbères et Arabes, La Berbérie est un pays européen, Payot-Paris, P. 180.

(2) *Id.*

(3) Op. cit., p. 63.

(4) Ibid., p. 49.

حدود إفريقية، بعد توليته مصر، مكان عمرو سنة 25 هـ، و (بَيْن) ما
 نُورده ابن عبد الحكم، من إرسال عقبة بن نافع في مهمة من هذا القبيل،
 والتي قام فيها بالتوجه من غدامس إلى وِذَان سنة 26 هـ "ليخلص إلى
 تقول بأن عقبة لم يعد (من تلك الحملة) إلى مصر، بل عاد إلى برقة
 فقط، حيث لقي... الحملة الكبرى"⁽¹⁾ ويتوقع أن جيش عقبة شكل إمدادا
 حنيا لجيش ابن أبي سرح، لأن رجاله "كانوا أفارقة قدماء (vieux)، من
 عبد عمرو بن العاص، يعرفون البلاد جيدا وكذلك الحرب التي يمكن
 تعيّم بها فيها، وقد سبق لهم وأن فاجأوا طرابلس سنة 23 هـ، ورجعوا
 تحت أسوارها، وربما أعادوا حصارها فكانوا أقل حفا هذه المرة"⁽²⁾. إذ
 حتى فيها جيش عبد الله بن سعد، في بداية الأمر، فشلا، تحت أسوارها:
 بعد قنومته، وهذا في رأي Caudel كان إخفاقا من وجهة النظر العربية،
 نه ليست إلا خيبة أمل، وإذا كانت بطرابلس غنيمة جيّدة جدا، تُدافع عن
 هــ. فإن وراءها يوجد أثمن من ذلك، وهامم العرب ينطلقون نحو
 قس ويدخلون إفريقية..."⁽³⁾ ويلاحظ أن صاحبي كتابي: رياض النفوس
 ومعلم الإيمان، قدّما معلومات حول هذا الحصار، معتقدا أنه "لم يكن
 حسميتها وغموضها هدف آخر، على ما يبدو، سوى حجب فشل
 الحوثر الإسلامية: فأهل طرابلس الذين تعلموا من مصائب عام 23 هـ،
 حصروا جيدا، ولاحظ العرب ذلك، وقد يكون المحاصرون اكتفوا بنهب
 السحق المحيطة بها... وانتقم الجنود من المناطق السهلية"⁽⁴⁾. ثم انطلقوا
 نحو قس ودخلوا إفريقية"⁽⁵⁾.

(1) Caudel: op.cit , p.5.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Ibid, p.65

(5) Ibid, p.73

وما يلاحظه Caudel عن هذه الانطلاقة: أن ابن أبي سرح "لم يجد مقاومة في طريقه نحو الغرب... فقد مرّ بقابس، دون أن يذكر أحد ما إذا وجد بها حامية، بإمكانها إزعاج مسيرته أو تعطيلها، دون إيقافها... ولم تزعجه مواقع مزاق (Byzacium) أكثر من ذلك، فقد كانت أهميتها، ولا شك، ضعيفة جداً، وكانت جراته أكبر من أن يعير لها أهمية، إذ كانت في سنة 641م، حسب السيد Diehl، حاميات بطرابلس وسبراتة وقابس، وكانت حدود مزاق تصل إلى حدود الشطوط الشمالية، وكانت خلفها مدن مهمة كثيرة، لا يعرفها المحتل (le conquérant) العربي، ولا يزيد المؤرخ الذي سجل أعماله عن ذكر واحدة أو اثنتين: أولها سبيطلة، لوجود حاكم البلاد والجيش الذي يدافع عنه بها، ولأن الصدام الحاسم وقع بها. والآن أصبحت مسيرة العرب واضحة: يمرّون تحت جدران المدن المحصنة، متفادين الحاميات التي يُحيل ضعفها الكبير، بينها وبين إعاقة تقدّمهم بمهاجمتهم من الخلف، ويتفادون أيضاً المراكز السكانية التي حمل سكانها السلاح عند اقترابهم واحتموا بتحصينات مؤقتة (hâtives) لكنها كافية لتعطيلهم ويُغرّمون المدن الأقل نفورا، دون انشغالهم بتسمياتها وهم في طريقهم إلى العدو بسبيطلة⁽¹⁾.

والعرب، في نظر نفس الكاتب: هم فرسان ومغامرون، لهم من الأوائل الجراءة الموثوق بها، في غارات يقودونها بحيوية وكذلك السطو الجسور، ولهم من الأواخر التلّيف على الغنيمة، واتجاه العقل كلية نحو حرب المنافع. وتتكوّن جسارتهم، على الخصوص، من ضعف العدو وتصل مجالاتهم إلى الحدّ الذي تكون فيه قوته مهيبة (imposante) فإن

(1) op. cit., p.67

لم يقاوم، تتعدّد الاستطلاعات، ويتوسع النهب ويُنظّم، لكن إذا ظهر جيش دفاعي، تتسحب مواقعهم الأمامية إلى موقع القوة الرئيسية التي تتشاور في إمكانية المجابهة أو الانسحاب، حسب ما تشعر به، من استعداد للقتال أم لا، وبالأخص، حسب ما إذا كانت الغنيمة التي في حوزتها معتبرة أم ضئيلة... ولم يجد عبد الله مقاومة في طريقه نحو الغرب....⁽¹⁾.

وقد أشار Fournel H. إلى رسالة بعث بها السيد دوسلان (de Slane) إلى السيد Hase، في موضوع الحملات الأولى التي قام بها العرب على إفريقية، وصَفَ له فيها الرواية التي اقتبسها عنها نويري، من أحد الإخباريين (traditionistes) يسمّيه الزهري، القصة تخيالية، وهذا ما اتخذه Fournel حجة للقول بأنه يتفادى القيام برواية نحلقات الكثيرة التي يبدو الشك واضحاً على جميعها. وابن الرقيق الذي نقرّ عنه كلّ من البكري والتيجاني، كما أضاف..، يصور لنا فرار الروم، عند اقتراب العرب، إلى الشمال مندفعين إلى جزيرة شريك ومسرعين نحو إقليبية والمناطق المجاورة لها، حيث كانوا يُبحرون ليلجأوا إلى قرصرة، وهي جزيرة كانت، آنذاك، عامرة، فهذه التفاصيل، حسب رأيه، محتملة جداً، غير أن القتال (la lutte) بين العرب والبطريق جرجير، كما جاء به النويري، وحتى ابن عذارى، يَغْرِضُ خصائص قصه أعيد صُغِبَ، من قبل، مرّاتٍ كثيرة فلا أريد زيادة العدد (كما يضيف)⁽²⁾.

ويعتبر Caudel موقف سابقه من المؤرخين الفرنسيين، وخاصةً مع Fournel من رواية النويري لأحداث حملة العبدلة "أحكاماً قاسية

(1) Caudel, op. cit., p.66

(2) op. cit., pp.111-112.

وقليلة الاتزان (peu mesurés)؛ ويرى أنه بالإمكان مناقشتها إلى النهاية (à fond) لكن من الأفضل إعادة التاريخ نفسه واستعمال مصادر أخرى، غير النويري وابن عذاري، واعتبار الوقائع المقرزة من العجيب، الذي نمقها منه هؤلاء، والبحث عن تكملته المحتملة وإعادة بناء مجملها⁽¹⁾.

ويذهب هذا المؤلف الأخير إلى القول: إنه يعرف تكتيك العرب فهُم، حسب رأيه، "ينهبون البلاد بإرسال سرايا في كل الاتجاهات، فتنشر في سهل مزاق المنخفض، بين الجبل والبحر، ويصطف جميع جيش الحملة في سفح مرتفعات تحدّ (tatutent) الهضبة، من منطقة الشطوط إلى وادي زرود؛ متبعا خط نقاط المياه التي تحدد الطريق، وعند حلول عبد الله بن سعد بقمونية، أخبر بوجود جيش خلف الجبل، وقد تكون إحدى سراياه هي التي اكتشفت ذلك... وقد يكون ضباط جرجير هم الذين أزعجوه بهجومات خلفية، وهذا ما قد يفسر معركة عَقُوبَة بتقليصها إلى حجم معركة تمهيدية، وبعدها تنبّه عبد الله، جمع جيشه وزحف، من قمونية، على سببيلة... واتصل العرب بالجيش المعسكر قرب العاصمة، وكانت قوته كبيرة، لأن قبائل الأهالي دعمته، وكانت تريد رؤية توقيف عملية النهب..."⁽²⁾.

وفي رأي Mercier E. فإن جيش ابن سعد كان يتكون من "زهرة الفرسان المسلمين"⁽³⁾ "وإن سكان إفريقية، عند اقتراب العدو منهم، نسوا، لحظة، أحقادهم الخاصة، وأمام الخط المشترك، جاء الإغريق واللاتيين (الأفارقة) والبربر الزناتيون (جراوة ودمّر) للانضواء تحت راية

(1) Les premières invasions arabes, p.50

(2) Ibid., p 76

(3) Histoire de l'établissement des Arabes, p.53

(bannière) البطريق جرجير (Grégoire) الذي انتظر الصّدام مع العرب، دون خوف، في موقع محصّن أمام سبيطلة (Suffétula) وانقأ بكثرة عدد أنصاره، وسرعان ما ظهر المسلمون وانقضوا على تحصينات الإغريق، صارخين: الله أكبر لا إله إلا هو، لكنهم وجدوا مقاومة عنيدة (Opiniâtre) وقد يكونوا استسلموا للانسحاب، وبعد مدة معينة، استؤنف القتال، يومياً، أمام الموقعين (camps)، وأبدى الطرفان فيه شجاعة مماثلة، دون نتيجة تذكر، وأخيراً تمكن العرب من السيطرة على الوضع بجهد يائس، بانقضاضهم على موقع المسيحيين، بعدما خدعواهم (trompés) بانسحاب وهمي (Simulé) وبهذا الانتصار تم استعباد الخلافة (الإسلامية) لإفريقية....(1).

ويذهب Caudel إلى القول: "إنّه إذ كانت المصادر شحيحة، في موضوع البطريق جرجير قلها، على الأقل، فضل الاتفاق على النقاط التي تحدّدها، وعند معرفة نفس القدر الذي يعرفه المسيحيون عن هذا الشخص، وهي تبالغ في مدّ أبعاد إمبراطوريته: المنتصرون المحتلون معتادون على هذا الواقع الذي له ما يبرّره في مناطق تتقلص فيها الممالك وتتمدّد كل سنة تقريباً، حسبما تتحصل عليه الحملة العسكرية المكلفة بجمع الضرائب، والواقع أن البطريق جرجير كان يسيطر على البلاد، وكلّ شيء، يوحي لنا أن سيطرته كانت ضعيفة جداً: "فهو حاكم ثائر، نقل مقرّ حكومته من قرطاجة التي كانت قريبة جداً من بيزنطة، عن طريق البحر، إلى سبيطلة التي أعطاها موقعها، في الداخل، أماناً أكثر، وهناك كان ينتظر العرب، لأنه لم يستطع استقبالهم بعيداً عنها،

(1) Mercier: Op. cit.,p.54

أمير مسكين (Triste prince)، منعه ضعفه الكبير من الصمود على حدود إمبراطوريته، واقتصر، قبل أية معركة، على المقاومة في آخر حصونه. لقد وهبته المصادر الإسلامية مائة وعشرين ألف جندي، ويظهر أن هذه الرواية مبالغ فيها وغير منطقية، كما يظهر أنه لو كان للبطريق هذه المائة والعشرين ألف فارس... لراح يتموقع في قابس، بين البحر والشطوط (أسوة، بما ذكره السيد Diehl عن Troglita Jean الذي ذهب سنة 547م. إلى جنوب شرق قابس، على بعد ست وعشرين ميلا منها، حيث اشتبك مع البربر الثائرين) والأفضل من ذلك أنه قد لا يكون شغل باله بتحريك جيشه، لأن العشرين ألفا من عرب عبد الله، مستخبرين (renseigné) عن قواته، ما كانوا ليوажوها، غير أن المبالغة ليست ثابتة، مهما كانت جلية (manifeste) بل على العكس من ذلك، فإن كل شيء يحمل على الاعتقاد أن جيش جرجير كان ضخما، فهؤلاء المؤرخون أنفسهم، الذين أفرطوا كثيرا في تضخيم عدد جنود البطريق، هم الذين أخبرونا باحتلال (conquête) مصر، وبزحف آبائهم على منطقة طرابلس، دون تضخيم الأحداث (faits)، فهل أخذتهم النزوة فجأة؟ هذا احتمال ضعيف. وقد أهملنا، حتى الآن، من جهة أخرى، عنصرا هاما من المشكل، عنصرا... يريد أخذ مكانته من الأحداث: ما مصير البربر في كل هذا؟ أين يمكن أن يتواجدوا، إن لم يكونوا في سببيلة؟ وما هي الجهة التي انضموا إليها، إن لم يكن البطريق الإغريقي؟ لقد شهدت القبائل (tribus) لأول مرة، غزوا قادمة من المشرق، فهجمت من الخلف وطوردت (refoulées) إلى الداخل، وكان الهجوم عنيفا جدا، لم يترك لها فرصة الاتفاق، إن كانت تريد ذلك، فالقرار كان سيُعوز رأيها، ووحدت الصف كانت ستفقد في القيادة التي بقي البطريق يفرضها

عليها، بجيشه النظامي، وبالأبهة القديمة لحكومته، وقد تكون ذهبت إليه بمشروع خضوع غامض، وقصدٍ خفيٍّ لتمرّد مقل، بعدما يتمّ إبعاد الخطر، و قد يكون استَقْبَلَهَا مبتهجا، بالحظ غير المتوقع، ومحترسا من هؤلاء الحلفاء، ومتسائلا عما عساه أن يفعل بهم بعد صدّ الغزوة⁽¹⁾.

ويعتقد Caudel أنّ العرب ربما "بذلوا في العملية بأسا شديدا وشجاعة نادرة، لأن القوات المُعادية كانت مُنفوّقة جدا عليهم، من حيث العدد، ولكن في جيش مشرقي، كما في جيوشنا، (حسب رأيه)، فإن التفوق في العدد لا يشكل ميزة بالغة الأهمية، ولم يكن في استطاعة انضمام الفرق البربرية، المستعجل إلى باقي القوات الإغريقية في المنطقة، أن يشكل جيشا قويا: فقد كان للمحتلين القيادة الموحدة، وكانت الحماسة الحربية، المدعومة بالحمية الدينية، تنشّط صفوفهم القتالية بقوة نفع لا تقهر، فانتصروا وصارت البلاد لهم..."⁽²⁾.

ويعتبر Terrasse H. جَرَجِيرًا "مستقلا تقريبا (à peu près)"⁽³⁾ ويرى أنه عوضا عن بقائه محصنا بقلعة سبيطلة، أدّى به تهوّرُهُ إلى قبول القتال في السهل، فقتل... وهزم جيشه"⁽⁴⁾.

وفي رأي (Julien (Ch.A.) أن البطريق جرجير اقترب من تقبائل البربرية لكي يتصدى إلى الغزو (invasion) واتخذ من قلعة سبيطلة المحصنة قاعدة إستراتيجية لكن دون أن يجعلها عاصمة له؛ أمّا بن أبي سرح الذي وصل، في البداية، إلى المكان الذي سيقام فيه

(1) Caudel:op.cit.,pp.68-69.

(2) Ibid , p 77

(3) Histoire du Maroc, 1,78

(4) Id

القيروان، فقد رجع إلى الجنوب الغربي، وبعد بضعة أيام من المراقبة، هاجم الجيش البيزنطي في سهل سبيطلة حيث هزمه⁽¹⁾.

وفي تعليق اللواء بريمون عن أعداد الجيوش المشاركة في معركة سبيطلة، يذكر "أن الذين استُخبروا (renseignés) عن إمكانيات تموين (faire vivre) قوة بمثل هذا العدد، في الوقت الراهن (ق.20) بهذه المنطقة، مع الطرق والسكك الحديدية، سيقاّصون تلك القوات إلى أعداد واقعية"⁽²⁾.

ويعلق Fournel H. عما رواه ابن خلدون، من أسر وزّمار بن صولات وإرساله إلى الخليفة عثمان الذي ولاه على قومه مغراوة، قائلا: "إن الجميل (faveur) لم يكن، في الواقع، كبيرا ما دام ابن خلدون سبق وأن قال: إن وزّمار هذا كان آنذاك رئيسا لمغراوة والقبائل الزناتية الأخرى، لكن عثمان أراد، ولاشك، بهذا النوع من التنصيب، تكريس حقّه في احتلال المناطق الخاضعة لابن صولات؛ وواقعة (épisode) إرسال أسير مهمّ إلى عثمان محتملة جدا، لكنها تُلزم التسليم بأن مغراوة تكون قد لبّت النداء الذي يُفترض أن يكون جرجير (Grégoire) قد وجهه إلى البربر لمساعدته ضد العرب، وتوجد هنا صعوبة حقيقية، ومهما كان، فمن الغريب رؤية ظهور جدّ أسرة هي أسرة خزر... منذ الخطوة الأولى للمسلمين في إفريقية"⁽³⁾.

ومن نفس هذا الحدث يستنتج Terrasse H. أن "اعتناق العقيدة الجديدة (الإسلام) لم يتأخر ويبدو أن بربر زناتة - وخاصة مغراوة - هم

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, P.14

(2) Brémond (général): op.cit., pp. 180-181.

(3) Op.cit., p 113

أول من أسرعوا بالانضمام (se rallier) إلى المنتصرين الذين أغدقوا، حسب ابن خلدون، أمجادا (honneurs) على رؤسائهم".⁽¹⁾

ويصف Fournel الهزيمة التي ألحقت بجرجير "بالبشعة" (affreuse)، مضيفا "أن هذه النكبة (désastre) التي يؤكدّها المؤرخون البيزنطيون، حتّى في تاريخ وقوعها، أجبرت المسيحيين على التفاوض مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح في شأن انسحابه..."⁽²⁾.

وبتساءل Caudel عما إذا كان عبد الله بن الزبير هو الذي قُتل، فعلا، القائد الإغريقي؟ ثم يجيب بأن المصادر لا تؤكد، دائما، هذه النقطة وأن بعضها يقدم تفاصيل واضحة جدا، يجهلها، على ما يبدو، البعض الآخر، والنويري هو الأكثر إطنابا لكننا (كما يقول) نمتنع عن الأخذ من مصدر مشكوك فيه، وفي هذه الحالة الخاصة التي تشغلنا، فإن الفيض في التفاصيل التي ينمق بها المؤلف روايته لمُحْكَم لحي يوحى لنا بالحرر"⁽³⁾ وهو نفس ما عبّر عنه ش. أ. جوليان بأسلوب آخر قائلا: "قد يكون جرجير قُتل على يد عبد الله بن الزبير الذي تولّيه الأسطورة مقدرة فائقة حتّى لا يُشك في أمرها"⁽⁴⁾.

وفي موضوع ابنة جرجير يذكر إ.ف. غوتيه (E. F. Gautier) أن المؤرخين العرب خيالون (Romanesque)، خصّصوا مكانا لابنة ابطريق جرجير، ويسمونها يمينه" وقد صارت لرجل من الأنصار، فأقبل بها منصرفا، على ظهر بعير له، وجعل يرتجز:

يَابَنَةُ جَرْجِيرِ تَمْشِي عَفْبَتُكَ إِنْ عَلَيْكَ بِالْحِجَازِ رَبَّتُكَ —

مَسْرُوحَاتُهَا هِيَ الْعَرَبُ
مَا كُنْتَ

(1) Op. cit., p.79

(2) Les Berbères, T.2, p.112.

(3) Les premières invasions arabes, p.71

(4) Histoire de l'Afrique du nord, t.2, p.14.

لَتَحْمِلَنَّ مِنْ قُبَاءِ قَرْنَيْكَ

وعندما سمعت هذا الكلام، سألت عما يريد هذا الكلب قوله، ولما فُسِّر لها كلامه، أَلْقَتْ نفسها من ظهر البعير فاندقت عنقها وماتت".

وفي تعقيبه على هذا الكلام يذهب gautier إلى قول: لا يُعرف أبداً، مع المؤرخين العرب، أين يسترجع مؤلف قصة ألف ليلة وليلة حقوقه؟ وهذا لا طائل من ورائه، فقد لا تكون يمينه وجدت بالمرة، وهي ترمز إلى الفترات الحزينة للعرب الذي يرافق، بالضرورة، كل الثورات، وتمثل حالة الألم الأكبر، خصوصاً بالنسبة لامرأة من طبقة أرستقراطية مرهفة، وقعت فجأة، جسدياً، بين أيدي أنصاف هَمَجِيَّين. وكان العرب نبهاء (fins) جداً، لا تخفى عليهم مثل هذه المأساة، وقُساة جداً، حتى لا يتمتعوا بها. وقد كانت هناك، بالضرورة، حوادث مضيئة (Pénible) لكنها كانت، على ما يبدو، متفرقة⁽¹⁾.

وقد سجل H. Terrasse نفس الموقف، تقريباً، في هذه النقطة: فذكر أن "ابنة البطريق جرجير صارت لقائد مسلم، فَقَتَلَتْ نفسها بالقفز من فوق الجمل الذي كان يحملها، مما يبيِّن أن هؤلاء الأفارقة المتحضرين القدماء (ces vieux civilisés) كانوا يعتبرون مقاتلي الإسلام متوحشين (barbares)⁽²⁾ ونفس الشيء بالنسبة لـ ش. أ. جوليان الذي عبّر عن فكرة gautier بأسلوب آخر، حيث ذكر أن يمينه ابنة البطريق التي كانت من نصيب رجل من الأنصار لم تسلم من العبودية إلا بإلقاء نفسها من فوق ظهر بعيرها لكي تُدَقَّ عنقها، وهذه الرواية الحزينة المختلفة، بدون شك، تُترجم، بطريقة مؤثرة، كما لاحظ

(1) Le passé de l'Afrique du nord, pp 202-203

(2) Histoire Maroc, T.2, pp 78-79.

إ. ف غوتيه (gautier)، الرعب الذي يكون قد عانى منه الإغريق الأرستقراطيون الذين وقعوا بين أيادي البدو القاسية⁽¹⁾.

وقد نتج عن "نكبة" سبيطة، حسب تعبير Fournel H. أن أجبر المسيحيون على التفاوض مع عبد الله بن سعد في شأن انسحابه⁽²⁾ لكن المبالغ التي ذكر أنها قدّمت له، مقابل ذلك، "مبالغ فيها"⁽³⁾.

وفي رأي Mercier E. فإن العرب عثروا "في سبيطة والموقع المسيحي على ثروات هائلة، وعندئذ انقضوا على الجريد، فعادوا محمّلين بالغنائم، وأثناء ذلك، لجأ الإغريق إلى قرطاجة، واقترحوا عليهم صلحا، وما دام هؤلاء المنقلون بغنائم، لم يكونوا يحلمون سوى بالعودة إلى المشرق، كي يقصّوا خبر انتصارهم، فإنهم وافقوا على الانسحاب، مقابل فدية (rançon) معتبرة... وأخذ ابن سعد وعربُه طريقَ العودة إلى المشرق، جارين خلفهم ثروات إفريقية... ولم يتبع هذا الانتصار أية فكرة للاحتلال الدائم ولا أية محاولة لإنخال الناس في الإسلام، ولم يكن لهذه الحروب الأولى من هدف سوى جمع الغنيمة"⁽⁴⁾.

ويلاحظ Caudel أن "الأجم أو لجم (التي تشير إليها المصادر)، هي Tysdrus، وأن قصر الأجم ليس إلا المدرج الذي تشرف كتلته الضخمة على المساكن المتداعية المكوّنة لقرية الجم (el-djem) الحالية، وأن عبد الله (بن سعد) المنتصر في سبيطة تمكّن من استئناف نهب مزارق (Byzacium) دون خشية هجوم جديد عليه، من شأنه إقلاقه، غير أن السكان كانوا قد فروا إلى المواقع المعروفة (places régulières)

(1) Histoire de l'Afrique du nord, T.2, P.11.

(2) Les Berbères, T.2, p.112

(3) Id

(4) Histoire de l'établissement des arabes, p.55

التي يصعب عليه حصارها، ولم يكن الأجم سوى حصن صدفة، مليء بحشد مذعور، لا يحميه أي موقع، بعيد عن حصون الساحل، بما يجعل النجدة، في ظل البلبلة القائمة، تصل متأخرة...⁽¹⁾.

ويستنتج المؤلف الأخير من روايتي المالكي وابن الناجي أن إظهارهما "انشغال القائد والجنود بالغنيمة، بقدر كبير، يدل على اقتصار الحملة فيما بعد، على عمليات النهب، واقتصار الخطة (tactique) على مجموعة من الزخوف السرية (dérobées)، يصل فيها المحتل (l'envahisseurs) إلى أقرب ما يمكن من الثروات المستهدفة وإلى أبعد ما يمكن من ضربات العدو، وإن دافع هذا الأخير عن ثرواته، حاربه العربي بإقدام (résolument) وبعدهما يحصل على المنفعة، ينسحب بنظام ليحفظها، في مكان آمن"⁽²⁾.

ومع أن قيمة السهم الذي تحصل عليه كل مقاتل، من الغنائم، تدعو إلى الاستغراب إلا أن تصور (songer) انتقال هؤلاء الرجال، خلال شهور عديدة، من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة، يجمعون من كل مكان وبغاية دقة كل ما كانوا يستطيعون حملته، ويأخذون الباقي في شكل نقود معدنية (espèces sonnantes)، عندما يتمكنون من ذلك... والمكسب كان، لا شك، معتبرا، ما دام عبد الله قرّر الانسحاب، مع ظهور أول إشارة لوّح بها سكان مدن الساحل بالمقاومة، ولم يستطع، وهذا مؤكد، الاستيلاء على مدن كثيرة، فلا يذكر المؤرخون منها سوى واحدة هي سببلة... وفي باقي الجهات كان هناك دفاع عن النفس، حتى في الأجم التي اشترت نفسها، وكان الدفاع سهلا، يكفي غلق

(1) Les premières invasions arabes, pp. 72-73

(2) Ibid, p. 75

الأبواب وسدّ الثغرات التي أحدثتها الحروب السابقة في الجدران، وربما كانت المدن الداخلية تعاني من المجاعة؛ أمّا الساحلية فلم تشعر بالضرر لأن الاتصال كان جاريا بينها عن طريق البحر، وكان بعضها يساعد البعض الآخر، ولتقتها أكثر بحصانتها، تصورت أسرع من غيرها، مشروع هجوم كان يمكن أن يجعله ضعف العدو محظوظا، وكانت ثقة الرومي بالنفس وحذر العربي تزدادان مع مرور الأيام، وكان لهذا الأخير، من الغنائم، أكثر مما يستطيع حمله، حتى راح يتساءل كيف يحمل كل ذلك إلى مصر؟ فالمقاتل المغتني (enrichi) كره الحرب ولم يكن يحلم إلا بالعودة، وكان القادة يرغبون فيها أكثر. فتم التفاهم بسرعة مع السكان الذين فضلوا دفع ضريبة على انتهاز فرصة خوض معركة....⁽¹⁾

ويذهب GAUTIER إلى القول: إنه "كان يتوقع، في بداية الأمر، أن يكون ممثل المقاومة المغربية هو "إفريقية" بلد الحضارة المدنية نـعـجـوز (VIEUX PAYS DE LA CIVILISATION) (URBAINE) الذي كان على التوالي: بـنـيـقـيا ورومانيا، غير أنه أثبت، معـنـا، حسب اعتقاده، صحة حكم ابن خلدون، في مقدمته، على المراكز لحضارية القديمة في المشرق (Levant): بلاد الرافدين وبلاد الشام، حيث وقع الاحتلال (Conquête) الإسلامي، مرة واحدة، وكان سريعا ونهائيا" وكان لأحد هذين البلدين، كما قال، (أي ابن خلدون) الجيوش لغربية لحراسته، وللآخر الجيوش الإغريقية و عندما طرد المسلمون

(1) Caudel, Op. cit., pp.77-78

الحاميات، لم يعدْ هناك ما يُخشى، من مقاومة أو تمرد" وهذا ينطبق على إفريقية بالذات، أو إن شئنا، على قرطاجة⁽¹⁾.

وقد فوجئ Gautier لعدم رؤية قرطاجة ولا المدن المجاورة لها تقوم بأي شيء في أحداث هذا القرن الأول من الغزو (invasion) الإسلامي، ملاحظاً أن الحامية (garnison) البيزنطية، بقيادة جرجير، هُزمت بسبببساطة، جنوب البلاد التونسية، لكن العرب لم يزحفوا على قرطاجة، فقد كان لهم، في رأيه، أفضل من ذلك، فهم منتصرون حذرون (avisés)، يمثلون حكومة نظامية، ذات ميولات جبائية، جمعوا ضريبة حربية كبيرة، و لم يهتموا بقرطاجة، في كل ما تبّع ذلك من أحداث، سوى مرة واحدة سنة 698م، بعد نصف قرن من سبببساطة تقريباً...⁽²⁾.

ويرى H. Terrasse أن انتصارات العرب "الساطة والسهلة لم تُستغل: فقرطاجة ومدن شمال البلاد التونسية، وقلاع شمال الأوراس، بقيت كلها بأيدي المسيحيين، ويمكن الاعتقاد أن المسلمين بقوا مدة طويلة، دون أن تكون لهم وسائل القيام بحرب حصار (guerre de siège) في إفريقية.... وكان يمكن لهذه الحرب السهلة والمثمرة التي وُجد فيها المسلمون تواطؤات محلية، أن تتبع، في وقت قصير، بحملة أخرى"⁽³⁾.

ويقول Beker (C. H.) إن ابن سعد "تمكن من إخضاع أرض (territoire) قرطاجة إلى الإسلام"⁽⁴⁾.

(1) Le passé de l'Afrique du Nord, p.202

(2) Gautier Op. cit., p.253

(3) Histoire du Maroc, I.2.P.79

(4) Op. cit., p.53

ويعَلَّ Julien غارة (raid) العرب على إفريقية بالرغبة في الحصول على الغنائم" فكان لنهب سبيطلة وغزوات جنوب مُزاق (Byzantium) عائدات كبيرة، غير أن ابن سعد، في اعتقاده، كان يمكنه أن يخشى هجوما مضادا تدّعه حصون الشمال، التي لم يكن قادرا على حصارها، فلما عرض عليه البيزنطيون غرامة حربية ضخمة، لمغادرة إفريقية (Byzancène)، قبل بكل سرور (Volontiers). والتحق بمصر، وبحوزته كل كنوزها... ومهما كانت (الحملة) قصيرة، فقد وَجَّهت ضربة قاسية إلى السيطرة البيزنطية، في منطقة إفريقية الجنوبية (Byzancène) المنهوبة والمهجورة، ولم تكن القبائل البربرية خاضعة لرقابة قرطاجة؛ وأضيفت موت جرجير إلى الفوضى والخصومات المزمنة، وخصوصا أن التجارب علّمت العرب ضعف مقاومة الإغريق ومكاسب الغارات الفاحشة⁽¹⁾.

والمؤكد، كما يرى الجنرال Brémont "أن جرجير قُتل، وأن عاصمته نُهبت، وأن قرطاجة والمدن الساحلية، فدت نفسها بسـ 2500.000 قطعة ذهبية، وكان نصيب كل فارس من الغنيمة 3000 قطعة ذهبية (فإن كان هناك عشرة آلاف فارس، سيكون للمجموع 30 مليون قطعة ذهبية، وهذا مستحيل). وقد اختفت الاغارة (razzia)، دون أن تترك أثرا، وكان الدفع الفوري للنفدية (rançon) الضخمة، التي يصفها لمؤلفون العرب بالدنانير، صدى كبير...⁽²⁾.

وبالنسبة لـ G. Marçais فإن الانتصارات التي حققها العرب في سبيطلة مكنّتهم من "القضاء على الدفاع البيزنطي و فتحت ثغرة في

(1) Histoire de l'Afrique du nord, T.2 pp14-15

(2) Berbères et Arabes, p.181

خط الحصون الأول الذي كان يُعتمد عليه في حماية المقاطعة، لكن إستراتيجية المنتصرين البدائية أو غياب القوات الكافية أو تلقّهم أوامر من المشرق، لم تمكنهم من استغلالها، واكتفوا بحمل غنيمة ضخمة، وأخذ قطعان من الأسرى⁽¹⁾.

وفي تعليق Caudel على ما ذكره ابن الأثير من قتل ثلاثة رجال فقط، في إفريقية يذكر أن هذا عدد قليل جداً، ويتناقض مع رواية المؤرخين التي تصوّر معركة سببيلة اشتباكاً جدياً، كلّف الجانبين أرواحاً، إذ ينبغي معرفة الإصغاء للعرب الذين يتحدّثون بعفوية (volontiers) ولحن (à mots couverts) ويتراجعون (reculent) أمام البحث عن المصطلحات الدقيقة أو عرض التفاصيل الكاملة، وقد كانوا يقصدون بكلامهم عن الرجال، الأشخاص المعروفين، الرؤساء، وأهملوا الناس العاديين... وقد لا يكون عدد القتلى معتبراً، ما دامت لم تقع، خلال الحملة كلها، سوى معركة جدية واحدة، وقد يكون موت القائد الإفريقي فيها خفظه كثيراً⁽²⁾.

ويذهب المؤلف الأخير إلى القول: "إنّ توقف الغزوات (العربية) لم يكن كاملاً، كما يمكن أن يعتقد البعض؛ فالعرب، مهما كانوا غير مبالين ومن أول حركة، لم يكن في استطاعتهم نسيان فائدة (profit) الحملات السابقة، ولا إهمال المغنم الذي كانت تجدهم به حملات أخرى، على ما يبدو: فقائد الحملة الأولى نفسه، استأنف قيادة عملية أخرى، من نفس النوع، سنة 33هـ/653م، وهذا ما يدّعيه، على الأقل، أبو المحاسن (بن تغري بردي) الذي يقول بأن عبد الله (بن سعد) فرض الأمن على

(1) La Berbérie musulmane, pp.29-30

(2) Les premières invasions arabes, pp.78-79

السكان، ونشر فيهم الإسلام، وأجبرهم على دفع الجزية. وقد تحدّث المؤلفون قليلا عن هذه الحملة التي لم يكن لها صدى (retentissements)، لأن ضعف وسائل القائد العام خفّضها إلى مستوى الغارات التي شنت على المقاطعة، قبل حملة 27هـ، فلا يُعرف أين ذهب ولا على ماذا تحصّل بالضبط، لأنه لم يذهب بعيدا، ولم يحصل على الكثير، لكنه مع ذلك، عاد بسرعة، لأن ابن عبد الحكم أشار إلى حملة جديدة في السنة الموالية 34هـ/654م⁽¹⁾.

- حملة معاوية بن حديج التجيبي:

يرى H. Fournel أنه ما دام البلاذري والبكري وأبو المحاسن (بن تغري بردي) والمقري ضبطوا اسم هذا القائد هكذا "حُدَيْج" فمن المسلّم به أن التيجاني والنؤيري وابن خلدون شكلوه "خديج"، بناء على أخطاء ارتكبتها الناقلون، وأن النويري، المعاصر لابن خلكان، شكّله "خَدِيج"⁽²⁾. وفي حديث M. Caudel عن الحملة التي أشار ابن عبد الحكم إلى وقوعها سنة 34هـ/654م يلاحظ أن الشك الفوري للسيد Fournel في وقوعها يعود إلى كونه لم يطلع على المالكي ولا على ابن الناجي⁽³⁾، وبعد عرضه لتفاصيل المعلومات التي أوردها هذان المؤرخان، إضافة إلى ما ذكره ابن أبي دينار، يخلّص إلى القول: إن ابن خديج "شارك في حملة مصر، والحملة الأولى على إفريقية، فلا عجب أن يكون قد تخيل مشروع تجديد عملية (entreprise) سبق له وأن استطاع تقدير فائدها فقد كان بمصر سنة 34، ولم يكن هناك ما يمنعه

(1) Les premières invasions arabes, p. 84

(2) Les Berbères, T.2, pp.129-130, note 6

(3) Les premières invasions arabes, p.84

من الزحف على مقاطعة إفريقية حيث لم يُقم فيها طويلا، مع ذلك، لأننا
سنجده في الفسطاط سنة 35هـ، يدافع عن حكم عثمان ضد محاولة
محمد بن أبي حذيفة... وتحملنا هذه المجموعة من الوقائع على الاعتقاد
بوقوع حملة لمعاوية بن حديج، فعلا، سنة 34هـ أو قريبا منها، ولو أن
الاتفاق، حول هذه الأخيرة، تام بين الإخباريين، في واقع الأمر، وكانت
ذات أهمية قليلة، وربما أوقفت في البداية، بسبب الإعلان عن الأحداث
التي أربكت المشرق آنذاك (التمرد *soulèvement*) بمصر ومقتل
عثمان، وقد أدت قلة أهميتها إلى نسيانها من البعض، وإلى الخلط بينها
وبين غيرها، من الحملات اللاحقة، من البعض الآخر⁽¹⁾.

ويتساءل Caudel عما إذا كان "معاوية (بن حديج) أسس، فعلا،
مدينة القرن سنة 34هـ/654م؟ مجيبا أن الواقعة في حد ذاتها قابلة
للنقاش، ويمكن هنا، رؤية لبس جديد بين الحملة الأولى والحملات التي
تبعتها، وسنرى، فيما بعد، أن موقع القرن سيلعب دورا كبيرا في حملة
أخرى قادها ابن حديج، فما قام به سنة 34هـ كان مجرد مرور، وكان
سيبقى مجهولا للأبد، لو لم يترك على أرض إفريقية أحد الرجال الأكثر
وقارا، في بلاد البربر التي تتفخر باحتواء قبره، فابن الناجي يقول: إنَّ
أبا زُمعة، عبید الله بن آدم البلوي، مات بالقيروان، وبالضبط في موقع
المدينة التي سيؤسسها عقبة (بن نافع)، فيما بعد، إنه الصحابي الوحيد
الذي دُفن في إفريقية، بقيت نقطة تحتاج التوضيح: كيف نرى المؤلفين
يشيرون باستمرار، في حملة 34هـ تلك، إلى مدينة لم تؤسس إلا ستة
عشر سنة بعد ذلك؟ أهو غموض وقع فيه الإخباريون؟ أم أن الصدفة

(1) Caudel: Op. cit., PP. 85-86.

هي التي جعلت عقبة يأتي المكان الذي سبق وأن أقام فيه ابن حديج؟. إن المؤلفين لا يخلطون (بين الأمور) لأنهم عندما يتحدثون عن مقبرة البلوي أو باب السلم، على سبيل المثال، يعتنون بإضافة "الآن" ويوعزون، بوضوح، أن المدينة لم تكن موجودة، أثناء وقوع الأحداث التي يتحدثون عنها، وأنا، من جهة أخرى، أميل إلى الاعتقاد أن عقبة لم يأت، من باب الصدفة، إلى نفس النقطة ولكن الضرورات التكتيكية نفسها، التي سبق وأن قادت ابن حديج إليها، هي التي أتت به⁽¹⁾.

وما يذكره Marçais G. عن العرب، بعد انتصارهم في سببلة وانسحابهم إلى المشرق: أنهم "ابتعدوا عن البلد الذي كان احتلاله يبدو مضجاً وسيظهرون، لمدة خمس سنوات أو أكثر، عدم مبالاتهم أو على أية حال، يحتمل أن تكون عصابات مسلحة (bandes armées) ستمرت في الانطلاق من منطقة طرابلس (Tripolitaine) إلى إفريقية لتبزازها، وقد تكون استطاعت تحويل الذين كانت تهددهم إلى الإسلام أيضاً، وقد حركت حملة 34هـ/665م، وحدها، قوات هامة وتحصلت على نتائج بارزة (notables)، وفيما بين الحملتين: الأولى والثانية، غير إسلام حكامه (maîtres) خلال صراعات دموية، كانت تقضي على وحدته وقوته... وقد امتصت تلك الأزمات نشاط أسياة العالم الإسلامي، وبكل وضوح، نفترض أن غيابهم عن الغرب يفسر هكذا، رغم أن إخباريين لا يكفون أنفسهم للبحث عن أسباب ذلك"⁽²⁾.

وهو ما يعني أن Marçais يُدخل غزوة سنة 34هـ ضمن إطار عند غير محدد من غزوات قام بها العرب، لغرض نهب إفريقية، انطلاقاً

(1) Caudel, op. cit., p. 88.

(2) La Berbérie musulmane, p.30

من طرابلس، خلال الفترة الفاصلة بين حملتي :عبد الله بن سعد بن أبي سرح ومعاوية بن حُديج التَّجِيبِي.

ويجعل Pellat Ch. ابن حديج مَدِينًا بثلاث حملات منها" استولى خلال الأولى، التي وقعت سنة 34هـ/654-655م، على عدة قلاع، وجمع غنيمة معتبرة، وأقام معسكرا (camps-garnison) قرب القرن، بقي فيه حتى عاد إلى مصر...؛ وبهذه المناسبة نَقَلَ جيشه نصفَ الغنيمة، بعد اقتطاع الخمس. ويقع القرن، وهو ثلّ يبلغ ارتفاعه 171م، على بعد 12 كلم شمال غرب مدينة القيروان الحالية، في طريق جلّولاء.... ويروي المؤرخون الأوائل، أمثال ابن عبد الحكم والبكري، فيما بعد، تفاصيل عجيبة عن الاستيلاء الخارق (miraculeux) على جلّولاء من قبل عبد الملك بن مروان أو من قبل قائد الحملة نفسه⁽¹⁾.

وهذا يخالف ما ذهب إليه Mercier E. من أنه "كان بإمكان البيزنطيين، الذين علّمتهم التجربة، إيجاد وقتٍ لتنظيم المقاومة، بطريقة ناجحة، خلال سنوات المهلة (التي انشغل فيها العرب بفتنتهم عن إفريقية) ومدتها عشرون عاما، لكن الحكام الإغريق، بدل استدعاء الأهالي وتبصيرهم بأن مصلحتهم تكمن في ضد المحتلين (envahisseurs) وفي تدريبهم (les dresser) على النظام، راح أولئك الحكام يُكْمِلُون إيعادهم عنهم بطُغيانهم (tyrannie) وابتزازهم (exaction)⁽²⁾.

نفس الفكرة عبر عنها Terrasse H. بقوله: إن إفريقية الشمالية (بلاد المغرب) عرفت (بعد انسحاب المسلمين سنة 27هـ) سبع عشرة سنة من الهدنة (répit) وهي كلّ المدة التي استغرقتها أزمة

(1) E.I. n^{elle} éd. Leiden-Newyork Paris 1993, T. VIII, art. Mu'awiya b. Hudaydj, p 27

(2) Histoire de l'établissement des arabes, p.56.

الخلافة، التي بدأت باغتيال الخليفة عثمان، والتي انتهت بعد قيام صراعات بين عليّ (بن أبي طالب) وبين معاوية (بن أبي سفيان)، انتصر فيها هذا الأخير وأسس خلافة دمشق سنة 660م، وقد أصبح الإسلام، الذي امتصته نزاعاته الداخلية، عاجزا عن القيام بتوسعات (Conquête) جديدة. ولم تستغل إفريقية هذا الوقت (لتقوية دفاعها)، لأن الصراعات الدينية أثارت (dressaient) مسيحيي إفريقية الذين كانوا أوفياء جدا لرومة، ضد الإمبراطورية (Basileus) البيزنطية التي اقتصر سيطرتها على شمال ووسط البلاد التونسية (الآن)، فلم تجد الخلافة الأموية، أمامها، عندما صار في وسعها استئناف الغزوات (Conquête)، سوى إكسارخية (exarquat) محتضرة، على ما يبدو". (1)

ونفس الطريق أيضا سلكه Julien، ملاحظا أن "الاضطرابات نتي أعقبت اغتيال عثمان كلفت إفريقية (valurent à) سبعة عشر عاما من الهدنة (répit) وأن مصر، التي كانت تُستخدم كقاعدة للحملات متوجهة لإفريقية، أقحمت (mêler) مباشرة في تلك الاضطرابات: إذ ثارت على ولاة عثمان، وأجبرت ابن سعد على مغادرتها، وأرسلت إلى نعدينة المنورة قتلة الخليفة ثم انتقلت، بعد ذلك، إلى سلطة عليّ واستمرت كذلك إلى سنة 658م حيث استولى عليها أحد مساعدي (Lieutenant) معاوية: فالصراعات السياسية والدينية، نقلت، بطبيعة الحال، مشروع الهجوم على المغرب، إلى الدرجة الثانية من الأهمية، وقد استأنفت الأسرة الحاكمة (DYNASTIE) الجديدة مشاريع التوسع

(1) Histoire du Maroc, T.2, p.79

نحو الغرب بإسنادها ولاية مصر إلى عمرو (بن العاص) العجوز الذي لم يتخل عن نواياه في إفريقية. ولم تستغل إفريقية فرصة الهدنة لتمتلك نفسها، كما لم تستغل القسطنطينية موت جرجير لإعادة سيطرتها عليها، بل على العكس من ذلك، فإن الامبراطور قنسطانس الثاني (Constant II) أعلن في مرسوم (édit) جديد، وهو الصورة (le type).... عن عقوبات قاسية ضد كل الذين لم يتشبثوا بقوانين الايمان القديمة (anciens symboles)، مما أثار نصارى إفريقية الأرثوذكس (orthodoxes) الذين كانوا خاضعين للسلطة البابوية (pontificale) بقدر ما كانوا مناوئين للإدارة الامبراطورية.⁽¹⁾

ويجعل الجنرال بريمون حدوث الغارة (razzia) الثانية، بعد واحد وعشرين عاما من الأولى، ونفس الشيء، تقريبا بالنسبة لـ Fournel H. الذي يذهب إلى القول: "إن العرب لم يفكروا في المناطق الغربية، منذ 27، لكن السنوات التي مرت، منذ 25هـ، لم تسكن لدى عمرو بن العاص الحماسة التي كانت تجرّه نحو إفريقية... فعندما محا أثر الفوضى التي كانت مصر مسرحا لها آنذاك، وعندما تبين له أن الخلافة أصبحت شبه شرعية، في يد معاوية، بعد موت علي، وتنازل ابنه الحسن عنها، في بداية 41 هـ، وبعدما أصبحت ولاية مصر موطدة، بين يديه، التفت فوراً نحو إفريقية واستأنف الغارات (EXCURSIONS) التي مهد العرب بها لحملة 27هـ، ولا يعرف أي شيء مضبوط عن تلك الغارات؛ لكن يبدو أنها دُفعت إلى أبعد حد ممكن في حالة ما إذا أخذ بعين الاعتبار وجود أثرها في مقطع (PASSAGE) للبكري، هذا نصه: "وافتحها

(1) Histoire de l'Afrique du nord, T.2, p 15

(إفريقية) معاوية بن حديج سنة إحدى وأربعين وكان معه عبد الملك بن مروان⁽¹⁾.

ومن هنا يعتبر Fournel أن ابن حُديج مهَّد (préluder) بغارات على إفريقية، قبل قيامه بالحملة التي كُلف بقيادتها سنة 45هـ، مع لقب وال في ولاية عقبة بن عامر، الجهني على مصر. ويلاحظ Fournel أن المؤرخين البيزنطيين لم يفيدوا بأي شيء، عن أوضاع إفريقية، في ذلك التاريخ، وحسب المؤرخ المصري (النويري) كما يضيف، فإن المسمى حُباحية ويفضل Fournel كتابة الاسم، كما كتبه ابن عذارى و ليس كما كتبه النويري، جُنَاحَة أو ربما جناحنة، لأنه يرى أن هذا الأخير الذي، لم يتألق، لا بنقده ولا بدقته، اقتبس وقائع حملة 45 من مخطوط ابن عذارى الكامل، والمهم أن الشخص المذكور كان قد خلف الطاغية جرجير، وربما بقي مستقلا عن القسطنطينية، لأن النويري يدعي أن Héraclius (ويقصد به قنسطانس الثاني، ما دام الإمبراطور الأول كان قد توفي سنة 20هـ/641م وخلفه قنسطانس الثاني إلى سنة 48هـ/668م) بعث إلى إفريقية بطريقا يسمى أوليمة (Aoulîmat) فطرده حُباحية لكن رعايا هذا الأخير، كما يصور لنا النويري، طردوه، وقدموا على أنفسهم شخصية يسميها ابن عذارى الأطريون: إما لخشيتهم أن هذا العمل العنيف سيغلب إليهم غضب الامبراطور الجشع، وإما لسبب آخر، و قد يكون المغتصب (Tyran) المخلوع سافر إلى بلاد الشام لاطلاع معاوية ابن أبي سفيان على وضعية إفريقية وتحريضه على اخراج الحملة التي أرسلها عام 45⁽³⁾ فكان ذلك...

(1) Berberes et Arabes, p.181.

(2) Les Berbères, T.2, pp.138-139.

(3) Ibid T.2, pp 140-141

ثم أرسل قنسطانس الثاني (Constant II) إلى إفريقية أسطولا بقيادة البطريق نفقور: إما لأنه أراد التصدي للاعتداءات (entreprises) العربية، وإما لأنه عزم على استرجاع بلاد خرجت عن سيطرته، فنزل هذا الجيش سوسة، وأخرج إليها ابن حديج جيشا قويا بقيادة عبد الله بن الزبير فلما أجبر الروم على الدخول إلى مدينتهم، عاد من حيث أتى، ولما وصل إلى معسكر القرن، أخرج ابن حديج عبد الملك بن مروان على رأس ألف فارس إلى جلولاء، علما أن عبد الملك هذا توفي سنة 86هـ، عن عمر يناهز ستين سنة، وهو ما يعني أن سنه بلغ تسع عشرة سنة عام 45هـ وهذا ما يحول دون تكليفه بمهمة حصار مدينة ما، ثم إن البكري أورد روايتين: تُسند إحداهما القيادة لابن حديج شخصيا، وهي الأكثر احتمالا. وقد نُقلت الروايتان حرفيا، عن ابن عذاري والنويري، ومهما يكن، فقد تم الاستيلاء على المدينة وتخريبها⁽¹⁾.

وقد أدى نقاش دار بين معاوية بن حديج وعبد الملك بن مروان، في أمر تقسيم الغنيمة، إلى وضع حدّ لحملة العرب الثانية على إفريقية، وهو ما تتضمنه، على الأقل، رواية النويري الذي يدّعي أن ولاية مصر أسندت، آنذاك، لابن حديج بدلا عن إفريقية⁽²⁾.

ويختصر Mercier E. كلامه عن هذه الحملة قائلا: "إن الاغريق عندما قدم معاوية بن حديج، من المشرق؛ بجيش جديد، حوالي 665 م، لم يكن لهم ما يواجهون به المحتلين (envahisseurs) سوى فرقة عسكرية (corps de troupes) واحدة، أرسلتها بيزنطة، على عجل، بقيادة البطريق Nicephore، فهُزم البيزنطيون في معركة واحدة

(1) Fournel: Op. cit., pp 145-146

(2) Ibid, p.146

خاضوها قرب الجَمِّ، بين صفاقس وسوسة؛ حيث كانوا متحصّنين، فأسرعوا بالإبحار ثانية. و قد حال جدال قويّ، في موضوع تقسيم الغنيمة، دون استفادة العرب بانتصاراتهم، والقضاء فورا على ما تبقى من السلطة البيزنطية في إفريقية، غير أن ما تمّ احتلاله، احتفظ به هذه المرة، و صارت إفريقية، منذ ذلك الوقت، تشكّل مقاطعة مميّزة عُيّن على رأسها عُبّة بن نافع⁽¹⁾.

ويشرح Caudel M. في حديثه عن حملة معاوية بن حديج، منذ أن بعث معاوية بن أبي سفيان إلى مصر، فاتحها عمرو بن العاص، عام 38هـ، وعيّن واليا عليها، وكان ابن أبي سفيان، آنذاك، يطالب بالخلافة (prétendant)، وكان عمرو، دائما، مشغول البال باحتلال (conquête) إفريقية، ولم يمنعه من تنفيذ مشروعه سوى الظروف⁽²⁾. ثم ينتقل نفس المؤلف إلى ما ذهب إليه Fournel، اعتمادا على نص البكري، من قيام معاوية بن حديج بحملة على بنزرت سنة 41هـ، مُبديا قناعته بوقوعها في ذلك التاريخ، تقريبا، ومستعرضا ظروف وقوعها، فيما ذكره أحمد دحلان، عن إرسال الإمبراطور هرقل (Héraclius) سنة 41هـ لبطريق مكلف بالحصول على أموال، من سكان إفريقية، مساوية لتلك التي دفعوها للمسلمين، وكان قد تولّى أمرهم (الأفارقة)، بعد قتل جرجير، شخص من الروم، فخاض البطريق ضدّه معارك كثيرة، تمكّن في نهايتها من هزيمته وإعادة سيطرة الإمبراطور، لكن المغتصب نجأ إلى معاوية ببلاد الشام فأنجده بمعاوية بن حديج الذي نزل قمونية، فوجّه إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل، فهزمهم ثم حاصر جلولاء واستولى

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, pp.56-57.

(2) Les premières invasions arabes, p.89

عليها وهدمها، وبعدما فرّق جيوشه على المناطق، وأخضع السكان، عاد إلى مصر. وقد لاحظ Caudel أن دحلان حدد تاريخ وقوع هذه الأحداث بسنة 41هـ، راح يقارنها بما حدّده ابن أبي دينار لوقوعها سنة 45 و جاء فيها: أن ابن حُديج أخرج إلى إفريقية على رأس عشرة آلاف مقاتل، فاستولى على سوسة، وكان قد أخرج إليها عبد الله بن الزبير فقاتل النصاري (chrétiens) ثم عاد إلى معاوية ابن حُديج الذي أخرج عبد الملك بن مروان نحو جلولاء فحاصرها، عدة أيام، واستولى عليها عُتوة فقسّم معاوية الغنيمة على المسلمين، والله أعلم إن كان ذلك حدث سنة 34 أو 45هـ، و يخلص Caudel إلى القول: إن تحديد تاريخ هذه الحملة ليس سهلاً: فهي بكل تأكيد، لم تقع سنة 34هـ، لكن ليس هناك أيضاً ما يثبت أنها وقعت سنة 45هـ، رغم أن افتراضات قوية تشهد لصالحها، وعمّا أشار إليه ابن عبد الحكم من وقوع حملة لمعاوية بن حديج سنة 40هـ، دون أن يعطى عنها تفاصيل، يميل Caudel، مثل Fournel، إلى الاعتقاد بحدوث خلط بينها وبين حملة وقعت، فيما بعد سنة 41، ويكون ابن حديج قد استولى فيها على بنزرت، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ونفس الشيء يقوله ابن أبي دينار، مضيفاً أن ابن حديج بعث رُوَيْعَ بن ثابت الأنصاري إلى جربة، و يقال إن رُوَيْع كان سنة 46 واليا لمعاوية على طرابلس، وفي سنة 47 قاد حملة من طرابلس نحو إفريقية، استولى خلالها على جربة، والواقع أن تاريخ 46 (666) هو الذي ينبغي الاحتفاظ به، عن حملة رُوَيْع، ويحدد المؤلفون عادة تاريخ حملة معاوية بن حديج بسنة 45هـ/665م، ومنهم: ابن الناجي والمالكي وحتى أبو المحاسن بن تغري بردي وابن عذاري⁽¹⁾.

(1) Caudel: Op. cit., p 89 sq.

ويعتقد Caudel أن حملة جُلّولاء الواقعة على طريق القيروان الحالي، في الأربس (Laribus)، غير بعيد عن جبل القرن، وهو جبل أوسلات (Ousselet) في يومنا، لا تُقَدِّم فائدة كبيرة، فهي تكرر لسابقاتها، إنه نفس الزحف السريع، دائما، ونفس الغارات (razzia)، ونفس الحصار، غير المثمر عادة، أو الذي لا يكون له مَخْرَج سعيد إلا بِصُنْفَةٍ يصعب تصديقها، وتُلَمِّح المصادر، تقريبا، إلى محاولة قام بها الإغريق للدفاع عن مُزاق (Byzacium): إذ أن بطريقا يسمّى نِقْفور (Nicéphore) يكون قد حاول القيام بعملية إنزال في سوسة لكنه قد يكون تراجع عن مشروعه، في حضور العرب، إلا أن الباجي جعله يخوض معركة قرب قصر الأجم؛ و وقوع هذه المعركة قليل الاحتمال، لأن الإخباريين الآخرين لا يتحدثون عنها، وما كانوا ليقصروا في الإشارة إلى لقاء خاضت فيه القوات المتواجدة في الجبهة معركة كبيرة، لم يحدث ذلك في حملة معاوية هذه، التي لم تزعج العدوّ عمليات نهبها إلا قليلا⁽¹⁾.

ويَنقَد نفس المؤلف رواية المالكي، الخاصة بانطلاق حملة ابن حديج من مصر سنة 45 والتي انتهت بالاستيلاء على جُلّولاء، ملاحظا أنها تحتوي على خطأ كبير: لأن الأمر لا يمكن أن يتعلق لا بجرجير ولا بسببيلة في سنة 41 أو 45هـ، ثم يتساءل عما إذا كان المؤلف يعني، ببساطة، أن جُلّولاء بقيت خاضعة للإغريق؛ و فيما يخص الاستيلاء على هذه المدينة فروايته مطابقة لما ذُكر في أماكن أخرى؛ و قد قيل نفس الشيء عن سوسة، والحدّث معقول، في حدّ ذاته؛ ومن المؤسف فقط، أنه

(1) Caudel: Op. cit., pp.94 Sq.

أدهش العربَ لدرجة جعلتهم يرددونه، مرّات عديدة، في موضوع مدن مختلفة⁽¹⁾.

وبعد اقتباس Caudel لما ذكره كل من الباجي وابن الناجي وابن أبي دينار عن تلك الحملة، راح يتساءل عما إذا كان "من اللزوم الخلط بين حملتي معاوية اللتين جعل المؤلفون تفاصيلهما متطابقة؛ وحدّوا تاريخ وقوع إحداها سنة 40 والأخرى سنة 45هـ، مجيباً: أن تطابق الأحداث تجبرنا على ذلك، غير أنه بإمكاننا ملاحظة أن ابن عبد الحكم حدّد سنة 40 لحملة قام بها معاوية نفسه، وقد لا تكون سوى استكشافاً، كالاكتشافات التي قام بها سابقوه، وقد تسبب لنا هذان التاريخان في الغموض الذي نعاني منه: حيث وضع المؤرخون، في الحملة الأولى (40 أو 41)، وقائع الثانية (45) التي سنبتأها، في آخر المطاف"⁽²⁾.

ويسجل Pellat Ch. لابن حديج، بعد حملة 34، حملتين أخريتين: حدثت إحداها سنة 40هـ/660-661م، أو سنة 41هـ: وقع أثناءها غزو (conquête) بنزرت...، أو 45 هـ، وأخيراً حملة 50هـ/670م التي انضم إليها جيش قدم من المدينة بقيادة عبد الملك بن مروان، وقد سار بها معاوية بن حديج، أيضاً، إلى القرن التي كانت بمثابة (quelque sort en) قاعدة عمليّاته"⁽³⁾.

ويبرّر Caudel عودة ابن حديج السريعة إلى مصر، بعد عودة السرايا الاستكشافية إليه، وتقسيم الغنيمة، بعدم وجود طموح لديه، يختلف عن طموح سابقه، بل اعتبر نفسه سعيداً، عندما جمع خيرات كثيرة،

(1) op. Cit , p.93.

(2) Ibid, pp 93-94.

(3) (E.I., n^{elle} éd, Leiden New YORK-Paris1993,T.VII,art, Mu'awiya B Hudaidj, p.27

وأدخل (في الإسلام) أناسًا كثيرين، بواسطة الإقناع بالسيف أو الأمل في تقسيم الغنائم⁽¹⁾.

مما لفت انتباه Marçais G.: أن الإخباريين لم يُكَلِّفُوا أنفسهم بالبحث عن أسباب غياب العرب عن المغرب، و يرى أنه لا يستطيع، بدوره، سوى تقدير تلك التي أدت إلى استئناف الغزو (conquête): إذ أخبرنا بنداء وجهه إلى الخليفة المسمى جناديوس (gennadius) الذي تولى قيادة المقاطعة، بعد موت جرجير، وسانده البربر في البداية، وربما تخلوا عنه، فيما بعد، لصالح إغريقي آخر، يسمى Eleuthère. وقد يكون ذلك أدّى به إلى توجهه إلى المسلمين لطلب مساعدتهم، ونَعْلَم، من جهة أخرى، أن الإمبراطور قُنْسطانس الثاني كان قد أرسل من صقلية، في نفس الوقت تقريباً، جيشاً بيزنطياً، بقيادة البطريق نيقفور (Nicéphore)، لاستعادة المقاطعة، مما يدفع إلى الاعتقاد أنه بالإمكان إعادة ترتيب (rétablir) الأحداث هكذا: غداة رحيل العرب، أراد gennadius الإغريقي وراثته الإكسرخوس (exarque) جرجير، غير أن اختفاء هذا المغتصب أوّحى إلى الإمبراطور الذي كان مقيماً، آنذاك، بسرقوسطه (syracus)، ومنشغلاً بإعادة سيطرته على الغرب، بمشروع إعادة الاستيلاء على إفريقية، في حين كان Eleuthère، خصم gennadius المدعوم بأغلب الأفارقة، مستعداً ولا شك، للخضوع، فيجمع الإمبراطور الجيوش التي ستعيد احتلال (réoccuperont) البلاد، غير أن gennadius الذي بقي متمرداً (rebel) بدون أنصار، التفت نحو العرب، فتسارع هؤلاء⁽²⁾.

(1) Op. cit., p.96.

(2) La Berbérie musulmane, pp.30-31.

ويعترف Marçais أنه لا علم له، في الواقع، بما إذا كانت عملية الإنزال التي قام بها البطريق Nicéphore، سابقة أم لاحقة لوصول العرب بقيادة معاوية بن حديج، والذي يبدو مؤكدا أن حملة 665م. هذه وَجَّهَتْ ضربة جديدة للقوة البيزنطية بإفريقية: فقد يكون جيش نقفور عاد إلى البحر، وبعد لقاء غير حاسم، تم الاستيلاء على جلولاى ونهبها، وكانت ضمن الحصون التي تشكل الخط الثاني للدفاع عن المقاطعة، وقد تبع ذلك الانتصار تحويلات مفرضة (إلى الإسلام)، لكن المنتصرين لم تكن لهم أية إقامة (établissement) هذه المرة أيضا⁽¹⁾.

وفي نظر (ش.أ.) جوليان فإنه من الممكن أن يكون المغتصب Gennadius قد استفاد من ظروف الخلاف الذي نشب بين البيزنطيين ونصارى إفريقية الأرثوذكس، لتسببهم بقوانين الإيمان القديمة وخضوعهم للسلطة البابوية على حساب الإدارة الإمبراطورية، "حافظ على إمارة مستقلة لعدة سنوات، ولما رأى نفسه مهددا بمنافس يذعمه الإمبراطور، راح يفاوض المسلمين للحصول على مساندتهم، وعندما استعاد الإمبراطور السيطرة، لم يبق بيديه سوى بقايا من الأكسارخية، وقد يكون ترك خط القلاع الأول ليقصر على حماية أطراف البلاد التونسية الوسطى الحالية... وفي سنة 665م. دخل قائد الحزب الأموي، في مصر، معاوية بن حديج، مَزاق (Byzacène) بأمر من الخليفة، وهزم جيشا بيزنطيا أنزل في Hadrumète ثم استولى على قلعة جلولاى ونهبها، وعاد إلى مصر محملا بالغنائم"⁽²⁾.

(1) op. cit., p.31.

(2) Histoire de l'Afrique du nord, T.2pp.15-16

ومما توصل إليه الجنرال Brémond أن "الإمبراطور قنسطانس الثاني (641-668) لم يرسل أية نجدة (إلى إفريقية) ولم يحتفظ في هذه القضية (قضية الغزو العربي) إلا برقم الفدية المدفوعة بيُسْر، فأصدر أمراً بأن يدفع له مبلغ مماثل وذلك سنة 663، فهرب الحاكم البيزنطي، العاجز عن دفع مساهمة كهذه، إلى دمشق لدى معاوية بن أبي سفيان... وحرّضه على غزو إفريقية، مظهرًا له ضعف الإغريق، من جهة، وغناء وخصب البلاد، من جهة أخرى، وكان معاوية في حاجة إلى تثبيت حكم أسرته (dynastie) فقبل، وكانت تلك هي الغارة (razzia) الثانية...، قادها والي مصر، معاوية بن حديج، وتحصلت على ثلاثة مائة قطعة ذهبية لكل فارس، ولم يحدث أي حصار، لأنهم لم يعرفوا تقنية هذه العملية، غير أن المسلمين جعلوا البلاد المفتوحة (pays ouvert) ولاية على رأسها عقبة بن نافع"⁽¹⁾.

- نشاط عقبة بن نافع الفهري قبل ولايته الأولى على بلاد المغرب:

يعتبر Mercier E. عقبة بن نافع، أول من كان يفرض، من بين المحتلين..... العرب، اعتناق (la conversion) الإسلام، على المنهزمين، مع إخضاعهم في آن واحد"⁽²⁾ ويعتبره Caudel M. "إفريقيًا قديما (Vieil africain) ساهم... بفاعلية، في حملتي 21 و 27 هـ... أي أنه (في نظره) كان يعرف جيّدًا البلاد ورجالها، فهو جندي جيّد... كانت له، على ما يبدو، ميزة ملحوظة أذهلت رجاله، فصارت له في ذاكرتهم مكانة خاصة. ومع أن بعض النواير (anecdotes) المبعثرة:

(1) Berbères et Arabes, p.181.

(2) Histoire de l'établissement des arabes, p.57

رواية كرامتين أو ثلاث وقصة موت رائعة، لا تكفي لتلخيص سيرة محتل، إلا أنها تعكس، بما فيه الكفاية، عمله حتى يمكن القول: إنه كان مؤمنا وداعية وقائدا⁽¹⁾.

وهو الذي حاول، في نظر Provençal (E. Lévi) "وضع حد لمقاومة بربر البلاد، بتدعيم النتائج الأولى للتوسع (Conquête) العربي في إفريقيا الشمالية، لكنه مات، بعد فترة مضطربة، تحت ضربات جماعات إفريقية متمردة"⁽²⁾.

وعن نشاط هذا القائد في منطقتي برقة وزويلة يذهب Mercier E. إلى القول: إن عمرو بن العاص "تقدم، بعد إخضاع مصر، نحو الغرب حتى برقة، في حين كان مساعده، عقبة يجول في مناطق الجنوب ويدخل منتصرا إلى زويلة في فزان. ولما كان وقوع احتلال مصر سنة 640م، ينبغي تحديد تاريخ حملة عقبة على فزان بسنة 641 أو 642م. وأثناء ذلك كان عمرو يقوم بغارات في اتجاه الغرب واستولى على طرابلس..."⁽³⁾.

وفي سنة 647م كلف عبد الله بن أبي سرح عقبة لينوب عنه أثناء غيابه، وفيما بين 641 و 647 م هذه لا توجد أية إشارة عن محتل (conquérant) فزان، وعند اللزوم يمكن التسليم بأنه بقي، منذ ذلك الوقت، في الجنوب ما دامت مشاركته في حملات هذه الفترة لم تثبت، وقد يكون اعتزل منصبه بعد عودة الجيش إلى مصر، ويُحتمل أن يكون

(1) Les premières invasions arabes, p.96.

(2) E.L., n^{le} éd., Leiden-Paris 1936, T.3, art. Okba B. Nafi'a, p 1040

(3) sidi Okba, ses expéditions dans l'extrême sud, Revue africaine, no23 4ème trimestre 1898, p.23:

عندئذ، عاد إلى المراكز الأمامية، أي إلى حدود أرض برقة ومنطقة طرابلس لكن هذا يبقى مجرد فرضية ولا يُعرف موقفه من الفتنة التي كثرت صفوف بلاد العرب سنوات طويلة، وعرفت مصر فيها فوضى عارمة⁽¹⁾.

ويكون، من المفيد هنا، الإشارة إلى المقال الهام الذي نشره إسماعيل هامت سنة 1899 بالمجلة الإفريقية رقم 228 تحت عنوان *note complémentaire sur l'origine des foulanes ou peuplades fouldé du soudan*. على الرغم من أن صاحبه ليس فرنسيا بل هو مترجم جزائري، من اللغة العربية إلى الفرنسية، ويعود سبب الاهتمام بما كتبه هذا المؤلف، إلى كونه تطرق فيه إلى نقطة جديدة في الموضوع الذي يشكل مادة هذا البحث، كما أن ما كتبه كان محل نقد كاتب فرنسي مهتم بتاريخ الجزائر وبلاد المغرب ألا وهو Mercier E. تعتمد فكرة هامت على كتاب، ألفه عبد الله بن فؤاد، أخو مؤلف كتاب نور الأرب، بعنوان "تزيين الورقات" عالج فيه تاريخ من يسمون (فولن). أو "فولبي" منذ غزوة (l'invasion) عقبة بن نافع لفوتاتورو (أو سينغامي) إلى عصره، أي حوالي 1807م؛ ومن جهة أخرى فإن سلطان أمادواة، الزبير، المقيم بيولا (yola) يدعي، بناء على روايات، أن سيدي عقبة، يكون قد وصل في توسعاته (ses conquêtes) إلى تسنغال، حيث يكون قد استقر، مع أصحابه وجيوشه، وقتا طويلا جدا، وربما تزوجوا هناك بسودانيات اعتنق الإسلام على الفور، وقد يكون لأبناء المولدون من هذا الزواج شكلوا نواة جنس "الفولن" أو قبائل

(1) Mercier, Sidi Okba, pp.323-324

جنس البول (peuplades de race peule) الذين يكونون انتشروا، من السنغال، في السودان الغربي ونشروا فيه الإسلام تَكْمِلَة للعمل الذي بدأه أبائهم⁽¹⁾.

هذه المعلومات جعلت هامت يفكر في أن غموض الأخبار التاريخية عن سلوك (faits et gestes) عقبة، خلال فترة الفتنة (عشر سنوات)، تدفع إلى الاعتقاد بأن القائد العربي قد يكون تمكن أثناءها من دخول بلاد السودان، وفرض الديانة الجديدة فيه، وأنه، هو وأصحابه ومساعدوه، يكونون قد نفثوا (infusé) الدّم الأبيض في قبائل سودانية، عن طريق الزواج بنساء سودانيات، فنشأ هذا الجنس الهجين (métis) المسمى "قُولَن"⁽²⁾.

وانطلاقاً ممّا أخبر به أبو المحاسن بن تغري بردي، من قيام عقبة بعدة حملات على بلاد السودان سنة 43هـ، في وِْدَان وفي برقة، راح هامت يتساءل عما إذا لم يكن "سيدي" عقبة، الدّاعية النّشيط الذي لا يكلّ والناشر لشريعة (loi) محمد، في كامل شمال إفريقيا (بلاد المغرب)، دون هدنة، ودون راحة، إلى أن مات؟

ومن ثمّ يتساءل هامت، كيف يتمّ التسليم بأن هذا الدّاعية الملتهب (apôtre enflammé) يمكث ستة عشر عاما كاملا في أرض برقة وحدها؟ وكيف يمكن تصديق أنّ الذي لم يتوقف، في الغرب، إلا أمام أمواج الأطلنطي، لا يكون قد تقدّم إلى بلاد السودان، مروّرا بالطرق المتبعة، خلال التاريخ القديم بكامله وإلى أيامنا (نهاية القرن 19) والتي

(1) Hamet Ismail, Note complémentaire sur l'origine des Foulane ou peuplades Foulbe du Soudan, Revue africaine, no228, 1899, pp.71-72.

(2) Ibid, p.73.

تؤدي، من طرابلس ومن برقة، إلى بحيرة التشاد، وأنه لم يَقم بما قامت به في ذلك العصر، حسب ابن خلدون، قبيلة هَوَّارة المنتشرة (cantonnée) في مُقاطعتي: برقة وطرابلس والتي اجتازت الرمال حتى الصحراء (jusqu'au désert) واستقرت بجوار أبناء قبيلة لَمَطَة المثلثين، المنتشرين قرب كُوكُو (gaugua)، الواقعة على نهر النّيجر، جنوب غرب تَمَبُوكْتُو، فهل من الممكن، عندئذ، ألا تكون أقطار السودان الغنية والآهلة قد أغرته واستبقته؟. المعروف أنّ البربر، بمجرد إسلامهم، أصبحوا مساعدين للجيش العربية، والحال (or) أن الذين كانوا يحتلون (occupaient) الصحراء إلى حدود السودان، هم أنفسهم الذين كان عَقبَة مهمة استيعابهم وإدخالهم في الإسلام، فأين العجب، حينئذ، أن يكون نصنّهاجة هؤلاء أو البربر المثلثين، الذين كانوا يسيطرون على أقصى تصحراء، قد أرشدوا العرب نحو بلاد السودان التي كانت، ولا شك، معروفة لديهم⁽¹⁾؟

ويضيف هامت، من جهة أخرى، أنه من الممكن أن يكون عَقبَة ظهر في بلاد السودان على إثر حملته جنوب المغرب الأقصى، اعتماداً على ما ذكره ابن خلدون من أنه "...دخل السوس وتَارُودَانَت، وهزم لبربر بالصحراء" وهؤلاء البربر، في اعتقاد مؤلفنا، ليسوا سوى صنّهاجة أو مسؤفة ابن بطوطة، الذين كانوا يصلون إلى كوكو، عاصمة نَغَاي، وغير بعيد عنها كانت تنتشر قبيلة هَوَّارة القادمة من طرابلس⁽²⁾. ويحاول هذا الكاتب تدعيم رأيه بما ذكره الرحالة أَسْكَار لانز (Oskar lenz) عن انتساب عائلة البكاي، المستقرة في تَمَبُوكْتُو، إلى

(1) Hamet Ismail op.cit., pp. 73-74.

(2) (Hamet: Op. cit., p. 74.

(سيدي) عقبة، مستدلاً بشجرة نسبها التي نشرها Barthe ثم يخلص إلى القول: إن هذه الرواية تتفق مع رواية الدكتور Barthe، المعروف، الذي يدعي أن انتشار قبائل الفولبي (les Foulbé) بالسودان كان من الغرب إلى الشرق وليس العكس، حسبما يُعتقد عادة⁽¹⁾.

ويتساءل نفس المؤلف عما إذا كان من المجازف الإقرار أن عقبة يكون قد استطاع الدخول في أرض السودان إلى Torodo ثم أنجب فيها أطفالاً، بمقتضى مبدأ أن العرب، ومعهم البربر الأعوان، كانوا عندما يتوسعون يطلبون الأراضي والنساء؟. مجيباً أن الأمر، على ما يبدو، ليس كذلك، لأنه إذا تمّ التسليم بأن عقبة أنجب بتمبوكتو، يمكن جداً التسليم بأنه فعل مثل ذلك جنوب النيجر، مع العلم أنه عندما يقال إن جنس الفولن (les Foulanes) ينتسبون إلى (سيدي) عقبة ينبغي فهم أن أمهاتهم كنّ سودانيات، من Forodo وأماكن أخرى، وأباؤهم عقبة وأصحابه والبربر الذين كانوا معهم. وقد يكون القائد العربي، عندما غادر السودان، بأمر من الخليفة، لحكم إفريقية، ترك به أعواناً من البربر استمروا في إنجاب مولّدين (métis)، ومنذ ذلك العهد، بدأ، ولا شك، إدخال الأسماء الإسلامية في هذا البلد، وتواجنت مجموعات بربرية أو عربية مبعثرة في بلاد الزنج، من المحيط إلى شرق بحيرة التشاد، وباختصار فإن الأحداث (les faits) السابقة الذكر تثبت، في اعتقاد هامت، أن عقبة وجيشه دخلوا Sénagambie كما ذكر في كتاب "تزيين الورقات" وأنجبوا فيها جنس الفولن الهجين (métisse)، بدليل ما توصل إليه الرحالة الأوروبيون الذين درسوه، من أن شعوبه مازالت تقدم اليهود

• Hamet, op. cit.

خصائص طبيعية (physiques) تُذكر بالملامح المميزة لأجدادهم، كما أن (ج.أ.) كراوز (krause G. A) جمع معلومات عن أصل قبائل البُول (les peul) تفيد بأن أقوال أبناء جنس الفولن (les dirs des Foulanes) توضح أن جيشا عربيا يكون قد وصل، خلال القرن السابع الميلادي، إلى السنغال وإلى شعوب Torodo، وأن أحد قادة هذا الجيش، ترك في البلاد فتروج من بنت الملك وأن أبناءه ربما كانوا أجداد جنس الفولن⁽¹⁾.

وفي تعليق إ. ميرسيي (Mercier . E) على كلام إ. حامت، ذكر "أن عقبة قام بحملة على مناطق أقصى الجنوب و تجول في فزان، منذ 641م، ماذمنا لم نره يشارك في "الجهاد" قبل سنة 647م، فمن تمعقول أن يكون هذا المحارب النشط، تمكّن من اجتياز Sokoto وتقدم حتى النيجر ولكن ليس هناك ما يثبت ذلك"⁽²⁾، ويضيف قائلا: "إنه تولى قيادة مصر بالنيابة سنة 647م ثم يتساءل عن المدة التي يكون قد حفظ فيها بتلك النيابة، ويفترض أنها تكون سنتان على الأقل، عاد عدهما، ولا شك، للقتال على الحدود، ليتساءل، من جديد عما إذا كان خذ طريق فزان، ومنها طريق السودان؟ ثم يجيب أنه ليس هناك ما يثبت نت، ومادام المشرق كان ملتهبا ومصر كانت في وضعية تمرد (révolte) فلا يحتمل أن تكون شخصية كعقبة بقيت غير مبالية بالأمر ومع ذلك، فمن أين يكون قد أخذ الوسائل والقوة العسكرية (effectif) لضرورة لعملية من هذا النوع⁽³⁾؟

(1) Hamet Ismail op.cit. p.75sq

(2) sidi Okba, ses expéditions dans l'extrême sud, revue africaine, n°231, 4ème trimestre p.325

(3) Mercier: Op. cit., p. 325.

ولكي يدعم Mercier رأيه، راح يتصور أن عقبة، عندما سيّره الأمويون إلى المغرب سنة 665 م، ترك قوة الجيش الرئيسية تتقدّم على الساحل وانطلق هو إلى أقصى الجنوب حيث "ظهر من جديد فسي فزان لإكمال الاحتلال (conquête) ونشر الإسلام (l'islamisation) وهذا التزامن (في نظره) يدل على:

- (1) أن غزوته الأولى في فزان لم تكن لها نتائج دائمة.
 - (2) أنه انتظر، ليعود إليها، أن يحميه جيش من الشمال؛ ويراد التصديق أن يكون قد قام، وحده وبدون موارد، في هذه الفجوة الزمنية الممتدة من 650 إلى 665 م بحملة مُخاطرة على السودان، في حين أنه لم يكن قادرا على مجرد العودة إلى فزان.
- وأخيرا، لا يمكن تحديد غزوه للسودان بفترة 666-668 م، ما دامت مدة رحلته الثانية لفزان معروفة، وهي خمسة أشهر، كما أنه ليس من باب السياسة أن يبتعد كثيرا، في الوقت الذي كان تعيينه على إفريقية قريبا جدا، وقد يكون سعى (briguer) إلى هذا المنصب...⁽¹⁾.
- وفي سنة 641م. كان عقبة غير معروف تقريبا، وقد يكون، وهو بفزان، في حماسة شبابه الكاملة، انجرّ في حلة مخاطرة إلى التّشاد أو السوكوتو (Le Sokoto)، ولكن عودته إلى فزان لم تكن إلا حوالي 666، ولم يحاول، في ذلك الحين، القيام بمغامرة كهذه، ثم إن مادحيه ماكانوا ليقصروا في إعلان ذلك⁽²⁾.

وعن احتمال ظهور عقبة في بلاد السودان، انطلاقا من جنوب المغرب الأقصى، يفترض E. Mercier "أن يكون ترك القيروان حوالي

(1) Mercier, op, pp.325-326.

(2) Ibid, p.326.

منتصف 682م، ثم إن حملته لا تكون قد دامت إلا حوالي سنة، وعند
الاطلاع على تفاصيل الصعوبات التي واجهته، ينبغي الاعتراف أنه لم
يكن لديه الوقت الكافي للذهاب من السوس إلى النيجر، مادام قطع
لمسافة كان يستغرق ثلاثة أو أربعة أشهر للذهاب ونفس المدة
لرجوعه.. (1).

وفي النهاية يخلص Mercier إلى القول: إنه عند التسليم بأن
عقبة نفذ بنجاح هذه العملية الكبرى (عملية غزو السودان)، فإنه لم يكن
يستطيع ذلك إلا في الفترة المحصورة بين سنتي 641 و647م، انطلاقاً
من قرآن، مع مقاتلين محدودي العدد، وهذا غير مستحيل، لكنه في
لواقع، قليل الاحتمال، اللهم إلا إذا انضمت إليه مجموعات من البربر
لتمنمين، لأنه لم يكن في استطاعته الإقامة، لمدة طويلة تمكنه من إنجاب
خلفاء يشكلون مجموعة عرقية ما، إضافة إلى أن غزوته ربما كانت، مثل
غيرها، باسم الخلافة، وكان سيقدم الولاء إلى أمير المؤمنين؛ وأخيراً
كيف.. يمكن تفسير عدم إشارة الحوليات التاريخية والأساطير، التي كان
هذا البطل مادة لها، إلى حدث خارج عن المألوف، في حين أنها كانت
تعرض بمحابة (complaisance) أعمالاً أقل من ذلك بكثير؟ وقد
يقال: من أين جاءت الروايات الدقيقة جداً، والمحافظة في السودان، عن
هذا الموضوع؟ لا أحاول تفسير ذلك وأكتفي بالقول: إن أهالي إفريقيا لا
يخضرون إليها من قريب، ويزوق لهم اصطناع سلالات تربطهم بأولياء
إسلام أو بمحمد (Mahomet)، ومن المحتمل جداً أن يكونوا قد
حفظوا بذكرى غارٍ أحدث من عقبة بكثير، ثم راحوا يطلقون عليه

(1) Mercier p 327.

إسمه، وفوق ذلك، فإن الإسلام لم يدخل بلاد السودان إلا مدة طويلة بعد ذلك، بعد غزو البربر الملتئمين الذين لم يعتنقوه سوى خلال القرن الثالث الهجري (9م) ... (1).

- ولاية عقبة بن نافع الأولى على بلاد المغرب:

يذكر إ. ليفي بروفنسال "أن عمرو بن العاص، قبل وفاته بقليل سنة 43هـ/663م، أسند إلى عقبة قيادة (commandement) فريقية، وحسب روايات يصعب التحقق من مصداقيتها، فإنه قد يكون، آنذاك، وجه نشاطه نحو السودان، وثبت الإسلام بحدّ السيف في غدامس، لكن ذلك لم يكن سوى غارة (raid) وليس احتلالا (occupation) منظّما للمنطقة (pays)، و ينبغي الانتظار عدة سنوات حتى تأتي حملة جديدة، أكثر إعدادا من غيرها ولاشك، قصد التوغل نحو الغرب...إنها حملة 50 هـ(670م) التي تمخّض عنها تأسيس موقع القيروان العسكري..." (2).

ويتوقف H. Fournel عندما قول البكري: إن عقبة بن نافع الفهري سار سنة 46هـ إلى المغرب حيث سبقه معاوية بن خديج "ملاحظا أن المؤلف سرد رواية طويلة نقلها عن ابن عبد الحكم، رواية خاصة بحملة دامت خمسة أشهر وتكفي نهايتها، بصرف النظر عن المشاكل الأخرى، لإثبات استبعادها، ما دامت انتهت هكذا" من هناك التحقق عقبة بالجيش في زويلة بعد غياب دام خمسة أشهر، وعندئذ اتجه غربا متقاديا المسلك المطروق (chemin battu)، فدخل أرض مزاة واستولى على كل قلاعها، ثم توجه إلى قفصة، وبعد الاستيلاء عليها

(1) Mercier E.op,cit.,pp 327-328.

(2) Provençal E. Lévi E I.^{re} éd., Leiden-Paris1936,T.III, art. Okba B. Nafi'a, p 1040.

وعلى قسطنطينية وصل إلى القيروان". والواقع أن الأمر يتعلق بقيروان يكون قد أسسه معاوية بن حديج، في نقطة يسميها ابن عبد الحكم قونية، وهذا قبل أن يقيم معسكره في القرن، غير أن هذا المقطع الذي يبدو غامضا لا يستحق التوقف عنده، والذي ينجم، على ما يبدو، من الروايات التي رأيتُ من الواجب السكوت على تفاصيل كثيرة منها مشكوك في صحتها، هو أن الحملة التي بدأت سنة 45هـ تواصلت أو ربما رُوِّفَت (seconder) سنة 46هـ بتحويل (diversion) تلقى عقبة بن نافع أمر القيام به في فزان وغدامس، في نفس الوقت الذي عيّن فيه زُوَيْفَع بن ثابت الأنصاري واليا على طرابلس: فاستولى على مقاطعتها، وبعد ذلك بقليل أي في سنة 47 استولى على جربة⁽¹⁾.

وفي اعتقاد Fournel: أنه يمكن التصديق بأن تلك الحملة، حملة 46 وقعت رغم أن ابن عذاري والنويري وابن خلدون لا يشيرون إليها، وقد يكون من اللائق حذف التفاصيل العجيبة منها فقط، وإذا كانت بعض خصوصيات دقيقة، وإذا كان صحيحا أنها انتهت بالاستيلاء على قفصة وقسطنطينية، فكيف لم يظهر الروم، وكيف لم يظهر أحد من قادتهم؟ هل كنت هاتان المدينتان بعيدتين عن ممتلكاتهم، إلى الحد الذي لم يجعلهم يحقون من استيلاء العرب عليهما؟. ويعترف Fournel أنه لا يملك عنصر أجوبة هذه الأسئلة لكنه يشك في أن الممتلكات الرومانية (romaines) (ويقصد الرومية (roumaine)، كانت مثل ممتلكات لوندان، عند انحطاطهم، ضيقة جدًا، عند قيام العرب بمحاولتهم الثالثة ضد إفريقية⁽²⁾.

(1) Les Berberes, T.2, p.146sq.

(2) Ibid, p.150

ويلاحظ هذا الكاتب أن "الخط البارز للحملتين (حملتي: 27 و45هـ) اللّتين رسم بهما العرب احتلالهم (conquête) لإفريقية هو أنّهما كانتا نُزْهَتين سريعتين تقريبا، انسحب فيهما المنتصرون إلى المشرق، بعد ابتزاز (rançonné) السكان، وما سيميّز الحملة الثالثة التي قادها عقبة بن نافع، والذي سيطبع، لأول مرة، الغزو (conquête) العربي بخاصية الاستقرار، هو تأسيس مدينة على حدود إفريقية الحقيقية (propre) ومُزاق (Byzacéne)"⁽¹⁾.

ولتحديد تاريخ هذه الحملة، يعتمد نفس المؤلف على سطر أشار فيه ابن عذارى " إلى حملة بحرية، يكون عقبة، مع جيش مصريّ، قد قام بها ضد الروم سنة 49" ⁽²⁾ ويقول: "إن الأسطر الموالية له مفقودة في المخطوط، وهذه الفجوة تمنعنا من معرفة النقطة التي يكون الروم قد تلقوا هجوما فيها. لكن النص سرعان ما يُستأنف ويُبين لنا عقبة وهو يغزو (envahissant) إفريقية، على رأس عشرة آلاف رجل، ويُقتل (massacrant) النصارى، ويَحْمِل الخراب إلى بلادهم، وهنا أيضا تُعوّزنا التفاصيل، غير أنه يمكن تصوّر الذعر (Juger de la terreur) الكبير الذي تركت مآثر (exploits) عقبة انطباعة في القسطنطينية، عن طريق المبالغة التي تعكسها روايات المؤرخين البيزنطيين: إذ يجعل Anastase le bibliothécaire و Cedrenus و Théophane الأولي من حكم قسطنطين الرابع، (Constantin IV) المدعو Pogonat تاريخ حملة قام بها الشرقيون (les sarrasins) على إفريقية و أسروا فيها ثمانين ألف شخص" ⁽³⁾ علّمًا أن السنة الأولى من حكم قسطنطين

(1) Les berbères, T.2, P. 150.

(2) Id.

(3) Ibid. pp 151-152

رابع، تمتد من 15 يوليو 668 إلى 15 يوليو 669 م، وأن أول محرّم سنة 49 هـ يوافق يوم الجمعة 9 فبراير 669م، مما يمكن، مع بعض الاحتمال، من جعل بداية حملة عقبة في الأشهر الخمسة الأولى من عام 49 هـ/669-670م⁽¹⁾.

فإشارة هؤلاء المؤرخين البيزنطيين، إضافة إلى نص البيان، وإلى تاريخ تأسيس مدينة القيروان، وهو تأسيس لا يمكن أن يتم إلا بعد الانتصار التام، جعلت Fournel يستنتج أن الحملة الثالثة، حملة عقبة بن نافع بدأت سنة 49 هـ⁽²⁾، وهو هنا، كما يتبين، يسجل لعقبة حملتين على إفريقية أولاها سنة 46 هـ وثانيهما سنة 49 هـ.

وفي علاجه لهذه النقطة ينطلق Caudel مما ذكره ابن ناجي عن تحديد بعض المؤرخين لتاريخ غزوة عقبة الأولى بسنة 41 هـ، واعتباره سنة 46 هـ هي الأصح، كما يشير إلى تاريخي 40 و 41 هـ، اللذين حثهما به الوراق، وإلى ما قاله ابن أبي دينار من أن غدامس فُتحت في ولاية عقبة الأولى سنة 42، وإلى تحديد الوراق لتاريخ حملة عقبة الثانية بسنة 46 هـ، وقد تكون الأولى حدثت سنة 40 أو 41 هـ. ويستخلص، أخيرا، وجود نفس الغموض دائما، يتمخض عنه الشك، ثم يتوقع أن يكون عقبة قام، في واقع الأمر بحملة استكشافية في المقاطعات إفريقية سنة 40 هـ تقريبا، وهو ما لم يمنعه من قيادة حملة جديدة سنة 46 هـ⁽³⁾.

وينتقد Caudel M. السيد Fournel لاعتباره الرواية التي يقدمها ليكري، عن هذه الأخيرة، أسطورة موضحا أن المؤرخ العربي ينقل عن

(1) Fournel, op Cit., p.151, note5

(2) Les Berbères, T.2, p.151

(3) Les premières invasions arabes, pp. 96-97

ابن عبد الحكم رواية حملة دامت خمسة أشهر، خَرَبَ عَقْبَةَ أَثْنَاءِهَا أَرْضَ مَزَاتَةَ، وَاسْتَوْلَى عَلَى قَفْصَةٍ وَقِصْطِيلِيَّةٍ، وَوَصَلَ إِلَى الْقَيْرَوَانِ، فَعَلَاوَةً عَلَى أَتْنَا لَا نَرَى جَيْدًا مَظْهَرَ الْأَسْطُورَةِ فِي رِوَايَةٍ بَسِيطَةٍ لِلْغَايَةِ عَنْ حَدَثٍ وَقُوعُهُ مُحْتَمَلٌ جَدًّا، يَنْبَغِي عَلَيْنَا مِلَاحَظَةُ أَنَّ كُتَابَا آخَرِينَ، لَا يَعْرِفُهُمُ السَّيِّدُ Fournel أَكَّدُوا رِوَايَةَ الْبَكْرِيِّ، وَفَضَّلَا عَنْ ذَلِكَ فَإِنْ مُؤَلِّفُنَا يَتَرَاوَعُ عَنْ قَوْلِهِ بِسُرْعَةٍ كَبِيرَةٍ، مِلَاحَظًا أَنَّ الْحَدَثَ، بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، مُمْكِنٌ، وَالْحَمْلَةُ قَدْ تَكُونُ تَحْوِيلًا (diversion) وَجَّهَ إِلَى غَدَامَسَ، فِي حِينٍ كَانَ رُوِّفِعَ بِنِ ثَابِتٍ يَسْتَوْلِي عَلَى طَرَابُلُسَ، وَرِوَايَةُ الْمَالِكِيِّ تَوْكِّدُ هَذَا الْخَبَرَ بِجِدِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، وَفِي السَّنَةِ الْمَوَالِيَّةِ (47) سَارَ رُوِّفِعَ مِنْ طَرَابُلُسَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ وَعَادَ مِنْهَا فِي نَفْسِ الْعَامِ، وَحَسِبَ ابْنَ النَّاجِيِّ فَقَدْ يَكُونُ أَسَسٌ، أَنْذَاكَ، مَسْجِدَ الْأَنْصَارِ بِالْقَيْرَوَانِ، كَمَا اسْتَوْلَى رُوِّفِعَ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ، عَلَى جَرَبَةٍ، وَقَدْ رَأَيْنَا سَابِقًا أَنَّ ابْنَ أَبِي دِينَارٍ بَقِيَ مَعْلَقًا بَيْنَ تَارِيخِي 40 وَ 46هـ. غَيْرَ أَنَّ اتِّفَاقَ الْمُؤَلِّفِينَ لَا يَسْمَحُ لَنَا بِالْتَّرَدِّ بَيْنَ الْاِثْنَتَيْنِ، فَالْثَّانِيَّةُ هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي تَبْنِيهَا.⁽¹⁾

وَبَعْدَ كُلِّ هَذَا يَتَسَاءَلُ Caudel قَائِلًا: فِيمَا يَخْصُ حَمْلَةُ عَقْبَةٍ، فَمَا هِيَ بِالضَّبْطِ؟ ثُمَّ يَجِيبُ: أَنَّ بِحُوزَتِنَا مَعْلُومَاتٌ قَلِيلَةٌ عَنْ هَذِهِ النِّقْطَةِ وَمَا يَفْتَمُهُ مِنْهَا ابْنُ النَّاجِيِّ يَتَشَابَهُ مَعَ مَا يَتَعَلَّقُ بِحَمْلَةِ 50" وَاسْتَوْلَى عَلَى قَلَاعٍ كَثِيرَةٍ، وَقَتْلَ أَعْدَادٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الرُّومِ وَالْبَرْبَرِ، وَأَسَسَ مَدِينَةَ الْقَيْرَوَانِ، وَبَقِيَ بِهَا عِدَّةُ أَيَّامٍ" وَبِاخْتِصَارٍ، يَعْتَقِدُ Caudel أَنَّهَا كَانَتْ غَزْوَةً كَسَابِقَاتِهَا، وَمِنْ ثَمَّ فَهُوَ يَرَى بِحَزْمٍ، كَمَا يَقُولُ، وَجُوبَ تَبْنِي نِظَامِ تَعَدُّدِ الْحَمَلَاتِ، فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ: إِذْ أَنَّ مُحَاوَلَاتِ الْعَرَبِ فِي إِفْرِيقِيَّةٍ، لَيْسَتْ

(1) Les premières invasions arabes, pp.97-98

في حاجة إلى تخطيط مسبق، من مدة طويلة، ولا إلى إعداد كبير، فالقادة الذين يقومون بها يعرفون أنهم غير مستقرين في أماكنهم، ويُفضلون لبقاء بعيدا عن السلطة المركزية وتلهية رجالهم: فالقوة الإسلامية لئاردة نشرت الإسلام بسرعة كبيرة ونجاح باهر، قنفتهم خارج مصر، حو الأطلس مثلما دفعت زملاءهم إلى ما وراء نهر دجلة (oscus) وتنين ببلاد الشام إلى آسيا الصغرى وهذا الاعتبار يؤدي بنا إلى قبول احتمال الكبير لوقوع حملة لمعاوية بن حديج سنة 40، وأخرى سنة 41 وحملة عقبة سنة 43 على السودان وودان، من بلد برقة، وحملة معاوية بن حديج سنة 45 وأيضا حملتا: رُوِيع و عقبة سنة 46. وقد كانت كلها مسيرات عادية، غير جديرة باهتمام المؤرخين، وقد أربكت تفاهتها لتروي الذي تأخر كثيرا ولم توضحها له الروايات المريبة جدا لدرجة أن أحداث فيها كانت هاربة (fuyants)، غير منطقية ونسبية، والحدث الذي يهيمن على غيره من الأحداث، والذي يهمنا وحده، والذي نتابعه من حل سطحية التفصيل هو استقرار العربي في إفريقية⁽¹⁾.

وبالنسبة لإ. مرسيني (Mercier E.) فإن الأمويين أرسلوا جيشا إلى مصر سنة 663م واستولت الحملات على المغرب، وعاد ظهور عقبة على المسرح، فقاد عدة حملات، ثم وكأنه جذب نحو لجنوب، فعاد إلى فزان وقضى بها خمسة أشهر، فارضا الإتاوات (tributs) مع الخضوع والإجبار على اعتناق الإسلام و ارتكاب فضائع أخرى (666-668م)...⁽²⁾ ويعتبر نفس المؤلف هذه الغزوة هي رحلته لثنية لفزان وأن مدة قيامه بها كانت قريبة جدا من تاريخ تعيينه على

(1) Caudel M:op.cit., p.98

(2) Sidi Okba, ses expéditions dans extrême sud; p.324

ولاية إفريقية وهو 669م⁽¹⁾. وقد يكون سعى (briguer) للحصول على هذا المنصب، وأنه كان له مخططه الجاهز، كما كانت تجذبه، لإخضاع بلاد البربر بوجه خاص، جاذبية قوية⁽²⁾.

ويعتبره Caudel الأكثر خبرة تقريبا، مقارنة بجميع قادة الحملات السابقة لأنه، منذ الشروع في الغزو، في عهد عمرو بن العاص، كان يسكن برقة وزويلة⁽³⁾ ومن برقة حيث كان يقيم (réside) تمكّن من متابعة الحملات التي لم يشارك فيها مباشرة فأدهشه عجز جهوده وجهود رفقاءه في السلاح ورأى تحول تعاون البربر النشيط إلى عداء معلّن (ouvert) تقريبا، ممّا صار يعرض نجاح الحملات إلى خطر، وبالإمكان تحويل الانسحابات إلى هزائم ولاحظ عودة المقاتل المسلم، بسرعة إلى الخلف، بعد تقسيم الغنائم، في كل مرة، دون أن يحمل همّ المستقبل، تاركا بلدا ينبغي عليه إعادة احتلاله (reconquérir)، في حين كان بإمكانه الحفاظ عليه بسهولة، وقد استغرب منطّقه العسكري من هذه الأخطاء، وسخط حماسه الديني من ارتدادات البربر وتراجعات الإسلام، فهو يفكر في الإيمان (foi) أولا، يريد معاقبة المرتدين ونشر العقيدة الإسلامية؛ ومن أجل ذلك ينبغي الاستقرار، نهائيا، في البلاد وعدم التراجع، أبدا، ولو بخطوة واحدة..⁽⁴⁾ فكان له هدف واضح ووسائل محددة: الهدف هو إخضاع إفريقية نهائيا، والوسائل هي الاستقرار في البلاد، ومن هناك ينشر الإسلام بين سكانها، بعد ذلك⁽⁵⁾.

1- Sidi Okba, p.326

2- Id

3- les première invasions arabes, p.98

4- Ibid, pp.100-101

5- Ibid, p.99

وللاستقرار يجب تثبيت العربي، الذي يلتفت باستمرار إلى مصر، توفير مكان آمن له ولعائلته وسيهيم على المقاطعة جيش متحصن غوّ. في موقع مختار بعناية، وينشر بسهولة بين البربر، عقيدة يتقبلونها عن طيب خاطر، على ما يبدو، فإن لم يتقبلوها طوعا، سيفرضها عليهم بقوة، وفي البداية سيُرْهِيمهم بإبادة المرتدين الذين ستقع عليهم يده، إبادة جماعية، ذاك ببساطة هو مخطط المحتل⁽¹⁾.

ويرى Fournel أن "الحملة العربية الثالثة" التي قادها عقبة وجهت أساسا ضد الأهالي (indigène)، لأن المعمرين البيزنطيين، لم يعتقوا الإسلام نقاديا للابتراز، مع أنهم تكبدوا اغتصابات المنتصرين، فتأكد إذا أن عقبة كان يقصد البربر، عند اقتراحه على جنوده، قائلا: بناء مدينة عندما يدخل إمام إفريقية..."

ويلاحظ Caudel أنه لم ينصرف، ولو لحظة واحدة، عن هدفه قد تكن له هناك أعمال أخرى، ما عدا تأسيس القيروان، في هذه الحملة. ما أشار إليه البلاذري من استيلاء بسر بن أبي أرطاة على قلعة مجاورة للقيروان، كما يلاحظ أيضا أن الروايات التي تحدثت عن الحملة لم تنطرق إلى الغنيمة وقد تكون هذه الأخيرة جمعت، لأن الجندي لم يكن يتحرك بدونها ولكن انشغالات القائد العام كانت في غيرها⁽²⁾.

ويعتقد إ. ليفي بروفنسال (E. Levi Provençal) أن قصد حملة 50هـ/ 670م، التي تمخض عنها تأسيس مدينة القيروان، هو التوغل نحو الغرب و لم تستهدف، هي الأخرى، تدعيم نتائج الاحتلال العربي وربما كان تحت تصرف عقبة في هذه الحملة، عشرة آلاف فارس، وقد

(1) les premieres invasions arabes, p.102

(2) Ibid, p.101

يكون هذا العدد ارتفع شيئاً فشيئاً، بانضمام فرق (contingents) بربرية، اعتنقت الإسلام، إليه وبفضل ذلك تمكن من مواجهة البيزنطيين الذين صمدوا في مدن الساحل الإفريقي وكذلك البربر⁽¹⁾.

وفي رأي Marçais G. فإن عقبة يبدو أنه تصرف بمنهج أكبر، ومقاصد أوسع من سابقه، ولم يسبق للظرف أن كان مناسباً أكثر للعرب: فالإمبراطور قنسطانز الثاني (Constant II) كان قد قُتل، قبل قليل، فوجه خلفه قنسطنطين بروقونة (Constantin Progonat) نداء إلى القوات البيزنطية، في الغرب، لمجابهة مغتصب ظهر بصقلية، تاركا فراغا كبيرا بإفريقية، ومن المؤكد أن عقبة، أثناء تقدمه، عبر الجريد ومزاق (Byzacène) لم يلتق بالبيزنطيين: فلا تصادم للجيش ولا حصار للمدن، والقلاع المحرومة، ولا شك، من المدافع كانت تسقط تلقائياً، والممتلكات كانت تتهب وتُهدم، والسكان يُقتلون أو يحولون إلى عبيد، إلا إذا أسرعوا في الدخول إلى الإسلام؛ وهذا الانتصار السهل في الظاهر، حقق ضد بربر مسيحيين في أغلبهم، غير مهينين للمقاومة، ولم تحميهم الحاميات الإغريقية - إن بقيت هناك حاميات - ولتدعيم هذا الغزو العسكري وتسهيل سيره، فيما بعد، أسس سيدي عقبة القيروان سنة 670م⁽²⁾.

ويذهب Terrasse H. إلى القول: إن الغارات العربية استؤنفت على مزاق (Byzacène) سنة 664 م، معلقاً بأن كل الغارات التي تحددها النصوص ما بين 660 و 664 م شكوك "في أمرها كثيراً، و في سنة 670 م تمكن جيش" بقيادة عقبة بن نافع من الاستيلاء على الجنوب

(1) E.I., n^{elle} éd, Leiden- Paris 1936, T.III, art Okba B Nafi'a, p.1040

(2) La Berbérie musulmane, p.31

تتونسى (الحالى) بدون صعوبات، ولإظهار أن الإسلام استقر نهائيا في بلاد البربر، أسس عقبة مدينة جديدة، هي القيروان⁽¹⁾.

وقد وقع لبس كبير للجنرال Brémont فاعتبر "سيدي" عقبة وصل في جولته (sa randonnée) هذه حتى المحيط الأطلسي" دون أن تعترضه مقاومة من البربر، وقرّر، أثناء عودته، تأسيس (crée) بادية (bédouinerie) مقراً للبدو، مثلما فعل المسلمون في بلاد الشام وبلاد لرافدين... وقد سميت تلك البادية القيروان، المعسكر (le camps)"⁽²⁾.

وفي تعليقه على تأسيس القيروان، في موقع قمونية الواقعة على بعد ثمانية فراسخ إلى الشرق من جبل ممطور، حيث كان يوجد حصن صغير، بناء الإغريق، يذكر Fournel H. أن السيد Hartaman شكّ، من 1796 في كتابة تسمية قمودة عوضا عن قمونية، وأن السيد Nicholson رأى "أن وقوع هذا التغيير غير مدعوم بما فيه الكفاية؛ وعلى العكس من ذلك، فقد أعرب عالمان مستشرقان Quatremère Et. و de goeje عن رأي مفاده: أن البكري يكون قد أخطأ في كتابه قمونية بدل قمودة... وأن منطقة جنوب القيروان كانت، على ما يبدو، تحمى اسمين"⁽³⁾؛ وقرن Fournel بين ما يشير به البكري "إلى قمونية ليس كمدينة ولكن كإقليم يحتوى على بلدات (bourgs) وقرى، وبين ما قلّه لتجاني من أن "مدينة قمونية هي باب من أبواب الجنة" ثم تحدّث عن سواحل قمونية... شواطئ قمونية" وهي عبارة تتضمن فكرة إقليم (territoire) واسع"⁽⁴⁾، وبين ما تحدّث به "لليعقوبي وابن حوقل وابن

(1) Histoire du Maroc, T.1, pp.79-80

(2) Berbères et Arabes, p.182.

(3) Fournel H.: Les Berbères, T.2, p.152 sqq.

(4) Ibid, p.153, note2.

سبّاط عن قَمُودَة كبلد (pays) وما تحدث به الإلريسي وابن عذاري والنويري وابن خلدون والزركسي عنها كمدينة⁽¹⁾ ويستخلص، في النهاية أن المقابلة بين مقطعين مأخوذتين من حُجَتين (autorités) كبيرتين: ابن حوقل والبكري يثبت، في أن واحد، أن قَمُودَة وقَمُونِيَة هما اسم لإقليم واحد: يقع جنوب القيروان وتمتد من ناحية الشمال الشرقي إلى البحر⁽²⁾.

ويتساءل Fournel ما إذا كان القيروان أُسِّس على أنقاض حصن قديم مثلما قال النويري؟ ثم يجيب أن هذا الجزم (assertion) لا يستبعد فكرة أن يكون عقبة قد اختار موقعه على ميلين، شمال المدينة الرومانية، على الآثار التي ستبنى فوقها، بعد ذلك بكثير، في سنة 335هـ/946م مدينة صبرة الفاطمية⁽³⁾ ويستطرد نفس الكاتب قائلا: "من المؤكد إذا أن تكون مواد (matériaux) رومانية استعملت في بناء هذه المدينة، ويحتمل جدا أن تكون جاءت من نقطة غير بعيدة وأن جوار محطة رومانية، ولو خربة، (ruinée) من شأنها أن تُلقَى، في مجال الأساطير، تلك الرواية العربية التي تصور لنا موقع القيروان كغابة غير نافذة (impénétrable)، مليئة بالثعابين والحيوانات المتوحشة... وأن العرب كانوا في حاجة إلى العجيب (du merveilleux)، وأن عقبة كان، كلما رأى ترددا لدى هؤلاء الأطفال الخطيرين في ميدان القتال، يعرف دائما كيف يُدخل حادثا مناسبا، خارقا للعادة، يوحى بالخضوع... وعند افتراض قبول الرواية العربية للحظة واحدة، فلا يُحتمل أن يكون الجنود البواسل الذين كان عقبة يقودهم دُعِروا من تواجد بعض الحيوانات المتوحشة، ولكن فكرة مدينة لإقامتهم، بعيدا عن مسقط رأسهم، ربما تكون قد

(1) Fournel, op. cit., p.154, note2.

(2) Id

(3) Fournel: Op. cit., p.155

عكست غرائزهم وطبائعهم، ومن هنا ولا شك، جاءت الكراهية التي كن على قائدهم الانتصار عليها⁽¹⁾.

ويستغرب Fournel أخيراً أن يكون البيزنطيون، محتلو إفريقيا لحقّية (propre)، قد تركوا العرب بينون مدينة على بعد ثلاثة أيام من قرطاجة، في أمان، وهذا مشكل قد يكون حلّه مختفياً، في بعض الأسطر لسقطة من كتاب ابن عذاري الذي يبدو أنه تكلم، حسب البكري (تثبيلي)، عن معاهدة سلام مع الافرنج (les francs)، ويلاحظ مورنيل بأن القسم الخاص، من كتاب البكري، الذي يشير فيه إلى تأسيس لعروان لم يصلنا⁽²⁾.

ويردّ Caudel على الذين ادّعوا أن معاوية بن حديج سبق له و تصور المشروع الذي نفذه عقبة بن نافع بقوله: " لقد حدث لعقبة مثلاً بحث لكل مبتكر (innovateur)، بحيث يلتقي أشخاص ليدّعوا أن تخصاً قبله، سبق له وأن تصور المشروع الذي نفذه"⁽³⁾ ثم يفترض أن حديج يكون قد قام بغارة سنة 50هـ، وهذا غير مستحيل، لكنه لم يجرّ يستطيع الإقامة في القرن ثلاث سنوات، بحجة أنه مات سنة 52هـ/ (972)، خارج إفريقيا. ويتساءل أخيراً ما إذا كان ابن حديج سبق عة في هذا التصور؟ ثم يجيب أنه من الطبيعي أن يفكر أمير (كابن حج) في تحصين، موقع وجعله مركزاً لعمليات نهبه، لكن هذا يختلف تماماً عن تأسيس مدينة خاصة بالإقامة الدائمة، ففي الرواية الخاصة لحمة السابقة، كما في بقية الروايات، تأخذ الغنيمة مكانها فيها، وهذا يهيئ تمييزها؛ فإن سبق لابن حديج أن أنشأ موقعاً متحصناً فعقبة يعلم

(1) Fournel, op. cit., pp 156-157

(2) Les Berberes, T 2, pp157-158.

(3) Les premières invasions arabes, pp 101-102

ذلك، وقد يكون استفاد من الفكرة وطوّرها كثيرا ونفذها بتألق كبير ليجعلها ملكا له، وتمت عملية التأسيس سنة 50 هـ/670م. في موقع مدينة يسميها العرب قَمُونِيَة وقد سجل Caudel (الخطأ الواضح) في رواية المالكي التي تُحدّد تاريخ التأسيس بسنة 57 هـ/670م. ملاحظا أنه يخلط، من البداية إلى النهاية، بين ظروف حملتي سنة 50 وسنة 62 هـ⁽¹⁾.

وعن موقع القيروان يرى هذا المؤلف أن اختياره "كان جيّدا لدرجة أن الولاة العرب، والأمراء المستقلين الذين أعقبوهم، استقروا فيه طويلا ولم يغادروه إلّا بعدما كانت ضرورات سياسية جديدة تجبرهم....، فهو وسط سهل واسع ومفتوح، قريب جدا من الجبال التي تغلق أشباحها الزرقاء الأفق، غربا، غير بعيد عن البحر....

فموقع المدينة الاستراتيجي كان بارزا، والأمير الذي وضع هناك مركز عملياته، يرى تقدّم العدو من بعيد، ويستطيع بسهولة الاحتراس من هجمات (المقاتل) البربري المفاجئة، المألوفة، وإنّ أراد ملاحقته أو البحث عنه في نجوده، فإن الطرق تتفتح أمامه: إذ تنقله بعض ساعات المشي في منخفضات (vallées) وادّ زرود أو وادّ مرّ قليل، أو شعاب (défilés) جبل بارقو، إلى الهضاب العليا التي يُمكنه، دائما، مسح أطرافها، إن كانت له قوّة كافية، وخيالة خفيفة، ماهرة جدًا في هذه الخدمة الاستكشافية، من غارات سريعة ومراقبة مستمرة، ففي الغارات السابقة كان الجيش العربي متقلا بأمّنته وعائلاته، أما الآن وقد تمكّن من تركها بموقع، في أمان، فهو أكثر مرونة وخفة من الجيش البربري

(1) Caudel Op. cit., pp 102-103

نفسه، وكانت قُدرة هذا الأخير تتمثل، تقريبا، في سرعة حركاته فقط، والتفوق عليه في السرعة يعني هزيمته في عين المكان؛ أما الإغريقي (البيزنطي) فإن الأمير يتجاهله ويتحداه، ويتعجب السيد Fournel من رؤية العربي يستقر نهائيا، قريبا جدا من قرطاجة، ويتساءل من جهة أخرى، عن وضعية الروم آنذاك. والسؤال الأول هو حلّ للثاني: فالأمير العربي، في القيروان، على بُعد ثلاثين فرسخا من العاصمة الإغريقية، مقيم بجرأة، خلف تحصين مُبهم، يُمكنه توقيف المهاجم البربري، لكنّه ينفع آخر مهندسي الإمبراطورية العسكريين إلى السخرية، وهذا يعني الضعف الكبير (للإنسان) الرومي، بل تدميره قبل ذلك، وربما بقي صامدا خلف بعض التحصينات، وربما سيتمكّن، من حين لآخر، من جمع بعض العساكر وضمّها إلى القبائل البربرية، في محاولة أخيرة، لكنّه كان عاجزا بمفرده. فكان حلفاؤه، من الأهالي، محلّ اهتمام المحتلين (envahisseurs)...⁽¹⁾

ويحدّد (أ. ف.) قوتسبي (Gautier E.F.) موقع "المحتلّ العربي الرئيسي في طرف (l'orée) الصحراء، وهو يحمي الطريق لصحراوي الكبير، الآتي من مصر، في حالتي الهجوم و الانسحاب، كما يواجه الأوراس و فيه، وليس في مدن الشمال، يوجد العدو الخطير الذي تمّ يقض عليه، في تلك الكتلة الجبلية و في الوديان (Vallées) المرتفعة التي تمتدّ شمالا، و هذه الأرض هي بالضبط نوميديا الرومانية و قرطاجية، و ما من شك أن كل الصّدّامات الحاسمة التي حدثت في لعشرية (décade) الأولى من الغزو (conquête) العربي كانت هناك،

(1) les premières invasions arabes, pp.105-106.

حول الأوراس، والوضعية كانت هي نفسها في القرن السابق، عند إعادة الاحتلال البيزنطي...»⁽¹⁾.

وفي نظر Terrasse H. فإن عقبة أسس مدينة جديدة، القيروان، ساحة العرض العسكري، في مدخل الأراضي المحتلة أو التي ستحتل، لإظهار أن الإسلام استقر نهائيا في بلاد البربر؛ وكان قادة الجيش الإسلامي يؤسسون دائما، مدنا جديدة يستخدمونها، كقواعد لعملياتهم، ثم يستقر فيها، بعد ذلك، جيشهم، بعيدا عن السكان غير المسلمين...، وقد كانت هذه المدينة الحديثة تحرس طريق مصر، وتواجه الأوراس حيث كانت تلتقي (se conjuguer) المقاومات البيزنطية والبربرية، وكانت تحمل علامة مؤسسيها: إذ كانت ترتفع في هضاب واسعة، حيث كان البنو المعادون للجبل والغابات والبحر، في آن واحد، يشعرون بالأمان بجوار أرض الفيضانات، وحيث يمكن جمع محصول جيد، وقد حدثت موقعها بئر... وعُدَّت أحدَ أقطاب الإسلام الغربي... قبل قرطبة بكثير...»⁽²⁾.

ويرى (إ. ليفي) بروفنسال أن تأسيس القيروان شكّل نقطة دعم قوية للجيوش العربية، حتّى وإن لم يكن مكن من احتلال إفريقية وتأمينها بسرعة، فهو على الأقل مكن من ضمها إلى ديانة المحتلّ وسلطته⁽³⁾. وبالنسبة للجنرال Brémont فإن عقبة اختار، لتأسيس باديته، القيروان سنة 665 م، مفترقا للطرق، كان آنذاك خاليا تماما، في أرض

(1) le passé de l'Afrique du Nord, p.254

(2) Histoire du Maroc, T. I, p.80

(3) E.I. n^{el}o éd., Leiden- Paris 1936, T.III, art. Okba B. Nafi'a, p.1040

قاحلة، قرب بعض الآبار، ذات مياه أجّاجه (saumâtre)، ويُعتبر أحد تلك الآبار، بئر بَرُوتَة، متصلا ببئر زمزم في مكة⁽¹⁾.

ويذهب (ش. أ.) جوليان إلى القول: "إن عقبة بن نافع الذي سبق نه وأن قام بحملة ساطعة على فزان، نظم حملة ثالثة، تختلف عن سابقتيها الآخرين، من حيث أنها انتهت بتكوين إقامة دائمة... في قلب مَراق، بسهل واسع، شبه صحراوي، وهي القبيروان، بعدما خلّص الموقع (la place) من كل الحيوانات المتوحشة والحيات... وهو موقع موجّه، بكل تأكيد، ضد البيزنطيين الذين كان بإمكانهم استعمال المدن الساحلية تقيّام بهجوم، ولكن بصفة خاصة، ضد البربر الذين أصبحوا وحدهم يمثلون، بعدئذ، الخصوم الخطيرين، ثم إن القبيروان لم تحم طريق مصر، لذي كان ينبغي أن يبقى حرا للتموين والانسحاب المحتمل، فقط، ولكن كنت تواجه الأوراس الذي صار لبّ (Môle) المقاومة⁽²⁾.

وعن أسباب عزل عقبة من منصبه يرى Caudel أن التتحيّة، في ذلك الوقت، "كانت تُضرب، خبط عشواء، الوُلاة المتحمسين جدا (trop zélés) أو الذين تنقصهم الحمية للقيام بمهامهم، الذين كانوا سعداء جدًا أو الذين لم يكونوا سعداء، بما فيه الكفاية، وكان عقبة من بين هؤلاء؛ وقد تكون خطته أدهشت الخليفة (معاوية) وكذلك نظرته البعيدة لمدى التي قد يكون نسي عرضها عليه؛ كما أن غياب الغنيمة قد لا يكون أعجب الخليفة⁽³⁾. ويرى في مكان آخر، أن والي مصر، مسلمة بن مخند، أرسل مولاه أبا المهاجر إلى إفريقية "لأن مظاهر عقبة الاستقلالية كنت تُقلقه، ولأنه لم ير ما ينفع في الحملة التي قادها هذا الأخير، ولأنه

(1) Berbères et Arabes, p182

(2) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, p.165

(3) Les premières invasions arabes, p 108

أراد تعويضه برجل ثقة، يُرسل إليه مواد الخراج بانتظام⁽¹⁾؛ ويردّ (ش. أ.) جوليان أسباب ذلك العزل لما أخذ عن أفكاره العسكرية الصرفة وموقفه العنيف من رؤساء البربر، وتقتيله (Massacre) المنظم، وغاراته (raides) التي كانت خطيرة بقدر ما كانت عديمة الفائدة⁽²⁾؛ أو أن ذلك يعود، حسب Terrasse H.، إلى أن "الخليفة كان، ولاشك، يحترس من الروح الاستقلالية للقادة المنتدبين إلى ثغور الإسلام"⁽³⁾ أو يرجع، حسب ج. مارسى، إلى أن الوالي الجديد، مسلمة (ابن مخلد) الذي استقبلته مصر سنة 671 أو 672م، وكانت إفريقية تابعة إليه عوض عقبة برجل له، هو مولاه أبو المهاجر⁽⁴⁾، وهذا نفس ما ذهب إليه (إ. ليفي) بروفنسال بقوله: "إن إفريقية بقيت تابعة لولاية مصر، فعزله واليها الجديد، مسلمة بن مخلد الأنصاري، بمولاه أبي المهاجر سنة 55هـ/675م⁽⁵⁾.

ويتوقف Fournel عند موضوع ولاية مصر وعلاقتها بإفريقية فيقول: إن "البلاذري يزعم، حسب الواقدي، أن معاوية بن حديج عزل عن ولاية مصر ليتّرك المكان لمسلمة بن مخلد، لكن هذا خطأ، بكل تأكيد، ما دما رأينا... أن ابن حديج، كان قد مات، منذ ثلاث سنوات (سنة 52هـ)، و قد نقل ابن عذارى والنويري وابن خلدون نفس الرواية (assertion) التي اعتقد أنها خاطئة، في كل النقاط، لأن مسلمة، بالنسبة إليّ، كان واليا لمصر منذ عام 47هـ، وبقي بها إلى عام 62هـ، ولهذا السبب، ولاشك، افترض بعض المؤلفين، خطأ، أنه كان يحكم مصر

(1) les premières invasions arabes, p 107.

(2) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, P.16.

(3) Histoire du Maroc, T.I, P.80

(4) La Berbérie musulmane, p31.,

(5) Provençal E.Lévi, op.cit, p.1040

وإفريقية منذ عام 50هـ، وراحوا يُنسبون إليه تأسيس القيروان الذي قد
 عة على يديه وحسب هذا الافتراض، فقد يكون تم، على الأقل في عهد
 ولأيته. والمؤرخون الذين سلّموا (admettant) بأن ابن حُدِيج كان واليا
 على مصر، قبل مسلمة بن مخلّد، يقولون بأنه احتفظ بهذه الولاية مدة
 ربع سنوات، وقد يكون هو الذي أرسل عقبة بن نافع إلى إفريقية، حسب
 رأيهم، لكن البلاذري نفسه يضيف: أن هناك من يقول: إن معاوية بن
 في سفيان هو الذي عين عقبة على ولاية المغرب. وابن خلدون يقول
 هذا بإيجاب (positivement)، وهنا تكمن الحقيقة، ويمكن رؤية تفسير
 لتُحدث اللاحقة...، ولتأييد حلّ مشكلتي يمكنني، إلى حدّ ما، الاستناد
 إلى عبارات القيرواني، رغم خطأ تاريخه وتشويه أسمائه، تقرّيباً⁽¹⁾.

ويذهب Caudel، انطلاقاً من رواية ابن أبي دينار، حول عزل
 عبة وتولية أبي المهاجر سنة 51هـ، حيث وصفها بعدم الدقة في كلّ
 قضها إلى القول: ورأى أن صاحبها "يخلط، بصفة مؤسفة، ولاية مصر
 مع ولاية إفريقية، زيادة على ارتكابه خطأ في التواريخ، فولاية مصر
 كنت، منذ 47هـ/667 م، لمسلمة ابن مخلّد الأنصاري الذي احتفظ بها
 حتى وفاته (في 25 رجب سنة 62)، ولم يَعمُ الخليفة سنة 55هـ/674 م، و
 جس سنة 51هـ/671، كما يقول ابن أبي دينار، إلّا بضمّ ولاية إفريقية
 إلى ولاية مصر، فولّى مسلمة... على إفريقية أحد مواليه، دينار..⁽²⁾.

ويعلق Pellat CH. أيضاً، على ما ذكره الطبري من أن
 عين حُدِيج واليا على مصر سنة 47هـ/667 م وعُزل سنة

(1) Les Berbères, T.2, p 159, note.5 .

(2) Les premières invasions arabes, pp-106-107

50هـ" قائلا: "إن مسلمة بن مخلد هو الذي كان، في الواقع، يشغل هذا المنصب.

- ولاية أبي المهاجر دينار:

يعرف Caudel M. هذه الشخصية بأنها ليست ما يمكن تسميته رجل الخيام الكبيرة"، رجلا من معدن طيب بل، على العكس من ذلك هو من نمط القائد بالصنفة، نشأ من العدم، ووصل إلى القيادة عن طريق محاباة سيد بقدر ما وصل إليها عن طريق موهبته الخاصة، فهو مولى لوالي مصر... يسمى دينار فقط، وربما لا يستطيع أن يقول من هو أبوه، وقد كُنِيَ بأبي المهاجر، وهذا لا يكون له نسبا، ويبقى شخصا (Personnage) صغيرا، إلى جانب قادة آخرين من نسب عريق، لكنه رجل وفي وخضوع، ينفذ بدقة وذكاء أوامر سيده... فدينار يريد، قبل كل شيء أن يرضى، وهو يعرف أنه لكي يرضى، عليه أن يرسل نقودا معدنية إلى مصر، وسيبحث عنها أينما وجدت، وسيستخدم، في البحث عنها، الذين يستطيعون مساعدته، والبربري موجود هناك، قريب جدا منه، يعرض نفسه، شريطة أن يكون له نصيب من الغنيمة، ولن يستغرب أن يكون هو الأول الذي يدل على الضربات التي ستوجه، ويقترح مساعدته... والمولى دينار ليس من جنس زُهَيْر بن قيس: إذ لا تُربك بآله انشغالات الآخرة، وهو قليل التقدير للدعوة المفرطة، ليس كعقبة، الذي يحاسب البربر والروم على رذلتهم، ويدعي إرشادهم إلى الطريق المستقيم، بحد السيف: فدينار يُمارس دعوة أكثر حذقا، دعوة النهب، وطبعا فهو يشترط على من يقاتل تحت لواء الإسلام أن يكون مسلما، فأعلن القائد البربري إسلامه من طرف اللسان (du bout des lèvres). وهذا ما لم يكلف كثيرا، ونفس الشيء بالنسبة لبقية أفراد

القبيلة، والأمير يعضّ النظر عن كل البدع التي تزدهر (fleurissent) في معسكره، بل قد يتفق فتور (tiédeur) عقيدته ووطنيته العربية مع لا مبالاة قادة الأهالي، أكثر مما يلتقي مع الكبرياء الوطنية المتحمسة والتعصب الوحشي لمساعديه (العرب)، أنه صديق لكُسَيْلَة، وقد ترافق تشريكان الماكران، دون أن تُكذّر أية سحابة صداقتهما، لسنوات عديدة⁽¹⁾.

وعن كيفية وقوع الاتصال الأول بين الرجلين يتوقف Fournel عندما ذكره ابن خلدون عن وفاة سكرديد سنة 71هـ / 690-691م، معلّقاً بأن "الأحداث التي ستتبع مباشرة تُبيّن أنه ينبغي قراءة 51هـ عوضاً عن 71، إلا إذا تمّ التسليم بأن سكرديد، إن كان توفي فعلاً سنة 71، سبق له وأن تنازل عن القيادة لكُسَيْلَة، نظراً لكبر سنّه ولخطورة الظروف، غير أن هذا الافتراض يفسر ما يقوله ابن خلدون، في مكان آخر، "... ومُرادفهُ سَكْرَدِيد..."، ومهما يكن، فإن هذين القائدين كانا يحتلان (occupaient) المغرب الأقصى، مع قبيلتهما أوربة وقبائل أخرى. وبالتالي فإنهم بقوا غرباء تماماً عمّا جرى، بعيداً عن أرضهم، عن غارات (Courses) عربية على إفريقية وكذلك تأسيس مدينة القيروان التي اكتمل بناءها سنة 55هـ ولكن أحد أعمال أبي المهاجر ثؤلى، كان تقدّمه نحو الغرب إلى عيون تلمسان، بل إن القيرواني يقول: إنه استولى على المدينة، ولم يكن هذا الزحف الجسور، والاستيلاء على مدينة هامة، قريبة من ملوية، ليقصرا في إيقاظ قلق أوربة، فجاء

(1) Les premières invasion arabes, pp. 122-123

كسيلة للاشتباك بأبي المهاجر لكن القائد البربري الذي هزم وأسر، لم ينج من الموت إلا باعتناق الإسلام⁽¹⁾.

وحسب Mercier E. فإن المولى أبا المهاجر الذي جاء فجأة، خلف لعقبة في الولاية، كان عليه خوض حرب (eut à Lutter) ضد ثورة الأهالي الجدية الأولى، فيسطر عليها بسرعة وتقدم منتصرا إلى الموقع الذي ستقام به، فيما بعد، مدينة تلمسان حيث كانت توجد آنذاك آثار متناثرة لإقامة رومانية صغيرة تسمى pomaria⁽²⁾ ولم يشر Mercier هنا إلى ما يكون قد حصل بين أبي المهاجر وبين كسيلة.

ويذهب (إ. ف.) قوتني إلى القول: "إن ابن خلدون... لم يحدد مواقع الأوربيين الأوائل (Primitif) في الأوراس، بل لا يحددها في أية جهة أخرى، فالأمر على ما يبدو قديم جدا، والدقة تقلت منه، غير أنه يستنتج من روايته للأحداث أن كسيلة وأوزبته كانت لهم ارتباطات، ليس في الأوراس وحده ولكن، مع النل الوهراني أيضا، في منطقة تلمسان وحتى في ممر (Couloir) تازة: فخلف عقبة، أبو المهاجر، أسر كسيلة في "عيون تلمسان"⁽³⁾.

ويقول Terrasse H.: "إن أبا المهاجر بعدما حطم القيروان الناشئة، قد يكون وصل في غارة، حتى تلمسان"⁽⁴⁾.

ويعرف م. طالبي "كسيلة أو كسيلة (كما يقول) على أنه من نمط ماسينيسا أو يوغرطة، ومن أبرز رموز كفاح البربر، من أجل استقلالهم. وفي سنة 55هـ/674 م، عند قدوم المولى، دينار أبي المهاجر، من

(1) Les Berbères, T.2, pp.160-161

(2) Histoire de l'établissement des Arabes, pp. 57-58

(3) Le Passé de l'Afrique du Nord, p. 268

(4) Histoire du Maroc, T 2, p.80

مصر، كوال لمقاطعة المغرب، خلفاً لعقبة بن نافع ... وكان كسيلة، بكل تأكيد، ملكاً لأوربة ... التي يغلب عليها طابع الاستقرار (Sédentaire)، وكان مركزها آنذاك، منطقة تلمسان، بومارية القديمة، وكانت أرضهم تمتد، ولاشك من غرب الأوراس إلى ويلي (Volubilis) فالى الشمال من فاس... وكانت النصرانية، وقت الاحتلال (conquête)، منتشرة بكثرة وسط هؤلاء، والواقع أن حاضرتهم (capitale) تلمسان، حسب شهادة البكري احتفظت، حتى القرن الخامس الهجري (11م)، بنصارى كثيرين، متأثرين بحضارتها القديمة⁽¹⁾ مع العلم أن ما ورد بنص البكري، في هذا المعنى، جاء فيه ما يلي: "وفيها (تلمسان) لأول آثار قديمة، وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا، ولهم بها كنيسة معمورة"⁽²⁾، ويضيف طالبي "أن صيدام أبي المهاجر بكسيلة حدث بتلمسان وأن الوالي لتجديد الذي عوض سياسة القوة بسياسة المصالحة، عرّف كيف يكون حليفاً لملك أوربة، الذي اعتنق الإسلام واستقر، بعد ذلك، مع أبي تمهاجر في تآكروان التي كان اسمها يشكّل، بأداة تصديره (son Préfixe) برنامجاً كاملاً للاتفاق (Pacte) العربي - البربري"⁽³⁾.

ويعتقد Fournel أنه من الصعب التصديق بوفاء كسيلة لإسلام عتقه بهذه الطريقة، غير أن صحابة (Apôtres) محمد يمكن أن يكونوا مرسوا عليه تمرينا لا يُقام (irrésistible) أو قد يكون هو بالأحرى نضاً أنه بالإمكان بذل كتمانٍ حاذق لمواجهة إرشادهم المسلح، فعرف كيف يستحق عطف أبي المهاجر، بكل مظاهر عقيدة راسخة، وبدون شك

(1) E.L. n^e éd., Leiden Paris 1986, T V, art Kusayla b. Lemzam, p.521.

(2) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، ص 76.

(3) Talbi, op. cit., p.521.

أيضا، بأمل الخدمات التي يمكن أن يؤديها نفوذه على البربر، وأصبح صديقا ورفيقا له، ومثل هذه المودة كانت تهوِّرا من القائد العربي: إذ أنَّ العاملين الوحيدين اللذين وصلانا، في ولاية أبي المهاجر، فيما عدا الحملة المشار إليها يُمكنان من التوقع بأن مولى مسلمة استسلم لإغراء الماكير، حديث العهد بالإسلام (néophite)، الذي قدّم له نصائح غادرة (Perfides): إن القيروان بُنييت خصوصا، لغرض إبقاء البربر على الخضوع (obéissance)، وعلى العقيدة (la foi)، وأبو المهاجر هدم جزئيا هذه المدينة وهاجرها لبناء أخرى على ميلين منها، وفي نفس الوقت، راح يهاجم الإغريق بدلا من مراقبة البربر.

ويعترف Fournel أنه لا يستطيع ضبط الحملة، التي شنها أبو المهاجر على جزيرة شريك، بدقّة، وهي الحملة التي أسند قيادتها إلى حنّس بن عبد الله الصنعاني، لكن أبا المحاسن (بن تغري بردي) يحدّدها بسنة 59هـ، ويحدد البكري موقعها ما بين سوسة وتونس، وفي سنة 59، حسب أبي المحاسن أيضا، سار أبو المهاجر إلى قرطاجة، ودار قتال بين الطرفين انتهى بعقد سلم في مقابل تسليم الجزيرة إلى المسلمين، ويستنتج نفس المؤلف، أخيرا، أنه إذا كان الأمر، كما قال المؤرخ (أبو المحاسن) بأن أبا المهاجر ذهب، بعد ذلك مباشرة، للاستيلاء على ميلّة، حيث أقام حوالي عامين، فإن هذه الأخيرة كانت، قبل ذلك، خارجة عن ملك قرطاجة (1).

ويتساءل Caudel عما إذا كان أبو المهاجر حطم القيروان أم احتفظ بها لإقامته؟ مجيبا: أن ابن الناجي ذكر أنه خرّبها ليؤسس

(1) Les Berbères, T. 2, pp 161 Sqq.

أخرى في تكرون وأن المالكي يقول لنا: إنه استقر، بعد حملة قرطاجة، في دكرور وهي مدينة بربرية في ضواحي القيروان، ويقول نفس المؤلفين، اعتماداً على روايات أخرى، إن أبا المهاجر عندما سار إلى تلمسان لم يترك بالقيروان سوى الشيوخ والنساء والأطفال، وإنه استقر بها عند عودته من الحملة، والرواية الأولى تبدو، في نظر Caudel أفضل، ما دام عقبة سيعيد بناء المدينة التي أسسها من قبل، ويمكن أن يعود خطأ الروایتين إلى كون موقع أبي المهاجر الجديد يجاور مدينة عقبة، ويسجل هذا المؤلف أنه يولي أهمية خاصة إلى صفة المدينة البربرية التي وصف بها المالكي تكرون أو دكرور⁽¹⁾. إن دينار، في نظر هذا الكاتب " لم يكلف نفسه بتأسيس مدينة أو على الأقل، تأسيس موقع عربي بإفريقية، كما فعل سابقه لكنه استقر في نقطة مسكونة، قبل ذلك، وقد تكون محصنة، وسط البربر، إنه كان يريد أن، يعتمد عليهم، في واقع الأمر، للتوسع في إفريقية، فمئذ وصوله إلى البلاد أمّتهم، وعمل على نيل وذرئيسهم الأكثر شهرة (Le plus en vue) ... كسيلة..."⁽²⁾. ويقتبس نفس المؤلف عن Fournel قوله: قد يكون سكرديد هو أمير أوربة الوحيد الذي حكم مدة ثلاث وسبعين سنة، ولم يكن كسيلة سوى خليفته، معلّقاً بأن علاقات رؤساء البربر، مع بعضهم البعض، وكذلك التواريخ المضبوطة، لانتقال السلطة بينهم، صعبة التحديد، ومستتجاً أنه إن كان سكرديد توفي فيما بين سنتي 50 و 60 هـ، فإن تقلد سلطاته إلى كسيلة يكون قد حدث، تقريباً، في الوقت الذي تولى فيه إنجاز إدارة بلادهما، ومن ثمّ يُحتمل أن يكون القائد العربي واصل، ضد

(1) Les premières invasions arabes, pp.109-110.

(2) Ibid, p. 110

أحدهما، الحملة التي بدأت ضد الآخر، وهو ما قد يُفسّر الغموض الذي وقع فيه ابن خلدون وترتيب أبي المهاجر التسامحية، تجاه رؤساء الأهالي، تتفق جيداً مع فرضية القيام بحملة ضدهم، وقد يكون جنى إرث عقبة الذي لا يبدو أنه كان ليّناً كثيراً مع هؤلاء الرؤساء، فكان يجب عليه، بالطبع، قبل بدء المفاوضات معهم، مواصلة العمليات الجارية التي لم تكن طويلة جداً، لأنها فاتت (échappe) مؤلّفين، مثل المالكي وابن الناجي اللذين اكتفيا بالقول: إن أبا المهاجر "أحسن معاملة كسيلة، وصادقة، بعدما أمّن سكان إفريقية" دون الحديث عن الحرب التي وقعت⁽¹⁾.

ويرى نفس المؤلف أن أبا المهاجر كان يتقرب من البربر لمُخَق (écraser) ما تبقى من الروم بإفريقية، وقد ذهب يبحث عن هؤلاء في قرطاجة منذ سنة 55هـ، حسب المالكي، و59، حسب أبي المحسن بن تغري بردي، الذي أورد أن الجيش العربي اصطدم بالإغريق (Grêcques) وأن المعركة لم تُحسم حتى الليل وأن الغزاة (envahisseurs) أقاموا معسكرهم على جبل يقع جنوب بولس (Boulis) الذي لا يكون سوى خطأ إملائي لكلمة تونس وتفاوضوا، بعد ذلك، مع السكان الذين تعهدوا أن يدفعوا (à Payer) لهم الجزية، إنها دائماً نفس الخطّة، (tactique)، ودائماً نفس الهجمات غير المثمرة، ضد المدن الإغريقية، وقد كلفها الأمن (paix)، هذه المرة، أكثر من العادة، لأنها لم تحصل عليه إلا في مقابل جزيرة شريك، وهي الرأس الطيب (Cap bon)، وموقعها يسيطر، في آن واحد، على الساحل الشمالي، نحو

(1) Caudel: Les Premiers invasions arabes, p. 111

قرطاجة، وعلى الساحل الجنوبي، نحو الحمامات والمهدية وسوسة، وقد تعب أبو المهاجر، بدون شك، من انتظار استسلام قرطاجة، دون فائدة، فأرسل حسين بن عبد الله إلى الجزيرة، فاستولى عليها ثم انضم إليه، بعد ذلك، وعندها قام بتقسيم الغنائم. وبسيطرته على شبه الجزيرة، حشد الأمير القوات البيزنطية واستطاع نقل تطلعاته (ses regards) إلى جهة أخرى، واستفاد من تحالفه مع أوربة للدخول في الموريطانييتين⁽¹⁾.

وفي تعليق نفس الكاتب على نقبل السيد (Fournel) للتاريخ الذي حدده المالكي لوقوع هذه الأحداث، أي سنة 55هـ، يعتقد أنه " يبدو من الصعب، في الواقع، أن يكون الأمير قد تمكن منذ سنة من استلامه الولاية (أي 55)، من قيادة حملة كانت تتطلب بعض التحضيرات، ومن جهة أخرى، فإن سنة 59 متأخرة بعض الشيء، لأن أبا المهاجر هاجم قرطاجة، بكل تأكيد، قبل زحفه على الغرب، وهكذا فعل، حسب المالكي، سنة 57... ويكفي، كما يقول، تحديد حملتي الأمير، على التوالي، ضد للروم وضد البربر المتمردين (insoumis)، في السنوات التي مرت بين سنتي 55 و 58 هـ، وفي المقابل نتمسك بحزم (fermement) بالرأي القاضي: بأن حملة قرطاجة سبقت حملة تلمسان، وفي هذه النقطة نختلف تماما مع السيد Fournel"⁽²⁾.

ويوجه Caudel انتقاده إلى كيفية تقديم Fournel لحملة دينار، حيث ذكر أن "مولى مسلمة، سار إلى تلمسان، بمجرد دخوله القيروان، وهزم كسيلة في المغرب الأقصى، وأن كسيلة اعتنق الإسلام وصار صديقا للأمير الذي استسلم لإغراء الماكر، حديث العهد بالإسلام، الذي

(1) Caudel: Op. cit., pp.111 sq. .

(2) Ibid., p.113.

زوّدَه بنصائح غادرة، وبناءً على هذه النصائح حطّم القيروان وسار إلى روم قرطاجة، وباختصار، فإن ديناراً قد يكون عديم المهارة (maladroit) ألقى بنفسه، مُطأطأ الرأس، في الحلف البربري، دون اعتبار الظروف و الرجال، وقد يكون عملاً، بسذاجة، لحساب القادة الأهالي وهذه النظرية (Théorie) تتفق تماماً مع الفكرة العميقة التي يعرضها السيد Fournel، في الجزء الأول من كتابه، وهي أن البربري يحتل دوراً متفوقاً ورئيسياً في تاريخ الاحتلال (Conquête) ومع الأسف فإن الفرضية لا تتماسك أمام الأحداث (les faits)، مثلها مثل الفكرة الأساسية نفسها، إضافة إلى أنه من الخطر، دائماً، تناول موضوع معقّد لهذه الدرجة، وغامضاً في التفاصيل كموضوعنا، مع رأي مسبق: ففي التاريخ، يكون من باب الخطأ الفادح، افتراض روح التهوّر، والأخطاء المستمرة، والعمل غير المنطقي للإنسان الذي يُنتقد. إن تقديم دينار كطائش (étourdi) لدرجة أنه راح يهاجم في عمق المغرب، قائداً بربرياً قوياً، تاركاً خلفه الرومي مستعداً للسير (Prêt à marche)، يعني جعل نجاحه على هذا وذاك، وكذلك مكوثه بإفريقية، مدة سبع سنوات، غير قابلين للشرح، ويعني جعله، فيما لا يريد السيد Fournel أن يكون، وما لا أظن أنه كان، استراتيجياً، من الطراز الأول، حجب مجده مجد عقبة وأمجاد الآخرين جميعاً، والواقع أن ديناراً كان رجلاً ماهراً (adroit)، لم يفرط في استغلال انتصاره على كسيلة، واستفاد من حيّاده المتسامح للقضاء على الروم ومن تعاونه المغرض، للمجازفة بعملية جانبية في المغرب، وفوق ذلك فإن مقطع كتاب المعالم الآتي، سيوضح لنا الظروف التي قام فيها أبو المهاجر بحملته إلى الغرب "أبو المهاجر، كما قال، أمّن بربر إفريقية بقيادة كسيلة الأوربي... ثم سار بجيشه نحو

المغرب". إن خطأ السيد Fournel يقوم، في غالب الأمر على استعداده لتحديد حملة جزيرة شريك بسنة 59هـ، اعتمادا على أبي المحاسن، لكنه قال لنا، من قبل، إنه لا يستطيع تحديد تاريخ دقيق لها، ونعرف، من جهة أخرى، أن الحجة (L'autorité) التي يعتمد عليها مشكوك في مصداقيتها بدرجة كبيرة: فأبو المحاسن هذا، باعتراف السيد Fournel الذي يصححه، يخطئ بعشرين عاما في حملة حسان الغساني، واحتمال وقوع حملة قرطاجة سنة 55، كما يحددها المالكي هو أكبر بكثير⁽¹⁾.

ويخلص هذا الكاتب إلى القول: "إن المثلثين (Les latinisants) الذين تتبعوا، خطوة خطوة، تقدّم الحملات الرومانية البطيء، في حرب يوغرطة، يندهشون، بحق، من نجاح مذهل كهذا، وهم مستعدون كثيرا للشك فيه، مع أنه ممكن جدا: فالعربي ينجح، بسرعة كبيرة، حيث يفشل الروماني، لمدة طويلة، لأن الظروف ليست هي نفسها، ومع ذلك، فإن نجاحه النسبي جدا، لا يمكن مقارنته بنهاية الحملات الرومانية المملوءة بالنتائج، فالصعود فوق الهضبة الموريطانية، واجتيازها من جهة لأخرى، يبدو سهلا جدا أو صعبا جدا، حسب الإمكانات والأعوان المتوفرين، والهدف المقصود، إذ أن مُحْتَلاً خفيف التسلّح وسريعا جدا، ونهّابا حازما، لا يريد سوى دفع اكتشاف ثم الرجوع غدا، يستطيع استئجار قبيلة أو اثنتين بربريتين ليستا أقلّ جشعا في النهب، ومعهما فهو لن يضل الطريق، وسيفشل حيل الأهالي الذين سيرغبون في اعتراض سبيله، ثم إنه، في غالب الأحيان، يلحقهما بجيشه، اقتداء (à l'exemple) بمساعديه، وتذهب كل العصابة (bande) لتتقوّض على المقاطعة المأهولة

(1) Les premières invasions arabes, p. 113 S q.

والمزدهرة (prospère)، وبانتهاء الحملة يقسم النهب (prise)، وينتفع به كل طرف، وقد كان البربري، قبل ذلك، يتسكع (rodait) منذ أمد طويل، حول الأسوار الإغريقية المهدمة (démantelés) لكنه لم يكن يجرؤ ولا يعرف مهاجمتها، إذ كان عديم المهارة (trop maladroit) حتى يتمكن من تنظيم حملة جدية، وكثير التردد لكي يقودها بحيوية وأمان، وكثير الحذر من جاره كي يستخدمه في عملية مشتركة، على نطاق واسع، حتى تكون الفوائد أكبر من المخاطر، ولكن هاهو العربي يأتي بالذهن المتوقد (agile) واليد الطويلة، له روح مغامرة وجراءة في مستوى طموحاته وهو، أساسا، لا يساوي أفضل من البربري، فالاثنتان متصوران جوعا (faméliques) ومتوحشان (hommes de proie) لكن أحدهما ضئع والآخر أسد، والعربي سلاب على درجة رفيعة، يُعدّ عملياته بدقة، وينفذها بجراءة وثوق (confiante) وطيش هادئ، والسعادة الوقحة للرجل الذي يعرف هذا والذي نجح فيه دائما، يستطيع مع البربري، جمع غنيمة كثيرة، في غارة واحدة، وهو لا يفعل سوى ذلك، وسيعود فيما بعد، وهذا سبب ما جعل رواية مؤرخينا، عن زحف أبي المهاجر على تلمسان، تقتصر على خمسة أسطر، ليس لهم ما يقولون أكثر من ذلك⁽¹⁾.

وفي محاولته استنباط سياسة أبي المهاجر، يسجل نفس المؤلف النباهة التي كانت له في استمالة البربر، وأن كل سياسته الإفريقية كانت تعتمد على التحالف معهم، ثم يستطرد قائلا : إن مصطلح السياسة طموح جدًا، وكلمة التحالف دقيقة جدًا، لإثبات (démontrer) هذه الأحداث

(1) Les premières invasions arabes, pp. 115- 116.

(faits)، وأبو المهاجر لم تكن له سياسة دقيقة، كان له هدف نعرفه جيّداً، ولبلوغه كان يستخدم وسائل يعتقد أنها أفضل: كان يريد النهب، ومَرَكُود مزاق بدأ ينفذ، فَكَانَ ينبغي الذهاب بعيداً، و الصعود فوق الهضبة، لكنه كان يجهل الطرق، وكان يسمع عن قبائل قوية ومواقع محصنة جداً، وكانت المخاطرة في هذه النواحي مغامرة كبرى، ولم يكن أتى للقيام بمغامرات⁽¹⁾.

ويقتبس. Marçais G من ابن أبي الدينار قوله: " إن أبا المهاجر ناقض كل ما فعله عقبه" مضيفاً: أنه حاول، على ما يبدو، إتباع سياسة مصالحة مع البربر، لم تكن على غرار سياسة سابقه المنذفع (fougueux)، وأنه استطاع، أن يُحوّل كسيلة ، بعدما هزمه قرب تلمسان، من العقيدة المسيحية إلى الإسلام، وجعل منه حليفاً وصديقاً ويلاحظ أخيراً، أن الانتصار حدث بالقرب من تلمسان، وأن العرب لم يكونوا تقدموا إلى هذا الحدّ من بلاد البربر، قبل ذلك⁽²⁾.

ويذكر ش.أ. جوليان، في هذا الصدد، أن أبا المهاجر يبدو أنه قد تفاوض مع رؤساء القبائل (البربرية) للحصول على دعمهم ضد البيزنطيين، وعلى العموم فإن سياسة أبي المهاجر الأقل لمعاناً من سياسة عقبه، يظهر أنها كانت مثمرة أكثر.⁽³⁾

- ولاية عقبه بن نافع الثانية على بلاد المغرب:

حاول Fournel تسليط الضوء على نشاط عقبه في فترة ما بين تاريخ عزله سنة 55هـ وتاريخ إعادته، على رأسها سنة 62هـ، فذكر

(1) Caudel, op cit, pp.121-122.

(2) La Berbérie Musulmane, pp. 31- 32.

(3) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2,p.16.

أنه: "لم يتوقف، منذ استدعائه من إفريقية، عن الاحتجاج على عمل كان يبدو له بمثابة انتزاع مُلك، جعلته خدمات جليلة حقا له" وأن "إفريقية، بالنسبة إليه هي لَحْمُه ودمُه، وكان يُعتبر إخلاء القيروان وتحطيمها الجزئي إهانةً له، لدرجة أفقدته كلَّ اللَّيَاقَةِ (retenue)، فراح يوبخ (apostrophé) معاوية بن أبي سفيان بعبارات حادة جدا (très vifs)" وبقي الأمر معلقا إلى أن مات معاوية وتولى ابنه يزيد، في أول رجب سنة 60 هـ/ السبت 7 ابريل 680م، "فسارع لاستغلال فرصة (profiter) تراتيب الرِّفق (dispositions bienveillantes) وهي بمثابة بشائر حُكم جديد، لتكرار طلباته المُلحّة، غير أن يزيد لا يَظهر أنه كان، أكثر من أبيه، مستعدا لارتكاب هذا النوع من الإساءة في حق مُستلمة الذي كان المانع الحقيقي، بطبيعة الحال، ويذكرُ النويري أن عقبة، عندما عاد إلى إفريقية، مرَّ بالفسطاط والتقى بمسلمة بن مخلد الذي قابله وهو راكب على فرسه، وقَمَّ له اعتذاراته، فقبلها ببرودة (froideur) (recues) ويُعلق Fournel على هذا الخبر بقوله: إنه "قليل الاستعداد لتصديق هذا الهجوم (assaut) من الحماقات (malasresses)" لكنه يرى "أن مسلمة تُوفي في 25 رجب سنة 62هـ، وهذه الصدفة، مع إعادة عقبة (إلى منصبه)، تجعل تسليم الخليفة، بِالْحاحات مطالب المُنابر الذي يُنشد الإنصاف، محتملا جدا، والأكيد، على الأقل، أن المؤرخين العرب يُجمعون بأن ولاية عقبة السعيد (heureux) الثانية على إفريقية كانت سنة 62هـ، وتاريخ هذه الإعادة (réparation) لم يضبط ولكن يُفترض أن الأمير الجديد، وهو يمر بالفسطاط، ألقى التحية على والي

مصر، وقد يكون حضر أمام سعيد بن يزيد بن عقبة الذي دُعي لاستخلاف مسلمة، واستلم مهامه في بداية رمضان 62هـ⁽¹⁾.

ويذهب Caudel إلى القول: "إن عقبة عندما نُفي من إفريقية، لم يستقر ببرقة لكنه سافر إلى بلاد الشام (Syrie) يطلب الإنصاف من الخليفة، وعندما وصل إلى دمشق كان معاوية قد توفي (مما يدل على أنه لم يصل إليها إلا سنة 60هـ) وكان يزيد يتولى الخلافة فنجح الأمير المخلوع في إسماعه شكواه فأحسن استقباله، ثم أسند إليه قيادة جيش وأعادته إلى إفريقية ... وقد صادفت هذه العودة وفاة مسلمة بن مخلد، والي مصر وحامي دينار أبي المهاجر، وقد أشار السيد Fournel إلى احتمال وقوع هذا الحدث لكنه لم يجد مؤلفا يؤكد له ذلك، و المالكي يقول لنا بوضوح أن سعيد بن زيد (zeid)، خليفة مسلمة هو الذي أرسل عقبة ابن نافع إلى إفريقية، وهذه الرواية تتفق جيدا مع رواية أخرى لنفس المؤلف، وتقدم لنا إعادة عقبة إلى منصبه من قبل الخليفة، والواقع أن والي إفريقية كان تابعا لوالي مصر وبالتالي يمكن اعتبار أنه أرسل من قبله⁽²⁾.

وبالنسبة لطالبي فإن "وفاة الخليفة معاوية أدت إلى تغيير في السياسة، وفي عام 62هـ / 681م عاد عقبة إلى إفريقية، ولم يكن يحلم إلا بالانتقام وبالجهد الأكبر (le grand djihad)، وقد استؤنفت معه سياسة إخضاع البربر بالقوة على أشدها"⁽³⁾.

وبعد إعادة عقبة إلى ولايته، انطلق على رأس عشره آلاف مقاتل، فوصل إلى القيروان وقد يكون، حسب المالكي، استولى في طريقه، على قصّة وقسطيلية، وهو ما يبدو غريبا ويعطى فكرة شاذة (singulière)

(1) Les Berbères, T,2, pp.164-165.

(2) Les premières invasions arabes, P. 117.

(3) E.I, n^{elle} éd., Leiden,- Paris 1986,T.5, art. Kusayla b. Lemzam, p. 525.

عن سلطة (autorité) أبي المهاجر وتكتيكه، إلا أننا رأينا مؤلف رياض النفوس يَخلط بين حملتي عقبة، فالتفاصيل الموجودة في كتابه، والتي يُحدّد تاريخها بسنة 57هـ هي نفسها تفاصيل حملة ابن نافع الأولى، وتحديد تاريخ الثانية بـ 62هـ مُؤكد ... والإشارة إلى قصطيلية وقفصة، كمرحلة، مفيدة على أية حال، لأنها تُبين لنا الطريق التي قد تكون اتبعتها، عادة، الغارات (invasions)، إذ تسمح لنا كثرة تكرار إسمي هذين الموقعين، في روايات الحملات، أن نستنتج بأنهما يُكوّنان مرحلتين مألوفتين لجيش الإسلام. فلم ينشغل الغزاة باتباع الساحل حيث كانت حصون كثيرة محمية بما فيه الكفاية، بل كانوا يفضلون المرور بالداخل حيث كانت شبكة المواقع المحصنة أكثر ضعفا، وحيث كان بالإمكان تغريم البادية (Campagne) غير المحمية ... لأن الطريق كان معبّدا (tracée)، وكان الأهم بالنسبة إليهم تحريك أغلب جيشهم عبر نقاط مياه معروفة مسبقا، غير أن الحقول كانت تُفرّغ (se vidaient) من سكانها والغنيمة أصبحت نادرة فيها، أو منعدمة، وعندئذ استهدفوا المدن وتحولوا إلى الساحل، وهكذا استولوا أو حاولوا الاستيلاء على سوسة وبنزرت وقرطاجة، على التوالي، وكانت القيروان تقع على ذلك الطريق الذي يتوسط (médiane)، البحر والسهل المرتفع، وتلك كانت إحدى مميزات موقعها⁽¹⁾.

ويقتصر إيليفي بروفنسال على القول: "إن عقبة، عند عودته إلى المشرق، (بعد العزل) يكون قد شكّا الخليفة معاوية من الطريقة التي عامله بها والي مصر..."⁽²⁾.

(1) Caudel : op.cit., p. 117 Sq

(2) E.I, n^o 16, éd, Leiden,- Paris 1986,T.III,art. okba b. Nafi'a, pp1040-1041.

وفي اعتقاد Caudel فإن حملة عقبة، هذه المرة، "ربما كانت... موجهة ضد (أبي المهاجر) أكثر مما كانت موجهة ضد الأهالي وروم إفريقية، وأنه إذا كان هناك صراع بين القائدين العربيين فهو لم يكن طويلا لأن المصادر، دون أن تقول لنا أي شيء، تبرز أبا المهاجر في قبضة غريمه، حيناً...⁽¹⁾.

والملاحظ أن Caudel لم يستخدم نفس الأسلوب الذي استخدمه Fournel في علاجه للموضع إلا أنه لم يكن دائماً دقيقاً في اختيار كلماته والتعبير عن أفكاره: فاستخدام فعل نُفِيَ للتعبير عن خروج عقبة من إفريقية إلى بلاد الشام، مثلاً، ليس في محله، والقول: إنه وصل إلى دمشق، بعد وفاة الخليفة معاوية، يحتاج إلى إقامة الحجة، مثل التي طالب بها سلفه Fournel ، عندما تحدث عن وفاة مسلمة وتعويضه بسعيد بن يزيد بن علقمه. ثم إن Caudel لم يقدم، بدوره، أي دليل على ما ذهب إليه من القول: بأن الغزاة أي الفاتحين، تفادوا طريق الساحل بسبب كثرة الحصون المحمية فيه، وفضلوا المرور بالداخل، لضعف شبكة المواقع المحصنة، مما كان يسمح لهم بتغريم الأرياف غير المحمية، ولم يتحولوا إلى الساحل إلا بعد استنزاف الداخل من الغنائم، وفي هذا الإطار حاولوا الاستيلاء على سوسة وبنزرت وقرطاجة. وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الكلام، إذا أريد به ألا يبقى مجرد كلام في مهب الريح، بل يصبح تاريخاً موثقاً به، يحتاج إلى تقديم حجة تاريخية، أي إلى توثيق من مصادر موثوق بها وإلى استنتاجات منطقية.

(1) Les premières invasions arabes, p.119

وقد وصل عقبة القيروان، حسب Fournel، "مليناً بالغضب الذي كان يغلي في قلبه، طيلة سبع سنوات من الإخفاقات المهيئة، ولم يكن يتنفس سوى الثأر ... غير أن أبا المهاجر كان قد جعل راية الرسول (صلعم) تخفق فوق جدران تلمسان وسيكون له، إذًا، فخر حمل الأسلحة العربية إلى أبعد ما يمكن نحو الغرب..."⁽¹⁾ ويستنتج المؤلف الأخير من التاريخ التقريبي لترميم القيروان، ومن العناية التي خصصها عقبة لذلك الترميم، عند الوصول إلى إفريقية، أن تاريخ انطلاق حملته على النواحي الغربية من بلاد المغرب لا يمكن تحديده قبل بداية عام 63هـ⁽²⁾.

وقد سجل طالبي أن "أول ما قام به عقبة في القيروان هو تقييد أبي المهاجر بالحديد وإلقاء كسيطة في السجن ثم أعاد إلى العاصمة اسمها القديم والموقع الذي اختاره لها في ولايته الأولى"⁽³⁾.

ولم تكن عملية "الترميم" المشار إليها هنا أو عملية "إعادة بناء القيروان" كما يرى Caudel، كلفتة، "عناء كبيراً، لأن العرب مهما قيل عنهم، ليسوا مدمرين قساة (farouches) وحتى لو أن أبا المهاجر غادر المدينة، وهذا ليس مؤكداً، ... لا يكون قد فرض على جنوده، ما لم يقبلوه إلا بصعوبة، أي هذه المهمة العقيمة لتحطيم الجدران، لأن تحطيم مدينة بالنسبة لهؤلاء الناس هو مغادرتها، وتفريغها من الأشياء التي يسهل حملها، وترك مهمة التحطيم إلى الزمن. وهذا نفس ما يكون عقبة قد فعله بتكرار"⁽⁴⁾ ويستنتج نفس المؤلف من قول ابن الناجي: "إن عقبة نقل إليها

(1) Les Berbères, T.2, P116 .

(2) Id.

(3) E I, n^{elle} éd., Leiden,- Paris 1986, T.III, art. kussayla b. Lemzam, p. 521.

(4) Les premières invasions arabes, P.119

(القيروان) الناس لتعميرها "أنه نقل إليها الأهالي (indigènes) من المناطق المجاورة وقد يكون جعل منها ملجأ واستقبل فيها سكان البلاد الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً أو الذين كان يأمل أن يعتنقوه"⁽¹⁾ كما يرى أن سكان مَزاق المهجورة جزئياً، كانوا عبارة عن هَجِين من الناس يُشكّله أحفاد العائلات الرومانية، والبربر الخاضعون، منذ مدة طويلة، إلى الحياة الحضرية: يمارسون الزراعة والحرف الصغيرة والتجارة المحدودة، وهي مفيدة جداً للقبائل المحاربة التي لا يحب رجالها العمل اليدوي، لكنهم في حاجة دائمة إلى تلك المنتجات، ويحتاجون (réclament) أيضاً للتجار (mercanti) الذين يشترون منهم الغنيمة ويبيعونهم مكملات (suppléments) الطعام أو السلاح، وكان العرب كذلك، في حاجة إلى هؤلاء الناس الصغار لنفس الأسباب، وبإسكانهم المدينة فإن عقبة قدم خزمة لرجالها وأخرى وإلى للأهالي، في آن واحد⁽²⁾.

ويسجل Caudel أن عقبة، عندما عاد إلى إفريقية وجد خصمه (rival) متقدماً كثيراً، في ارتباطه بسياسة تحالف بربري، بلا مبالاة نينية، وكان عقبة قائداً عربياً، له غطرسة العرق وحماس العقيدة، اللتان تَصان دیناراً، وكان له على هذا الأخير وعلى عمله (œuvre) حقد قس (trempee): نفس القدر من الأسباب للقيام بنقيض كل ما أنجزه موني مسلمة أو فكر فيه، فبدأ بوضع كُسيلة في السجن، وعامله بقسوة كخيرة، وفي آن واحد، نفّر قبيلة أُرْبّة وجعل غيرها من القبائل في موقع الحذر ثم قام بحملة، باشر فيها احتلال الهضبة التي كان دينار اجتازها بجرعة فيما بين 55 و 57هـ. ولم تنبّ الظروف كما كانت، في حين أن

(1) Caudel: Op. cit., p. 120.

(2) Id.

جراً عقبة صارت أكبر بكثير من جرأة أبي المهاجر، ولم يستطع الأول أن يعتمد، هذه المرة، سوى على قواته وحدها، وكانت تكفي فقط لدحر الرومي، الذي بقي قويا، وللسيطرة على البربري المناوئ. وقد عامل أبا المهاجر أسوأ مما تعرض له هو نفسه، والواقع أن نكبة دينار كانت كاملة، فَمَيَمَت سيدة (Patron) مَسْلَمَة بن مخلد، لم يعد له حام، وبقي تحت رحمة عقبة المطلقة⁽¹⁾.

ويحاول Caudel M. المقارنة بين شخصية الأميرين العربيين، انطلاقاً من نص المالكي الذي نَصَح فيه أبو المهاجر عقبة بعدم غزو طنجة، فاستخلص منه أن سياستي الأميرين تظهران هنا بوضوح: فدينار، في اعتقاده، هو رجل ماهر، يستفيد من الظروف ولا يطلب منها أكثر مما تستطيع إعطائه، وهو منشغل باحتواء البلاد كي يستغلها أحسن استغلال، ويَصُون (ménage) القوى التي نستطيع مساندته، ويبحث عن تنظيم نوع من الحماية التقريبية (grossière) على الأهالي، في المنطقة، تُشتمّ فيه رائحة المرونة الفكرية و لياقة إدراك الإنسان المصري، الخصب في الموارد، ورائحة رجل من أصل ضيع، لم ينجح إلا بفضل براعته الكبيرة؛ أما عقبة فهو قائد عربي يعمل للقضية الإسلامية، ولا يريد أن يكون الفضل في نجاح مشاريعه إلاّ له، هو نفسه ولذويه، وهو يحتقر الذين ليسوا من جنسه، وإن استخدمهم فكأعوان مُزدرين، زيادة على كونه لم يستعملهم، على ما يبدو، عن طيب خاطر، بدليل موقفه من كُسَيْلَة الذي كان دائماً خَلْفَ الجيش، دون أن تَقُوت عقبة فرصة لإشعاره أن الدم الذي يجري في عروقهما ليس واحداً، وقد تمّ الادعاء

(1) Les premières invasions arabes, P.125.

(on prétend) أنه وصل به الحد إلى معاملته، ذات يوم، كآخر السجاء، عندما أمره بذبح شاة وسلخها أمامه، وتدخل أبو المهاجر، مرة أخرى، في محاولة تفادي هذه الإهانة القصوى لمُساعدِه القديم، وقد يكون كسيلة نفذ الأمر، ونذر (voua) في ذلك اليوم، إلى عقبة وجنسه، حقدا يتعذر إخماده⁽¹⁾.

ويتابع. Fournel H حملة عقبة على النواحي الغربية من بلاد المغرب، منذ انطلاقها قبل بداية عام 63هـ، فيقتبس ما أورده البكري من معلومات عما دار بينه وبين الروم و البربر من قتال، هزَمَهُم فيه، ثم مُضِيَهُ في سبيله دون التوقف لحصارهم عندما تحصنوا بباغاية⁽²⁾؛ وهي مدينة يحدد Caudel موقعها بين كتلة الأوراس وغرارة الطرف، ويبدو نه أنها كانت مهجورة منذ القرن السادس الميلادي، وقد يكون سكان الإقليم (canton) راحوا يبحثون فيها عن ملجأ مؤقت، وراء ما تبقى من جدرانها المرممة بسرعة، والأمر لا يتطلب أكثر من ذلك لتحطيم اندفاع الجيش العربي الذي ينتصر عادة في أرض مكشوفة، ويبقى عاجزا أمام أصغر التحصينات، ويبتعد بمجرد فقدان أمل استسلام العدو بفعل المجاعة أو الخضوع للتهديد⁽³⁾. وكالعادة فإن هذا الكاتب لم يؤكد كلامه بحجة مقبولة منطقيا.

ومن باغاية انتقل عقبة مباشرة "إلى Lambaesa، وهي حسب Fournel مدينة رومانية هامة، خاض العرب على أطرافها معركة شاقة (rude) ما دام المسلمون ظنوا للحظة، حسب النويري، أنهم سيَنَالُون⁽⁴⁾

(1) Les premières invasions arabes, Pp.123-124

(2) Ibid., p.128.

(3) Les Berbères, T.2, P.166.

(4) Les Berbères, T.2, P.167

وفي رأي Caudel أن المدافعين عنها انسحبوا، بعد محاولة دفاعية في الأرض المفتوحة، إلى الموقع وقاوموا فيه بنجاح⁽¹⁾. والملاحظ أن المؤرخين الفرنسيين يُحاولان هنا إثبات شدة مقاومة الروم والبربر للزحف العربي على المنطقة.

وفي مواصلة Fournel لاقتفاء آثار زحف عقبة، يذكر أنه هبط من لميس إلى الزاب وتقدم نحو أربة، التي قيل له أنها حاضره هذا الإقليم، فاستولى عليها" في مقابل دفعه ثمنا باهظا لأن العرب هنا أيضا، حسب نفس الشهادة (شهادة النويري) فقدوا كل أمل في الانتصار عندما نصرهم الله، وقد واصل عقبة زحفه إلى أن توقف تحت أسوار تاهرت دون أن يترك حاميات، ودون أن يشغل نفسه بالمقاومات (résistances) التي اعترضته في النقاط الثلاثة حيث قاتل"⁽²⁾.

ويتوقف Fournel عند تاهرت ليبيدي تفهّمه لاتحاد البربر والروم للدفاع المشترك، في باغاية التي بقي فيها الشّعبان (Les deux peuples) يعيشان، ولا شك، متصلين ببعضهما لكنه، كما يقول، لا يستطيع تفسير مقطع ابن الأثير هذا الذي نقله النويري هكذا: "توجه عقبة إلى تاهرت ولما علم الروم (Les grecs) بنواياه (son dessein) استنجبوا بالبربر فأنجدوهم" ويرجع هذا المؤلف عدم استطاعته تفسير هذا المقطع إلى كون تاهرت تبعد بمسافة طويلة جدا عن الممتلكات التي بقيت آنذاك بأيدي الإغريق، والعكس هو الذي كان ينبغي أن يحصل، ويرى أن ما قاله ابن خلدون، بعقلانية أكبر، ومفاده أن "عقبة تحدى، في هذه الحملة، أمراء البربر الذين حاربوه في الزاب وتاهرت، بدعم من الفرنجة

(1) Les premières invasions arabes, P.125

(2) Les Berbères, T.2, P.167

"يعني أن الإغريق تحققوا، بطبيعة الحال، من مدى المصلحة القوية لهم في إيقاف زحف هذا الوباء الذي لا يستطيع مدّ دماره نحو الغرب إلا لينقل (s'appesantir) على كاهلهم، أثناء عودته، فبعثوا للبربر تاهرت، حامياً لمساعدتهم في الدفاع عن هذا الموقع لكن الجيشين تكبدا هزيمة دامية، وزحف المنتصرون على طنجة، دون أن ينشغلوا بالمدن التي تركوها خلفهم، ويضيف النويري كما يقول Fournel أن الروم غادروا تاهرت، في حين لم تكن لدى عقبة وسائل للحصار، ولم يكن يُفكر في إنشائها (à les créer) ما دام واصل زحفه نحو الغرب، فكان بإمكان الروم، إذا، البقاء بالمدينة، في أمان تام، ويؤكد انسحابهم، لغير ضرورة من المدينة، فكرة تواجههم المؤقت هناك كمساعدين، ولم يكونوا في موقع من ممتلكاتهم⁽¹⁾.

ويتوقف Caudel عند انشغال Fournel بهذا الموضوع، ملاحظاً أن هذا الأخير الذي تساءل عن الصفة التي وُجد فيها الروم بعينين جدا عن ممتلكاتهم الإفريقية آنذاك، أجاب بسرعة، جاعلاً منهم، في تلك الظروف، مساعدين (Auxiliaires) للبربر، وحُدّهم الخطر المشترك، الوشيك بأعدائهم القدماء، إنه التفسير الوحيد الذي يمكن إعطاءه للحدث، وهذا في رأيه يتفق تماماً مع الروايات العربية التي تُبين دائماً البربر والروم، وهم يتشاورون، ويتبادلون الرسائل ويوقعون المعاهدات، قبل القيام بعمل ضد العربي⁽²⁾.

ويذكر E. Mercier مرةً أن عقبة، عندما تحصل من جديد على ولاية إفريقية سنة 681 م، "جمع أفضل مقاتليه وجرّهم إلى غزو (Conquête) المغرب، وأقسم لهم أنه سيقاقل حتى لا يبقى أمامه كفار،

(1) Fournel: op.cit., p. 167.Sq

(2) Les premières invasions arabes, P.127

وتقدم غربا، وبعد محاولته الفاشلة في إخضاع بعض قلاع الأوراس، حيث تحصّن أواخر البيزنطيين، تابع سيره ... متقبّيا خضوع البربر واعتناقهم الإسلام في كل مكان، وأخيرا وصل إلى طنجة ..⁽¹⁾. واللافت هنا أن طرح Mercier يختلف تماما عن طرح كل من Fournel و Claudel: فبالنسبة إليه فإنّ الذين قاوموا عقبة هم البيزنطيون الذين صمدوا في قلاعهم، أمّا البربر فإنهم خضعوا له واعتنقوا الإسلام، في كل مكان مرّ به، وهذا كلام غير مبرّر تاريخيا أيضا، كسابقه تماما. ويُنكر، مرة أخرى، أن ذلك القائد "قام بحملته الكبرى، مرورا بالزاب، حيث حاول عبثا الاستيلاء على آخر القلاع البيزنطية، ثم تابع خط النجود، وتصادم مع تجمّعات كبيرة من الأهالي، قرب تيهرت (تاهرت) فحذرهم وانتهى إلى سبتة"⁽²⁾.

يذهب (E. F.) Gautier إلى القول: "إنّ عقبة عندما اقترب من الأوراس وجد الروم والسكان لاجئين في مدينتي: باغاية (Bagai) ولميسة (Lambèse) المتحصنتين، وبعد مناوشات قليلة، ليست دائما سعيدة، واصل طريقه، في اتجاه الغرب، إلى تاهرت (Tiaret) تقريبا، حيث خاض معركة "ضد الروم الذين أخطروا باقترابه، وتلقوا نجدة البربر... ولم يستطع الروم والبربر هزيمة المسلمين"⁽³⁾ وبالنسبة لهذا الجغرافي المؤرخ، فإنّ مَنْ كانوا بداخل قلعتي: باغاية ولميس، هم الروم الذين تلقوا نجدة البربر، وهذا رأي مخالف لما ذهب إليه كل من Fournel و Claudel، مما يدلّ على عدم توظيف الوثائق المتاحة بأمانة، كما يتطلبه المنهج التاريخي. وقد أطلق Terrasse على هذه

(1) Histoire de l'établissement des arabes, p.58..

(2) Sidi Okba , ses expéditions dans l'extrême,Sud,p .326 .

(3) le passé de l'Afrique du nord, pp. 272- 273

الحملة تسمية "ملحمة" (épopée) عقبة " وكان انطلاقها، بعدما رجع صاحبها إلى منصبه، حوالي 683م وأعاد (relvé) بناء عاصمته، ففعل ذلك على نطاق واسع (de grand style)، نحو الغرب وليس نحو الشمال حيث كان البيزنطيون يمسكون، دائما البلاد. والرواية التقليدية لهذه الملحمة تتضمن تفاصيل، لا توجد في أقدم المصادر، وهي في أغلب الأحيان محل شك، "فقد انتصر، شمال الأوراس، على جيش بيزنطي وبربري، في باغاية، باغاي القديمة، وتخلي عن الطريق الشمالي ليتوغل في النجود فاجتازها دون أن ينشغل بالمدن التي ترك خلفه حتى تاهرت (Tiaret) حيث حقق نصرا جديدا (ثم) وصل إلى سبتة، دون أن نعرف عن أي طريق فعل ذلك" (1).

وفي نفس السياق ذهب (ش. أ.) جوليان، قائلا: "إن عقبة بعدما أعيد إلى منصب القيادة العليا بإفريقية، سنة 681م،" قام مباشرة بحملة على نطاق واسع في المغرب، يكون من باب التهور ضمان حقيقتها، ولإشباع انتقامه كان يجر خلفه، أبا المهاجر وكسيلة مقيدين، ويقال إنه لم يقصر في إهانة القائد البربري الذي جعله يدفع الثمن غاليا، ولم يحاول محاصرة مواقع شمال الأوراس المحصنة، وبعدها اصطدم بجيوش نلأهالي مدعومة بعناصر إفريقية - رومية - قرب باغاي (باغاية) ولأمنيز (الميس) ثم في تيارت (تاهرت)، انطلق مباشرة إلى طنجة (2).

ويختصر الجنرال بريمون الحديث عن هذه الحملة قبل وصولها إلى سبتة في سطرين، جاء فيهما أن "سيدي عقبة عاد إلى إفريقية سنة 682م وجابها (qu'il parcourt)، دون أن يستولي على أية مدينة،

(1) Histoire du Maroc, T.1, pp.80-81.

(2) histoire de l'Afrique de Nord, T.2, p.17.

وكانت له هذه المرة بعض الصدمات مع البربر⁽¹⁾ كما يكتفي إيلفي بروفانسال بنقل مضمون رواية لابن خلدون، مفادها: " أن عقبة (في تلك الحملة) كان مسبقا بمقدمة على رأسها زهير بن قيس البلوي، وتقدم من القيروان نحو المغرب الأوسط، وتقابل (rencontra)، أولاً في الزاب ثم في تاهرت، بعناصر بربرية وبيزنطية، فهزمها ..."⁽²⁾.

ويتحدث Fournel H. عن وصول عقبة إلى سبتة (Ceuta)، وهي كما يقول، المدينة الوحيدة التي كانت خاضعة للبيزنطيين، في هذا الجزء البعيد، من المغرب، وعندها رأى القومس(julien (Comte (إليان عند العرب) يتقدم إليه بأدب⁽³⁾ وإليان هذا هو الذي يطلق عليه راهب سيلوس (Le moine de Silos) تسمية (Julianus comes)، وقد لعب، بعد ثلاثين عاما من ذلك التاريخ، دورا اعتبره Masdeu من باب خيال القصاصيين العرب، ووصل الأمر إلى حد نكران وجود الكونت يوليان (Comte Julien)، ومنذ 1839 أعلن السيد Romey معارضته لهذا الرأي الذي فتنه السيد Dozy سنة 1860، بجدارة (victorieusement) في مقال علمي أثبت فيه أن إيزدور الباجي (منتصف القرن الثامن) سبق وأن عين الحاكم الصغير الذي يدعى (soi-disant)، أن المؤلفين العرب هم أول من أشاروا إليه، وفيما يخص مغامرة ابنة الكونت يوليان التي جرت في بداية القرن الثامن: إذا كان راهب سيلوس (le moine de Silos) هو أول كاتب إسباني تحدث عنها، فإن ابن عبد الحكم سبق وأن أشار إليها، حوالي منتصف القرن

(1) Berbères et Arabes , p. 182.

(2) Provençal E. lévi, op. cit.,P.1040.

(3) Les Berbères , T.2, P.169.

التاسع الميلادي، وقد أكد روايته صاحب كتاب أخبار مجموعة الذي حُرر في منتصف القرن الحادي عشر⁽¹⁾.

وقد كان Julien هذا واليا لقسطنطين الرابع، ويسميه النويري، نقلا عن ابن الأثير، صاحب الجزيرة الخضراء (-Seigneur d'El-Djezirat el -Khadra)، سبتة وأماكن أخرى، وصاحب طنجة (seigneur de Tanger)، ويسميه ابن خلدون خطأ (prince) غمارة وصاحب (seigneur) طنجة، ومن المؤكد أنه كان واليا لسبتة، وأن سلطته كانت تمتد على الأراضي المجاورة التي تسيطر عليها غمارة، وعندما وصل عقبة أمامه خرج إليه، حسب البكري، بهدية قيمة فأمنه وأبقاه في منصبه، ومن هناك سار القائد العربي إلى طنجة التي دافع عنها البربر بحزم، والبكري هو الذي يقول لنا، مرة أخرى، إن عقبة استولى على المدينة غنوة، وأبقى سكانها من الذكور وسبى الباقي، وكانت هذه المدينة ستحترم لو أنها كانت تابعة للقومس (comte) الذي لم يكتف بخضوعه، لكنه أظهر استعجاله لتزويد عقبة بالمعلومات التي طُلبت منه، عن أوضاع البلاد وعن السكان المطلوب إخضاعهم، وكان مستعجلا في ذلك لدرجة أن ابن خلدون ذهب إلى حد زعمه أن عقبة استخدمه دليلا في حملته جنوب طنجة، وبطبيعة الحال، فإن السوالي للحاظق المجامل، ذلك بنصائحه فقط وهي تهدف، على الخصوص، إلى إيعاده عنه، بإيقاظ رغبة الزحف على البربر في نفسه، فقدم له، عنهم، صورة قادرة على إشعال حمية المسلم المتعصب⁽²⁾.

(1) les berberes, T.2, p.169 , note 2.

(2) Fournel, Op. cit., T.2, p.169 sq.

ويعتبر Mercier E. القومس يوليان واليا لقوط إسبانيا في موقع سبتة، ويختصر كلامه عنه بقوله: "وكان له لقاء سلمي، مع عقبة، زوده فيه بمعلومات عن داخل المغرب الأقصى"⁽¹⁾.

ويصفه Gautier (E. F.) بحليف عقبة الجديد ويقول: إن هذا الأخير طلب منه إرشاده إلى رؤساء الروم والبربر⁽²⁾.

ويقول Terrasse H.: إن عقبة عندما وصل سبتة "تقدم إليه فيها أو في ضواحيها" البطريق" يليان الذي كان يحكم ساحل المضيق الإفريقي لحساب الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع، وكان يليان، ولا شك، قائدا محليا عينته بيزنطة، فقدّم إلى عقبة هدايا ثمينة ومعلومات عن إسبانيا القريبة جدا والمحروسة كثيرا وكذلك عن البربر، فاستحق، بهداياه ومساعيه الحميدة، البقاء في منصبه لحساب الخليفة، وقاومت طنجة فأخذت عنوة، وقُتل رجالها وأخذ غيرهم أسرى⁽³⁾.

وبالنسبة لـ (ش. أ.) جوليان فإن عقبة ذهب من تاهرت مباشرة إلى طنجة وإن المصادر العربية تذكر أن البطريق Julien (إيليان-يوليان) بدلا من أن يحاربه استقبله بهدايا ثمينة، فسأله عقبة عن قوط اسبانيا والروم وبربر المغرب، وبناءا على المعلومات التي زوده بها دخل السوس⁽⁴⁾.

وقد قام عقبة في جولته (randonnée) الثانية هذه إلى المغرب، حسب الجنرال Brémond، "بزيارة تشريفاتية جدا (très protocolairement) إلى الكونت يليان الذي كان يحكم سبتة

(1) Histoire de l'établissement des arabes, p.58

(2) le passé de l'Afrique du nord, p. 273

(3) Histoire du Maroc ,T.I,p.81

(4) Histoire de l'Afrique de Nord, T.2, P. 17

والمدن القوطية (goths) الأخرى بساحل طنجة⁽¹⁾، وكان القوط قد عبّروا مضيق Calpé سنة 620، أي ستين سنة قبل ذلك⁽²⁾ وربما بقيت بها حاميات بيزنطية، حسب دوزي⁽³⁾.

ويعتبر إلفي بروفنسال يوليان رئيسا لغمارة ويقول: إنه خضع للرئيس العربي (عقبة) وصار مستشاره العسكري، فصرفه عن اجتياز مضيق جبل طارق للقيام باحتلال اسبانيا، ولله على الخطر الذي تمثله، على الجيش العربي، القبائل البربرية التي ليس لها دين، في الأطلس الكبير وفي السوس⁽⁴⁾.

ويفضل Caudel M. إحالة قارنه، في موضوع حملة المغرب الأقصى على ما ذكره السيد Fournel الذي عرف حسب رأيه، كيف يستغل جيدا المصادر العربية (les auteurs arabes) والذي يقدم عن تلك الحملة ملخصا، ليس له ما يضيفه إليه لكنه "يشير فقط" في تلك الحملة كما في غيرها، إلى الغارات (excursions) السريعة للفروسية (cavalerie) التي كانت تكوّن الجزء الهام والمثمر لكل حملة، وقد كانت لها هذه المرة نتيجة هامة (billant) ثم راح يقتبس نصا للمالكي جاء فيه "أنهم استولوا على نساء وخيرات (biens)، وبلغ ثمن جارية رومية في أسواق المشرق ألف دينار"⁽⁵⁾.

أمّا نص Fournel الذي أحال عليه Caudel M. قرأه فجاء فيه أن عقبة توجه بعد طنجة "مباشرة إلى الجنوب، وأسرع في مهاجمة ويلي (Oualili)، فاستولى عليها وواصل زحفه نحو الجنوب حيث دخل

(1) Berbères et Arabes , p. 182.

(2) Id, note2

(3) Ibid ,p.182.

(4) Provençal (E. Lévi), op. cit., p.1041.

(5) Les premières invasions arabes, p.129 .

الأطلس حتى وصل نفيس، مدينة مصمودة درن وهي، حسب ابن خلدون، " قبيلة تميّزت دائما بكثرة أعدادها وقوتها وشجاعتها " ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف القائد العربي ذلك: " فبعد معارك عديدة تمكّن المصامدة من حصار عدوّهم في جبال درن لكن الزناتيين... انجدوه وتمكنوا من فك الحصار عنه " فإن كان الأمر كذلك، فقد يرجع غزو عقبة لنفيس، إلى هذه المساعدة، وهناك جمّع غنائم كثيرة، كما يقول البكري، وبني مسجدا ما زال قائما إلى اليوم (القرن الخامس)، وعندئذ عبّر الأطلس إلى السوس الأقصى، فخاض معارك طاحنة ضد القبائل التي حاولت اعتراض سبيله ودخل إيجلي أوتارودانت وهناك سبى عددا من الجواري، لم يعرف المؤلفون كيف يصفون جمالهن، ويؤكدون، لإعطاء فكرة عنهن، أن كلّ واحدة منهن بيعت بألف دينار وأكثر، وعند وصول عقبة إلى ضفة البحر الكبير، دفع فرسه وسط الأمواج، معبرا، بابتهاال شديد، عن أسف عدم وجود شعوب للإخضاع (à courber) تحت هلال محمد وقال لأصحابه " لنعود الآن من حيث أتينا، على بركة الله". ويستطرد Fournel في كلامه قائلا: قبل أن أتعرض إلى الأحداث الكبرى التي ميّزت تلك العودة، يجب عليّ ملاحظة استبعاد نجدة زناته لعقبة، لأنها كانت إلى وقت قريب، متحدة مع الروم للقتال تحت أسوار تاهرت، غير أنه، إن جاءوا، فعلا، إلى تخلص القائد العربي ونجده من إخوانهم، فإن مثل هذا الشذوذ (anomalie) لا يُفسّر بحماية عقيدتهم الإسلامية، بقدر ما يُفسّر بكراهية (inimitié) الجوار الحادة، وبالفُرصة السانحة للانتقام، بأي ثمن، من بعض الهزائم السابقة، في الحروب الداخلية، غير المعروفة، ويمكن أن يُنظر إلى ذلك، أيضا، على أنه أول إعلان ينقله لنا التاريخ عن العداوة التي كانت مجودة بين أحفاد فرعي

البربر: فرع مادغيس وفرع البرانس، تلك العداوة التي عبرت عنها، فيما بعد الحروب الطاحنة بين الزناتيين والصنهاجيين...»⁽¹⁾.

ويلخص Mercier E نشاط تلك الحملة منذ انطلاق العرب من طنجة " إلى قلب (cœur) الأطلس، فاجتازوه، بعد معارك طاحنة ضد الأمم (nations) الجموحة (indomptées) التي كانت تسكنه، وعند انتقالهم إلى السوس الأدنى، وجدوا أمامهم المحيط الأطلسي وعندما أوقف عقبة هذا الحاجز، متعذر العبور، أدخل فرسه في البحر وأشهد الله أنه لم يبق أمامه أعداء دينه للقتال"⁽²⁾: ويقول نفس المؤلف، في مكان آخر، إن عقبة دخل من هناك، أي من طنجة، "الأطلس، ومرّ قرب الموقع الذي أقيمت فيه فاس، واندفع إلى قلب السلاسل المرتفعة، وانتهى إلى أطراف السوس، على ضفاف الأطلنطي حيث التقى لمطة وجزولة، من طلائع الملمثمين، لكنه لم يبتعد أكثر وعاد بسرعة عن طريق النجود إلى إفريقية..."⁽³⁾.

ويسجل Marças G أن عقبة " تتقلّ في إفريقية الشمالية بكاملها، فاجتاز المغرب وهو ينهب (en pillant) من منطقة طنجة إلى وادي سوس، و الرواية تفيد أنه قد يكون أدخل حصانه في أمواج المحيط الأطلسي متأسفاً عن عدم استطاعته حمل الحقيقة إلى أبعد من ذلك"⁽⁴⁾.

ويبدو لـ Terrasse H. " أن عقبة اجتاز، دون عناء، السهل الأطلسي إلى ويلي ثم اتجه نحو الأطلس، فقاومته مصمودة، وقد تكون زناته هي التي أنقذته بينما كان في وضعية حرجة بالجبّال ... وقد

(1) Les Berbères , T.2,p.72 sq

(2) Histoire de l'établissement des arabes, pp 58-59

(3) Sidi Okba, ses expéditions dans l'extrême ,Sud,pp .326- 327

(4) La Berbérie Musulmane, p- 32.

استولى على مدينة نفيس بسهل Haouz، وكان بها الروم والبربر المسيحيون، فبني بها مسجدا بعد جمع غنائم كثيرة، وبعد ذلك انتقل إلى السوس حيث استولى على مدينة إيجلي، وبيعت الجواري اللائي أخذ في تلك النواحي بأثمان باهضة، وقد يكون نفع جواده في البحر بساحل السوس، معلنا أنه لولا حاجز المحيط، لوسّع أكثر مجال الإسلام، وقد يكون وجد صنهاجة المثلثين، في هذه المقاطعة، كما قد يكون هاجم وهزم سكانا صنهاجيين آخرين، مسوفة، جنوب تلك المنطقة⁽¹⁾.

ويعلق Terrasse قائلا: "إن حملة عقبة، في حدود معرفته البسيطة لها، من خلال الروايات المشوهة بالأساطير، يبدو أنها مسّت، في المغرب الأقصى: شمال البلاد والسهول الغربية، وربما الجنوب والجنوب الأقصى، وعلى الرغم من مقاومات مشتتة (de détail)، فهي لم تحدث أي رد فعل شامل، ولا يعرف إلى أي حد نشر عقبة الإسلام في البلاد، وقد يكون بعض القادة المحليين المنضوين تحت لوائه، مثل يُلّيان، تقلّدوا السلطة، وسيختفي نفوذ الإسلام الأول والخفيف هذا، غداة النكسة حيث غرقت المحاولة الجزئية"⁽²⁾.

ونفس الكلام يقوله جوليان، تقريبا، بحيث يذكر أن "عقبة دخل بلاد السوس بناء على المعلومات التي زوده بها يُلّيان" فقام بتقتيل عدد كبير من السكان، وباختطاف ثمين لجاريات جميلات، متخذا الله شاهدا بأن المحيط وحده هو الذي حال دون ذهابه أبعد من ذلك لتقتيل الكفار أكثر" لكن جوليان يرى أن كل هذا غريب جدا، مذكرا أن إ. ف. غوتيي بنى عليه نظرية مفادها: أن الاحتلال (occupation) السهل لمنطقة

(1) Histoire du Maroc, T.I, p.81

(2) Terrasse: op. cit., pp 81-82.

طنجة (Tingitane) يُشبه احتلال إفريقية، وبعد ذلك بقليل، احتلال إسبانيا، إن جميع أراضي إفريقيا الشمالية التي عانت (subi) من النفوذ القرطاجي (Carthaginoise) انضمت بسهولة للمسلمين، لكن أغلب التفاصيل لم تظهر إلا في المصادر المتأخرة، فلا يوجد لدى ابن عبد الحكم، وليس في كل رواياته، سوى إشارة إلى السوس، وهو مصطلح غامض. لدى الجغرافيين المتأخرين والذي يحتاج معناه في القرن الثامن إلى تحديد، ثم إن كلمة عَقْبَة المشهورة أمام ضفة البحر (لكن أي بحر؟) متخذاً الله شاهداً على أنه لم يستطع الذهاب أكثر من ذلك، فلا ذكر لطنجة، ولا أي تفصيل عن هذه النزهة (chevauchée) الخارقة للعادة في بلد مجهول. يوجد هنا، على أية حال ما يدفع إلى التفكير والشك: من المؤكد أن عَقْبَة أجهد نفسه لتوسيع الإمبراطورية الإسلامية غرباً، ولهذا الغرض حارب في الأوراس، ويكون من باب التهور (téméraire) تأكيد أكثر من ذلك، وهنا يفتبس جوليان من Brunschvig R. قوله: "إذا كان من الممكن النظر إلى نزْهَة (Randonnée) عَقْبَة كحقيقة (authentique) فإنه يكون من اللائق، في انتظار إثبات عكس ذلك، تحديدها ببلاد الجزائر الوسطى، وقد تكون وصلت، على أبعد تقدير، إلى منطقة وهران الحالية ووادي الشلف.... (1)".

ويعتقد م. طالبي "أن ليس هناك أسباب جدية تدفع إلى الشك، فسي وصول عَقْبَة في جولته الكبرى (grande Chevauchée)، إلى المحيط الأطلسي، وهو يجرّ خلفه أبا المهاجر وكسيلة وقد بذل جهداً خاصاً، أثناء

الطريق، لإذلال "المَلِك" البربري رغم تحذيرات أبي المهاجر، والمشهد (Scène) النمذجي الذي أجبر فيه عقبة كسيلة على سلخ شاة في حضوره، زيادة في إهانته، معروف لدى كل المصادر. ويبدو أن الحملة الخاطفة (éclaircie) التي بدأها كانت، بالأحرى، بطريقة مباغتة، زيادة على أنها أعقبت سياسة السلم والمصالحة التي مارسها سابقه؛ فاستفادت في مرحلتها الأولى من عنصر المفاجأة، وهذا ما يفسر، على الأقل جزئياً نجاحاتها اللاحقة⁽¹⁾.

ويذهب إ. ليفي بروفنسال إلى القول: إن عقبة، بعدما انطلق من طنجة "بدأ بالاستيلاء على جبل زرهون ومدينة أوليل (volubilis)، واجتاز الأطلس الأوسط ثم تقدم إلى درعة فإلى السوس، حيث لاحق السكان إلى صحراء لمتونة، ثم توجه نحو الساحل الأطلسي، فحل بأرض آسفي (Safi)، وشرع في إخضاع كتلة قبائل مصمودة البربرية، بجبل درن (الأطلس الكبير) ثم كتلة الأطلس الصغير (Anti-Atlas) حتى تَارُودَانْت لكن هذه النتائج، مهما كانت تبدو لامعة، لم يكن لها أي استمرار، حتى التقدّم بدون مقاومة في بلد ما، لا يعني شيئاً، إن لم يكن متبوعاً باحتلال، لم يكن في وسع عقبة ضمانه مباشرة"⁽²⁾.

ويكتفي الجنرال بريمون بالقول: "إن التحرك الإسلامي وجد بساحل طنجة (Tingis) سلطة قائمة أوقفت زحفه ولم يبذل أي جهد لمحاولة المرور، فلم تكن له وسائل لذلك"⁽³⁾.

وفي حديث Fournel H. عن رجوع حملة عقبة من المغرب الأقصى ذكر: "أن الجيش أخذ معه إلى القيروان غنائم انتصاراته، ولم

(1) E.I. n°10, éd. Leiden - Paris 1986, T.V, art. Kussayla B. Lemzam, p. 521

(2) Provençal (E. Lévi), op. cit, p. 1041

(3) Berbères et Arabes, p. 182

يفكر السكان الذين أصابهم الرعب في قطع طريقه، فليس هناك إشارة واحدة إلى وقوع أية مناوشة خلال هذه المسيرة الطويلة. لقد سبق لي وأن قلت: إن ابن الأثير والنويري، حدّا أثناء هذا الرجوع، الأسطورة التي قدّمت التفسير المزعوم لماء فرس الذي أطلق على منبع ماء (source) يكون حصان عقبة قد اكتشفه، عندما طلب هذا المسلم المستجاب (privilégié)، من الله أن يرسل الماء إلى جيشه الذي كان يعاني من العطش، "وفي الواقع، توجد عين فرس، حسب ما يقول السيد دوسلان، عند حافة (au pied) برّق (télégraphe) دأحو، بين تلمسان وسيدي بلعباس، وبالضبط على الطريق الذي يكون عقبة قد سلكه، عند عودته إلى إفريقية" لكن قد يكون سلك نفس الطريق أيضا عند انتقاله من تاهرت إلى سبتة، بحيث أن هذا التقارب لا يكون مقنعا جدا لدعم رواية ابن الأثير، ثم إن عقبة لم يكن في حاجة إلى كرامة (miracle) في المنطقة التي توجد بها، فعلا عين فرس، إذ توجد بجوارها مجاري مائية جيّدة جدا..... ولم يترك عقبة خلفه سوى سكانا (populations) خاضعين، وكان يُحسّ أنه قويّ جدّا بشجاعته التي لا تُقهر، وبالرُعب الذي لحق بقبائل البربر، من بداية المغرب إلى نهايته، وكان يتقدم بكل ثقة لدرجة أنه عندما وصل طُبنة قسّم جيشه إلى مجموعات التحقت كل واحدة منها بالقيروان بمعزل عن الأخرى، ولم يبق معه إلا مجموعة صغيرة من الفرسان يُقدّره ابن خلدون بحوالي ثلاثمائة رجل، مُعلنًا أنه سيقوم بجولة تفقدية إلى تهودة وباديس. وقد انتهز كسيلة هذه المناسبة للفرار⁽¹⁾.

(1) les Berbères, T. 2, p. 75 sq.

وبالنسبة لـ mercier E. فإن العرب عادوا، بعد تلك الجولة (Course) الجريئة.. وهم يجرون خلفهم غنائم معتبرة، ولكن البربر دبّروا، أثناء ابتعاد عقبة، مؤامرة واسعة ضدّ المسيطر عليهم، وبدأت العاصفة، عندما أرسل عقبة، الواثق من نفسه، جيشه، أفواجاً إلى القيروان، ودخل هو عن طريق الزاب على رأس بعض الفرسان، وعند حلوله بواحة تهودة، رأى نفسه محاطا بجمع من الأهالي (indigènes)⁽¹⁾.

ويعلق Terrasse H. على ما ذكر، من أن عقبة شرع في العودة إلى القيروان، متّبعا طريق الدّاخل بقوله: "لا نعرف المسلك الذي سار فيه عقبة من جنوب المغرب الأقصى،....، ويعتقد أن عيّنا، تقع مسا بين تلمسان وسيدي بلعباس، قد استخرّج ماءها حافرُ (sabot) حصان عقبة، ولكن لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الأسطورة، ويبدو أن عقبة وصل إلى الجنوب الجزائري: إمّا عن طريق فجوة (trouée) تازة، وإمّا إذا تمّ التسليم بحملاته، في جنوب المغرب الأقصى، دون اجتياز سهوله، من جديد) عن طريق واحات السّفح الصحراوي للأطلس"⁽²⁾ كما يسجل أيضا أن عقبة "يبدو أنه ارتكب خطأ إرسال جيشه: مجموعات صغيرة، وعند وصوله إلى جنوب شرق بسكرة وجنوب غرب الأوراس، راح يستطلع مدينتي تهودة وباديس المحصنتين، وعندئذ هاجمه البربر الثائرون المتحالفون مع البيزنطيين، على ما يُعتقد، بقيادة كسيلة"⁽³⁾.

وللحديث عن كسيلة يذكر Fournel أن أول عمل قام به عقبة، عند حلوله بالقيروان هو تقييد أبي المهاجر بالحديد، "وعامل كسيلة

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 59

(2) Histoire du Maroc, T. 1, p. 82, note 1

(3) Ibid, p. 82

بازدراء كبير، على حدّ قول ابن خلدون، لما أظهره من ارتباط بهذا الوالي". ولم تتمكن حادثة العهد بالإسلام، التي كان ينبغي أن يحترمها عقبة المتحمّس، ولا النفوذ الكبير الذي كان كُسيلا يمارسه على البربر، ولا غيرهما تمكّن من إيقاف المحارب الغضوب الذي ردّه، باحتقار، التحذيرات التي قدّمها له، في هذا الموضوع العرب المجربون، وأبو المهاجر نفسه، الذي لم تتوقف عنده حماسة الديانة (religion)، ولو للحظة، عن السيطرة على الغيظ الذي جعلته القسوة الظالمة، التي كان عرضة لها، يعانيه. وكان عقبة يبدو مسرورا بإهانة القائد البربري، كمّن يتصدى للنصائح الحكيمة التي قُتّمت له؛ وهكذا أجبره، ذات يوم، رغم رفضه، على سلخ شاة بنفسه... وكان أثناء إنجاز هذا العمل الدنيء، في نظره، وغير الجدير برجل في مستواه، يُضْمِر انتقامه؛ وينوي غسل (de laver) الإهانات، التي أغدقها عقبة المتعافل، في الدّم العربي، وقد تكون هذه المشاهد المحزنة، وقعت أثناء توقّفات الجيش العائد إلى القيروان⁽¹⁾.

وعندما كان الجيش يواصل طريقه "فإن كسيلا، رغم الحراسة المفروضة عليه، كان يتراسل (correspondait) مع عائلته ومع الروم أنفسهم، الذين كانت قضيتهم مقرونة، مؤقتا بمصلحة شعبه"⁽²⁾. وبعد أن قسّم عقبة أصحابه مجموعاتٍ، وعزم على القيام مع مجموعة صغيرة منهم، بجولة استكشافية إلى تهودة وباديس "انتهز كسيلا الفرصة وفر" وهكذا كانت دقّة (précision) أوامره الصادرة في المراسلة، وهكذا صار دويّ ندائه إلى البربر، لدرجة أن عقبة عندما أصبح أمام تهودة؛

(1) les Berbères, T 2, p. 174

(2) Fournel: Op. cit., p. 175

مع حفنة من رجاله، رأى أبواب المدينة تُغلق، ولم يمض وقت طويل حتى علم أنه كان في مواجهة جيش من الأهالي والبيزنطيين، بقيادة ذلك الذي كان منذ أيام قليلة يغتاز من كثرة الإهانات. ولم يكن عقبة قادرا (incapable) على رفض القتال غير المتكافئ بالمرة، فترجل وصلى ثم كسر غمذ سيفه، وفعل أصحابه مثله وتقدموا جميعا، بلذة التعصب، إلى موت هو بالنسبة إليهم تاج الاستشهاد: قُتل الجميع. وهكذا كانت نهاية عقبة بن نافع، المحارب الشهير الذي قاتل من أجل الإسلام انطلاقا من بلاد النوبة وصحاري برقة إلى المحيط (الأطلسي) والذي ألقى منذ قليل، من أعلى أسوار طنجة، إحدى نظراته التي تُنذر (présage) بالاحتلال⁽¹⁾.

ويقتبس Fournel ما أورده القيرواني من أن "عددا قليلا منهم (أصحاب عقبة) نجوا من الموت، بفضل سرعة جيادهم" قائلا إن هذا محتمل أكثر، إضافة إلى أن ابن خلدون وأبا المحاسن (ابن تغري بردي) يؤكدان ذلك، ويشير الأول إلى صاحبين للرسول يبدو لي أنه من غير الممكن، رغم مهابة حُجة البكري، التصديق بأن أبا المهاجر نفسه قد يكون نقل رواية موت عقبة، مما يؤدي إلى استنتاج أن هذا الأمير القديم قبل الاقتراح الذي قُدم له، قبل المعركة، بالعودة على القيروان أو أنه كان من بين بعض الأسرى الذين بقوا في قبضة كُسيلا ثم أرسلوا إلى قفصه، لكن القراءة المُتمعنة لصفحة البكري هذه ومقارنتها برواية أخرى منسوبة أيضا إلى أبي المهاجر، وخطأها واضح * مثلما لاحظ ذلك قبلي

(1) Fournel: Op. cit., PP. 176-177

* قيل عنه أن اثنين من صحابة الرسول (صلعم)، هما: أنس بن مالك، وزيد بن ثابت، كانا يعيشان في خلافة عبد الملك بن مروان Fournel H.: Les Berbères, T 2, P. 178, note 3

Wilhelm Roth M. تمنعني من قبول هذه الشهادة الفريدة التي لم يُشر إليها حتى المؤلفون العديدون الذين أخذوا من مسالك عالم ولّبة (Huelvah) الجغرافي (البكري) ولهذا السبب سأقول، حسب المصادر التي فضلها المؤلفون العرب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ماذا كان مصير أبي المهاجر، مع الاحتفاظ بالشكوك التي تحوم على الأخبار (récit) التي وصلت، في الأصل، عن طريق الروايات، مثلما كان الأمر دائما في بدايات التاريخ الإسلامي هذه، لقد جرّ أبو المهاجر، مقيدا بالسلاسل، خلف عقبة، في كل مراحل هذه الحملة⁽¹⁾.

ویرجع Fournel تحطيم عقبة لسلاسل أبي المهاجر، وأمره بالالتحاق بالقيروان، بعد سماعه أبيات الشعر التي تلاها هذا الأخير، إلى أحد السببين "إمّا لأن الحسرة الشاعرية (poétiques regrets)، لمحارب لم يتطلع إلا للقتال، حركت أكثر الحبال إحساسا في قلبه، وإمّا لأنه تأكّد من الموت في المعركة التي سيلقي بنفسه فيها، فأراد محو أخطاء عُنْفِه تجاه المسلمين، قبل مفارقة الحياة"⁽²⁾.

ويعلق نفس الكاتب على موقف دينار، بعد تحريره من الأسر قتلا: "عند العودة إلى العذاب الطويل الذي عاناه أبو المهاجر، وإلى لعذاب المعنوي الفظيع الذي فرضه عليه الانتقام العنيد لعدوه المنتصر، لا يمكن مقاومة شعور المفاجأة الممزوجة بالإعجاب، أمام تصرفه في

(1) Les Berbères, T. 2, p. 177 5-9 .

(2) Ibid, p. 79

حريته، عندما أعيدت إليه، إذ راودته فكرة واحدة، هي فكرة قتال الكفار ... وبعد ساعات قليلة أصبح يُعد من بين القتلى...⁽¹⁾.

مع الملاحظة هنا أن أبا المهاجر الذي أخذ عنه البكري معلوماته، ليس أبا المهاجر دينار، الوالي الذي كانت له قصة مع عقبة بن نافع وإنما هو حقيده⁽²⁾. ويلاحظ Caudel M. أن عقبة لم ينشغل، في حملته هذه الأكبر من الأولى، برؤوم مِزاق (Byzacium)، والولاية البيزنطية (proconsulaire) ...، وكان ذلك من باب الإهمال، وربما من باب المهارة، لأن استيلاء أبي المهاجر على جزيرة شريك جعل إغريق الولاية البيزنطية في حالة عجز، وإن وُجد آخرون قادرين على اعتراض الغزو العربي فسيلتقي بهم عقبة بعيدا، على الهضبة الموريطانية، في مواقع لم يهددها الغزو من قبل⁽³⁾، ثم يتسال هذا الكتاب عما إذا كان لعقبة، في جيشه أعوان من الأهالي، مثلما كانوا لأبي المهاجر؟ و يُجيب قائلا: "إن المسألة مشكوك فيها كثيرا، لأن الروايات النادرة التي تستطيع توضيح هذه النقطة لنا، تشير إلى ظهور سوء تفاهم تصاعداً، بعد ذلك، بين العرب والبربر"⁽⁴⁾.

ويرى نفس المؤلف أن البربر اتفقوا (se concertaient)، عدة مرات، مع الروم في التصدي للغزاة (envahisseurs) بكل من بغاية ولمبيس (Lambès) وتاهرت، ويعتبر أن "حماسة عقبة الحمقاء، جاءت بالاتحاد، أي اتحاد البربر، الذي استطاعت مهارة أبي المهاجر تجنبه"، مذكراً بما سبق وأن قاله (في كتابه) من أن "قيام حملة على الهضبة

(1) les berberes, t.2, p. 79.

(2) انظر:

E. Lévi Provençal: E.L.n^{lle} éd, leiden -Paris 1936, T.3, art. Okba B. Nafi'a, p. 1040

(3) Les premières invasions arabes, p. 121

(4) Id

الموريطانية، سهلة جدا أم خطيرة جدا، حسبما كان البربري، معها أو ضدها، ودينار وضعه إلى جانبه، فعاد سالما من حملته على تلمسان، ونفّره عقبة، فلم يعد أبدا من طبنة، ومن السهل فهم عدااء البربري للأمير: فقد يكون قراره راجعا إلى سوء المعاملة التي تعرّض لها قادتته، كما أنه لم يتقبل إبعاده عن تقسيم الغنائم، لأن نهب إفريقية الذي يحدث بالاتفاق معه يناسبه جيّدا، أمّا نهب إفريقية الذي يحدث أمام أعينه، دون أن يستفيد منه فيغضبه. وهو عديم المهارة كعادته دائما، وبطيء في تنسيق عمل مشترك، كما سيُهزم نهائيا لو لم يكن الروم هناك لتنظيمه، أنه تحالف عقلاني، لم يصمد أمام القوة التي وجّه ضدها لكنه تمكن من هزيمتها. لقد عزم كسيلة منذ مدة طويلة على الانتقام من عقبة، فدخل في اتصالات مع الروم. وتمكنت قواتهما المشتركة (Combinées) من إلحاق بعقبة في تهودة...⁽¹⁾.

وفي رأي (E.F.) Gautier فإن عقبة، عند اقترابه "بجيشه القليل من تهودة، التي ستكون شؤما عليه،" لاحظ الروم قلة من معه من المعاتلين وتصوروا أمل القضاء عليه، فأغلقوا إذاً، أبواب قلعتهم، ورموه بالسهم والحجارة والشتائم، بينما كان هو يدعوهم إلى الإسلام، فلما حلّ بوسط البلد (Pays) بعث الروم رسولا إلى كسيلة⁽²⁾. ويشير Gautier إلى أنه اقتبس هذه التفاصيل من النويري، ملاحظا أن المؤلفين جميعهم، تقريبا، متفقون، دون إلحاح وبنفس العبارات، على اشتراك (association) البيزنطيين مع ملوك نوميديين⁽³⁾ وقد اقتبس نفس المؤلف أيضا، الحديث عن كسيلة كما قال، من خلال ابن خلدون، ليذكر

(1) Caudel : op.cit., p. 130

(2) Le passé de l'Afrique du Nord, p. 273

(3) Id

أنه "كان يساعده سكرديد الرومي، سكرديد الروماني، وأنهما كانا نصرانيّين (Chrétien) وأن كسيلة، في الظرف الحاسم، كان في مراسلة مع الإفرنج (les Francs)، ومعناه، بطبيعة الحال. الحَضَرُ المُلْتَنِّين (Citadins latinisés)، وتوجد هنا خطوط منسجمة حيث يبدو أن القبائل الملتفة حول كسيلة، كانت تحتفظ باتصال وثيق مع المسيحية واللاتينية"⁽¹⁾ وبعد مناقشة (Gautier) لقضية علاقة أوربة بمنطقة الأوراس وعلاقة كسيلة بأسرة جدّار (Les Djeddar) الحاكمة التي تركت أضرحة من عهد الاحتلال البيزنطي، بجنوب غرب تيارت، في أعلى نهر ميني، دون أن يصل إلى نتائج ملموسة، و ينتهي إلى القول "إنه من المؤكد أن أوربة كانوا من البرانس المُقَرَّبِينَ، بصفة خاصة، من اللتنة ومن المسيحية، وأن الانتصار على سيدي عقبة كان بيزنطيا، إلى حد كبير، أكثر من أيّ انتصار بربري لاحق، على ما يُحتمل، ومن المؤكد أيضا، أن هذا الانتصار الكامل كان له صدّى كبيرا في العالم الإسلامي، حيث هزّ عمق المؤرخ العربي لدرجة أنه، على عكس عاداته، تمكّن من إقامة صورة حيّة لكسية"⁽²⁾ ويُترجم Gautier إلى الفرنسية، كدليل على ما يقول، الرواية التي تناقلتها المصادر العربية عن مسألة سلخ الشاة التي تعتبرها إهانة كبرى ليُعلّق في نهايتها قائلا "إن هذه التفاصيل تبدو مزيفة ولكننا سعداء لإيجاد رسم (trait) حيّ لدى مؤرّخ عربي"⁽³⁾. ويضيف المؤلف الأخير أن "كسيلة وُضِعَ، بكل تأكيد، تهديده

(1) les passé de l'afrique du Nord, p. 267., p. 267

(2) Ibid. p. 269 ,

(3) Ibid, p. 270

المزيف أو الحقيقي، حيز التطبيق ففاجأ عقبة عند سفح الأوراس، من جهة بسكرة. في واحة تهودة....»⁽¹⁾.

ويذكر Terrasse H. أن "كسيلة كان رئيسا لأوربة التي كانت قد سيطرت على كل البرانس، وثار البربر جماعيا بقيادتها، وتخلوا عن الإسلام ويدّعي ابن خلدون أنهم ربما يكونون قد ارتدوا اثنتي عشر مرة، في مدة سبعين سنة، وهكذا فشل العمل الذي شيّده قائد جريء وصلّب (Dur)، يبدو أن له مزايا الداعية للإسلام، برودة فعل كانت مفاجئة بقدر ما كانت عنيفة، من أولئك الذين أظهرُوا، في البداية، انضمامهم بدون صعوبة إلى العقيدة الجديدة، فصارت المقاومة البربرية، بعدئذ نقطة، دون أن تكون منظمة بالفعل، وستواصل مدة خمسة وعشرين عاما، وقد تكون الجيوش الإسلامية خاضت ضدها أصعب المعارك حتى ذلك الحين"⁽²⁾.

ويستنتج (ش. أ.) جوليان من المعلومات الواردة في مصادر ما بعد القرن الحادي عشر الميلادي، وخاصة ابن خلدون الذي كتب في القرن الرابع عشر، "أن شخصية كسيلة سيطرت آنذاك، على تاريخ إفريقيا الشمالية"⁽³⁾ وفي هذا الصدد يُسجّل ما ذهب إليه Gautier من افتراض أنه كان ملكاً من أسرة جدار (des Jadar) أو على الأقل كان يترأس أوربة من البرانس الحضّر، المتأثرين كثيرا بالحضارة اللاتينية والمسيحية، وقد حملوا (Portés) على الانضمام إلى الإغريق ضد العرب المسلمين "مستنتجا أن الانتصار على سيدي عقبة يُحتمل أنه كان فتصارا بيزنطيا، إلى حد كبير، أكثر من أي انتصار بربري لاحق"،

(1) op. cit., p.270.

(2) Histoire du Maroc, T. 1, p. 82

(3) Histoire de l'Afrique du Nord, 2, p. 18

ويمضي جوليان في كلامه قائلا: "إنه بالنظر إلى ندرة الوثائق، وإلى قلة دقتها، يصعب كثيرا تقدير سلطة كسيلة بالضبط، غير أن الروايات القديمة، التي نقلها ابن عبد الحكم، تمكن من القول: إنه لعب دورا هاما في إفشال عقبة، وإن بيزنطي إفريقيا الشمالية ودعموه، في عمله، ويبدو أن هؤلاء الذين لم تكن لديهم قوات عسكرية كافية لمجابهة المشاريع الإسلامية، نجحوا في إثارة البربر المتأثرين بالروح القبليّة (particularistes) ضد المحتلين (Envahisseurs)، وفي غياب القوات العسكرية، بقي البيزنطيون يمارسون نفوذا سياسيا في شرق المغرب، على الأقل. وفي جوابه عن سؤال ما إذا كان كسيلة ورجاله مسلمين، قبل ذلك، كما يؤكد المؤرخون المتأخرون، أم أنهم بقوا على ديانتهم المسيحية؟ يرى جوليان أنه من باب التهور إبداء الرأي حول هذه النقطة. والمهم، في نظره أن عقبة عندما عاد من حملته على المغرب فاجأه تحالف كبير، من البربر والبيزنطيين، في منطقة بسكرة، وقد يكون فقد السيطرة على قواته المحملة بالغنائم، وعلى كل فقد قسم جيشه إلى عدة فرق بطبنة (Thubunae)، وتابع طريقه إلى جنوب الأوراس، على رأس سرية قليلة العدد، وكان كسيلة قد غادره، بلا استئذان، في مكان غير معروف، وانظم إلى القبائل البربرية والفرق (Contingents) الإغريقية، فحاصره على حدود الصحراء (قرب تهودة (Thabudeos)، عند مخرج وادي الأبيوض (El-Abiod) (1)

ويحاول الجنرال Brémond توضيح ثلاثة أشياء في هذا الموضوع: أولها حول قبيلة أوربة التي يصفها بالليبية (Libyenne)

ويقسم إسمها إلى مقطعين أو ربه (Aou reba) ويقول إن معنى Aou (بالليبية أو بالبربرية، يعني ابن = بني، آيت، أولاد) ويحدد مجالها بالأوراس. ويتعلق الأمر الثاني بديانة كسيلة التي كانت، في رأيه يهودية أو مسيحية؛ أما الشيء الثالث أنه يرجّح أن يكون كسيلة نَصَبَ كَمِينًا لعقبة⁽¹⁾.

وحسب إ. ليفي بروفنسال فإن عقبة "يبدو أنه لم ينتبه، عندما أخذ مع جيشه، طريق العودة شرقا، إلى أن كل شيء يحتاج إلى إعادة: فكسيلة فرّ من أسره، وأعاد تنظيم المقاومة، مستعملا، في آن واحد، حماسة مواطنيه القتالية، وتقنية الحاميات البيزنطية الأكثر تنظيما. وثقة منه بالانتصارات التي حققها، فإن عقبة لم ير الخطر، عند حلوله بالزاب، وفي طبنة ذهب إلى حدّ تقسيم جيشه إلى عدّة فرق ولتلقاه الكبيرة بالعناصر البربرية التي أخضعها، لم يبق معه سوى قطعة صغيرة من العرب، عندما توجه من طبنة، إلى جبل أوراس، وسرعان ما حاصرت مجموعات (Bandes) كسيلة..."⁽²⁾.

ويلاحظ Marçais G. أن "المسلمين لم يجدوا أمامهم سوى ثبربر، منذ الظهور الأول لسيدي عقبة في البلاد، وأن البيزنطيين يبدو أنهم كانوا خارج الحلقة ولكن لم يكونوا غائبين تماما، لأن الإخباريين ينسبون إليهم دورا حاسما في تألق كسيلة: فإثناء اصطحابه، كأسير، في جيش عقبة الذي جال المغرب آنذاك، تلقى رسائل من الروم، وخاصة من الذين يُفترض أنهم يكونون الحاميات في قلاع الثغور الغربية من لمقاطعة (Province)، وقد وُجد هؤلاء حتى في أطراف الصحراء، في

(1) Berbères et Arabes, p. 182

(2) Ibid., p. 1041

باديس وتهودة، وعندما علم روم تهودة. بتقتم عقبة، على رأس قوات قليلة استعدوا للمقاومة وبعثوا رسولا إلى كسيلة الذي سبق له وأن فرّ، ودعى البربر إلى الثورة. وبجهود الجنود البيزنطيين ورجال القبائل الموحدة، تمّ القضاء على المجموعة المسلحة الصغيرة⁽¹⁾.

وبعدما حقق عقبة نجاحات لامعة في المرحلة الأولى من حملته، فإن المقاومة، حسب م. طالبي، "سرعان ما نظمت، والواقع أن عقبة، كما يضيف، لم يستول على أي موقع كبير، وأن البرانس، أكثر البربر رومنة، تحالفوا مع البيزنطيين، ودخلت أوزبة في اتصال سريّ مع قائدها كسيلة، وهذا الأخير فرّ، في مكان غير معروف، من أسر عقبة وصار على رأس المقاومة. وهل ارتكب عقبة، من جهته، كما تؤكد كل المصادر، خطأ تسريح غالبية جيشه، ثقة بما حققه من انتصارات...؟ أم أنه كان يُحبّ، بالأحرى، تقديم نجدة مستعجلة إلى العاصمة المهددة من البيزنطيين؟ أو أن الأمر يتعلق، ببساطة، بعصيان جنود أنهمكتهم حملة طويلة وشاقة؟ ومهما يكن فإن عقبة وُجد في تهودة (Thahudéos) في مواجهة كسيلة على رأس فرق (Contingents) برُسية وبيزنطية...."⁽²⁾

ويوجد جثمان عقبة، في مسجد الواحة التي تحمل اسمه (سيدي عقبة)، على بعد 5 كلم جنوب تهودة، تحت قبة متواضعة حيث يأتي لزيارته أحفاد أولئك الذين شاركوا في قتله (كما يقول Julien)⁽³⁾ ويعتبر الجنرال Brémont، في أحد تعاليقه، واحة تهودة العاصمة الدينية للزيان (ج. زاب)، والمسجد الذي بُني بها هو أول نصب (monument) إسلامي شُيّد بالمغرب، وينقل عن كتاب "تاريخ إفريقيا

(1) La Berbérie musulmane et l'orient pp. 32-33

(2) E.I, n^{cl} éd. Leiden- Paris 1986, T.5, art. Kussayla b. Lemzam, p. 521

(3) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, p. 19-

الشمالية (Histoire de l'Afrique septentrionale) للجنرال Faure-Biguet أنه يعتقد أن قبر عقبة موجود فيه ولكن المؤرخين العرب في المشرق يقولون: إن هذا القائد قتل في برقة⁽¹⁾.

وسجل Fournel H. أنه زار تهودة في 7 مارس 1844 ولاحظ أن "العرب مازالوا يظهرن خشوعا كبيرا، وأوحتة إليهم ذكرى كبيرة، أمام ضريح عقبة" لكنه أحسّ بحسرة لعدم رؤية إسمي المحاربين الاثنين (عقبة وأبي المهاجر)، اللذين فرق بينهما الطموح واللذين، يبدو أنهما لم يتصالحا بحضور الموت إلا لكي لا يفترقا أبدا، مجتمعين في تسجيل واحد: فالشعور بالسمو الذي أوحى لأبي المهاجر الحلّ (النهائي) كان يجب أن يجعله شريكا في مجد عقبة بهذا المزار⁽²⁾.

- ولاية زهير بن قيس البلوي:

يحدد Fournel H. تاريخ معركة تهودة بنهاية عام 63هـ (في شهر أغسطس 683م)⁽³⁾، ويستنتج ذلك مما ذكره ابن عذاري من دخول كسيلة إلى القيروان في شهر محرم من سنة 64هـ، وبناء على تحديد كل من ابن عبد الحكم وابن الأثير وشهاب الدين، لتاريخ تلك الموقعة بسنة 63هـ، مضيفا أن ابن خلدون يخالف ذلك بطريقة غير مباشرة، عندما ذكر أن "زهير ابن قيس البلوي سار أيام عبد الملك بن مروان، إلى البربر الذين اجتمعوا تحت لواء كسيلة، رئيس قبيلة أوربة، وتكبّد المسلمون في هذه الحملة هزيمة أجبرتهم على مغادرة إفريقية، بعدما فقدوا القيروان". وكانت بداية خلافة عبد الملك في رمضان من سنة 65،

(1) Berbères et Arabes, p. 182, note 3

(2) Les Berbères, T. 2, p.180

(3) Les Berbères, T. 2, p.180

مما ينبغي، في هذه الحالة، كما يتبين، تعديل التاريخ الذي سبق تحديده
لمعركة تهودة، وأكثر من ذلك، فإن معركة زهير ضد كسيلة فنّذا ابن
خلدون، نفسه، عندما صوّر لنا والي (gouverneur) القيروان وهو
يغادر المدينة على عجل، بعد تلقّيه خبر نكبة تهودة⁽¹⁾

ويُرجّح المؤلف الأخير رواية النويري التي تفيد أن عقبة عند
انطلاقه، في حملته إلى المغرب، "ترك حراسة (garde) القيروان لزهير
ابن قيس البلوي"² على رواية ابن خلدون التي تفيد، في مكانين مختلفين،
أن "عقبة ذهب مسبقا بمقدمة، على رأسها زهير بن قيس البلوي":
ويبرّر Fournel هذا الترجيح بما ستسفر عنه نهاية الرواية (récit)،
ملاحظا أن ابن الأثير يقول ذلك بإيجاب وأن أبا المحاسن (ابن تغري
بردي) يتحدّث عن زهير كنائب لعقبة بالقيروان⁽³⁾، وأن أسم زهير لم
يَرِدْ، ولو مرّة واحدة، في سجل أخبار الحملة الطويلة التي وصلت إلى
أقصى المغرب. ويكون من اللازم (عند الأخذ بتلك الرواية) قبول فكرة
أنه قصّد القيروان مباشرة من طَبْنة، على رأس إحدى الفرق العسكرية
لكن المصادر لا تشير إلى ذلك. وبالتالي ستكون هذه فرضية مجانية
يفنّدها ابن خلدون نفسه بجعله عودة زهير إلى القيروان بعد موقعة
تهودة⁽⁴⁾.

فلما وصلت أخبار هذه النكبة الكبيرة إلى حاضرة إفريقية نادى
زهير الناس لحمل سلاحهم والذهاب إلى الانتقام لمقتل قائدهم وأصحابه،
لكن تثبيط العزيمة كان كبيرا وخاصة بعد الخطابات (Les discours)

(1) Les Berbères, T. 2, p.181, note 3

(2) Ibid, p. 166

(3) Ibid, p. 166 , note1

(4) Les Berbères, T. 2, p. 180, note 3

التي ألقّتها شخصية معروفة، هي حنش الصّنعاني، الذي لا يمكن اتهامه بالجبن، لأنه إفريقي قديم (vieil africain) سبق له وأن قام بعدة حملات.... ويذكر ابن عذاري أن الناس (le peuple) التحقوا به عندما أخذ طريقه إلى مصر، فوجد زهير، الذي لم يبق معه إلا أهل بيته، نفسه مضطرا إلى الالتحاق بهم، ولم يتوقف إلا في برقة¹.

ويصف Caudel M. زهير بن قيس الذي أنابه عقبة على القيروان المرمّمة (réédifiée) "بفارس شجاع جدّا ومسلم كثير النّوّى، نوع من فارسٍ معبدٍ مسلم، أكثر زُهدًا من الفارس المسيحي.... و سنرى أن انشغالاته الدينية لم تمنعه من أن يكون رئيسا (Chef) فطنا وقائدا (général) جيدا"².

ويحاول نفس المؤلف ضبط تاريخ موقعة تهودة، انطلاقا من شك المالكي في وقوعها سنة 63هـ، وتحديدده بسنة 64 التي يؤكدّها ابن الناجي، ويستخلص أن الحدث يكون قد وقع قبل سنة 64، لأن الفارين العرب، علموا عند وصولهم إلى بلاد الشام، ب وفاة الخليفة يزيد التي كانت في 14 ربيع الأول سنة 64هـ/ 10 نوفمبر 683م.³

وقد انسحب زهير، في الواقع، حسب نفس المرجع، "أمام التحالف البربري البيزنطي، ويدّعي المالكي، نقلا عن أبي العرب، أن زهيراً اقترح مغادرة المدينة لكن المسمّى ابن حيان الحضرمي أثّنى عزمه على ذلك، وبناء على نصيحته (Conseil) حاول المقاومة. وحُدّد مكان وقوع المعركة بقصر ابن غُبَيْدٍ أو بمَمَس، ويزعم نفس المصدر أن زهيراً تَنَصَّر فيها. وقد يكون بقي، آنذاك، في القيروان ثم غادرها إلى مصر

(1) Les Berbères, T. 2, T. 2, p.180

(2) Les premières invasions arabes, PP. 120-121

(3) Caudel: Op. cit., p. 131

سنة (64هـ/683م). وبطبيعة الحال، كما يقول Caudel، فإن المؤلف يخلط بين تاريخي: 64 و69هـ، بوضعه أحداث الثانية في الأولى. ويقول أبو المحاسن (ابن تغري بردي)، بدقة أكثر، إن زهيراً، بعدما خاض عدة معارك جدية (sérieux)، أخذ في الانسحاب إلى مصر، وإن بقية أفراد جيش هذا البلد الأخير التحقوا به فتوقف ببرقة⁽¹⁾

ويعلق Caudel على زعم ابن عذارى، باضطرار زهير إلى الالتحاق بحنش بن عبد الله الصنعاني، بعدما كان ينوي المقاومة، قائلاً: "يبدو أن وقوع مضمون ما جاء في الرواية محتمل جداً: فالأحداث تتفق كثير مع ما نعرفه عن خصائص وإلى القيروان، وعن خصائص جنوده، فزهير كان محارباً تقياً جداً، وكان الموت يجذبه إلى ساحة القتال، وقد يكون استشهاده عقبة هيّج حماسه الحربي. أما جنوده الذين تتلاءم روحهم العسكرية، عن طيب خاطر (volontiers) مع الانسحاب، ولو بطريقة متسريعة جداً، فلم يفكروا، بعد تهودة، إلا في العودة إلى مشرقهم، حيث يستطيعون التمتع، في أمان، بنصيبهم من الغنيمة ومن ثم جاءت رغبتهم في العودة إلى مصر، سيما وأن الغنيمة كانت أكبر، هذه المرة"⁽²⁾.

ويستخلص هذا الكاتب أنه "إذا كانت توسعات (Conquêtes) العرب سريعة، فإن انسحاباتهم أسرع، فهم يستولون على البلاد في بضعة أشهر ويضيقونها في بضعة أيام" "وإن هشاشة إقامتهم تكشف العيب الأساسي للمشاريع التي يوجهون إلى شمال إفريقيا، فهي لم تكن أبداً منظمة، مجرد أن لها هدف، وليس لها، ولا شك، مخطط. ولم تتجح

(1) op. cit., pp. 131-132

(2) Les premières invasions arabes, p. 132

عبقريّة قائد (Chef) في إعطائها التماسك والدقة الضرورييتين، فبزوال هذا القائد أو بهزيمته، يسقط العمل بكامله وتتبعي إعادته من البداية، وهذا بالأحرى، عسير لدرجة أن السلطة المركزيّة، فريسة صعوبات أكبر، لم تكن لها هواية ولا وسائل تقديم مساعدة جديّة لأعوانها بإفريقيّة⁽¹⁾.

ويذهب م. طالبي إلى القول: إن هزيمة تهودة "أحدثت هلعاً في القيروان، مما يدل (في نظره) على أهمية انتصار كسيلة وبالأخص على حجم قواته، وقد انتصرت أخيراً فكرة مغادرة البلاد التي دافع عنها حنش الصنعاني على فكرة المقاومة التي تتبناها زهير...."⁽²⁾.

ويلاحظ أن أغلب الكتاب الفرنسيين اكتفوا بإشارات عابرة للتعبير عما حدث في مدينة القيروان، في فترة ما بين موقعة تهودة وانسحاب المسلمين منها، ومن ذلك ما ذكره Mercier من أن العرب تسارعوا، أمام هذه التظاهرة (Manifestation) إلى مغادرتها⁽³⁾؛ وما ذكر جوليان من أن سياسة عقبة انتهت إلى كارثة، إذ غادر العرب الأراضي التي احتلوها (leurs Conquêtes)، إلى ما وراء برقة، أمام جهود البربر والإغريق المنسقة⁽⁴⁾، وما ذكره الجنرال Brémont من أن والي القيروان (زهير) عندما علم بخبر النكبة فرّ بجلده، دون محاولة المقاومة، حتى وصل برقة على بعد 1200 كلم⁽⁵⁾.

وبعدما ذكر Fournel أن كسيلة (المنتصر في تهودة) سار إلى القيروان، دون تضييع وقت، ولم تكن قد أفرغت تماماً من الناس، فدخلها

(1) caudel · op. cit., pp. 134-135

(2) E.I. n^{lle} éd, Leiden- Paris 1986, T. 5, art. Kussayla b. Lemzam, pp. 521-522

(3) Histoire de l'établissement des Arabes, p.59

(4) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 19

(5) Berbères et Arabes, pp. 182-183

في المحرم من سنة 64هـ وأمن المسلمين الذين بقوا فيها⁽¹⁾ توقف معلقا "الآ شيء أفضل من هذا الحدث لإثبات حالة التدهور الذي كان البيزنطيون واقعين فيه بإفريقية، فلم يلعبوا هناك سوى دورا ثانويا (subalterne) وحتى قادتهم لم يُنكروا؛ فكسيلة البربري هو الذي يحكم الروم والأهالي (indigènes) إنه لم يقد الجيش فقط، بل سيتخذ ملكا ويحكم إلى اليوم الذي ينبغي انتظاره، يوم يتمكن المسلمون من الانتقام لهزيمتهم، فبعد ما سال هذا القدر من الدم العربي، منذ ثلاثين عاما، ها هم البربر، إذا، يسيطرون (maître) على إفريقية وعلى القيروان نفسها²

ويرى Caudel أن "انسحاب العرب وضعف الروم سمحا لكسيلة من إقرار سلطته على مُزاق (Byzacène)" كما يعلق على ما سجله Fournel "من سيطرة البربر على إفريقية وعلى القيروان نفسها، بعد ثلاثين عاما من سيلان الدم العربي" موضحا، "أن هذا هو قصد المؤلف، وفرضيته (Thèse) تتنصر هنا، على ما يبدو، بدون منازع ممكن، لقد تسرع قليلا في الاغتياب، لأن البربر سيطروا على القيروان، وهذه حقيقة. فهل أن توسعا (Conquête) لامعا لمثل معسكر (camp) الناهيين هذا، ذي الموقع الرديء من نظرة البربري الإستراتيجية، تحصينه ضعيف جدا لدرجة أن سكانه هاجروه دون قتال ولم يتركوا فيه من غنيمتهم إلا التي لم يستطيعوا حملها أثناء انسحابهم، يصعب الدفاع عنه لدرجة أن كسيلة غادره بنوره في أول تهديد بالهجوم. هل وجود البربر في القيروان يعني أنهم سيطروا على إفريقية؟ بالطبع لا! لقد أوقع

(1) Les Berbères, T. 2, PP. 182-183

(2) Ibid, P. 181

الإخباريون العرب هنا، السيد Fournel في خطأ. وهؤلاء لم يلاحظوا إلا شيئا واحداً، هو أن قَتَلَ، عقبة بتهودة يعني أن الإسلام ضيَع إفريقيا. إن كسيلة هو الذي هزم عقبة، وكان لكسيلة شأن مع زهير قبل انسحابه، وتحت سيطرة كسيلة يوجد العرب الذين مكثوا في القيروان. ومن كل هذه الأمور استنتج (الكتاب) العرب أن كسيلة هو المسيطر على إفريقيا. وماذا كانوا يقصدون بإفريقية، بالضبط؟ إن غموض المصطلح يساهم أيضاً في تشويه الفكرة التي نُكوّنها لأنفسنا، عن القائد البربري: إذ يعني العرب بإفريقية، تارة، شمال إفريقيا بكامله، من سيرت إلى المحيط الأطلسي وطورا، السهل الممتد من قابس إلى الهضبة الموريطانية، مزاق (Bizacium)، بمعنى منطقة أقل من البلاد التونسية الحالية.... وعندما تشير (nous montrent) المصادر الشرقية إلى سيطرة كسيلة على إفريقية فهي لا تقول شيئا دقيقا: فإن كنا نميل إلى مساندة المجد البربري، يمكننا توسيع إمبراطوريته على شمال إفريقيا كلها، وإذا أردنا إدراك الواقع، إلى أقرب حد ممكن، ينبغي لنا تحديد سلطة كسيلة في السهل التونسي الحالي، على ضفاف واد زرُود وواد مرقليل (Merguellil) والتحفّظ على الباقي. وما هي إمبراطورية البربر مقلّصة جدًا. فالعرب أوقعوا السيد Fournel في خطأ متعلق بحجمها، وقد أخطأ هو نفسه، في أهميتها. لقد حاولتُ، في مكان آخر، أن أبين ماذا كانت حكومة البدو (des Maures) عندما كان محتلو (envahisseur) إفريقية يتركون لهم حرية حكم أنفسهم. إنه عملُ شخص لا يحمل إلا هم الحفاظ على وحدة ما لا يريد التفكك، وينصبّ كل جهده على تسيير قبيلتين أو ثلاث أو عشر، معاً، وهي لا تفهم، إلا نادراً، فائدة اتحادها. إن هذا ليس حكماً، ولا يمكن القول: إن الأراضي التي كان يحكمها، من قبل، جرجير والتي

نهبها العرب عدة مرّات، أصبحت الآن محكومة من كسيلة، فهي محتلة (occupé) فقط، وهذا يختلف كثيرا: فالقبيلة البربرية جاءت لتعوض الغوغاء العرب وسيذهب رجالها للبحث، في حطام الغزو، عن بقايا يكون العربي قد ازدرأها؛ وقادتها يتناوشون ويبحثون عن وسيلة حاذقة لتلافي دفع الضرائب أو الاحتفاظ بالنصيب الأكبر منها. إن كسيلة لم يحكم، بالمعنى الذي نعطيه لهذه الكلمة، ما احتله (Ce qu'il occupe) من مَراق (Byzacium)، لأن فعل حَكَمَ (Gouverner)، بالنسبة إلينا، معناه توقّع، فلو أن كسيلة حكم لاستشعر (présenti) عودة العربي الهجومية، ولأحترس منه... لم يفعل أي شيء. ومهما يكن فهو لم يمسك كل البلاد: فالبيزنطيون استمروا يحكمون، في حدود قوّاتهم، جزءاً مُهمّاً منها "في الواقع، كما يقول السيد Diehl، إن احتلال الإمبراطوريّين (les Impériaux) استمر بقوة في كامل الولاية (proconsulaire)، وفي حاشية مَراق الشمالية، وفي الجزء الأكبر من نوميديا: ففي نهاية القرن السابع الميلادي لم يكونوا يمسكون بكل قلاع الساحل فقط.... بل كانوا يملكون، أيضا، بداخل البلاد، عددا كبيرا من الحصون: فخط دفاع المقاطعة الثاني لم يكن بَعْدُ، مسّه أيُّ هجوم؛ وفي نوميديا كانت الحاميات موجودة حتى في القلاع التي كانت تَحُدُّ الأوراس؛ وبالإمكان الاقتناع بأن صلة رخوة جداً (lien assez lâche)، ولا شك، من التبعية كانت تربط مملكة (royaume) كسيلة البربرية بما تَبَقَّى من الإكزارخية (exarchat)، وفي كل الأحوال فإن تحالفا محدودا كان يربط الأمير الأهلي (indigène) بالإمبراطورية البيزنطية" فلحسن الحظ أن المؤلّف العالم (savant)، صاحب إفريقية البيزنطية، ضَبَطَ الأمور عندما بيّن لنا، في شمال مقاطعة إفريقية، قوة إغريقية نسيها العرب في الإضطراب

الذي أعقب تهودة، وإني أخاف أن يكون ذهب بعيدا، بعض الشيء، في اعتباره حكم كسيلة منظما ومنظما...⁽¹⁾.

ويتحدث Mercier E. عن "عیش المغرب، مدة خمس سنوات، في أمن، تحت سلطة كسيلة الذي عقد تحالفا بينه وبين الإغريق"⁽²⁾؛ ويقول Gautier "إن انتصار كسيلة هزّ حماس كل البلاد، وجعل منه، رئيس جميع إفريقية والمغرب"⁽³⁾.

ويذكر Marçais G. أن "كسيلة المنتصر على البطل المسلم، دخل القيروان، وسيطر عليها من سنة 683 إلى 686م"⁽⁴⁾ ثم يستأنف كلامه قائلا: "في تاريخ الاحتلال (Conquête) هذا الذي نحاول ضبط مراحل الرئيسية المجزأة جدا والمربية جدا والمضربة جدا بالأساطير، فإن السنوات الثلاث هذه التي كان، أثناءها، قائد بربري قوي، نمط من يوغرطة القرن السابع، مسيطرا على المدينة العربية الأولى في الغرب (occident)، تسجل فاصلا زمنيا عجيبا، يكون من المفيد وضع خط تحت خاصيته.... لقد دخل كسيلة القيروان، منتصرا، على رأس حشد (multitude) من البيزنطيين والبربر، وحكم هؤلاء مع العرب المستقرين بها وبالأراضي المجاورة، واعترف لهم بحق العيش فيها، مع الاحتفاظ بدينهم، وليس بديهيًا أن يكون، هو نفسه، قد تخلّى عن الإسلام الذي أدخله فيه أبو المهاجر، ولا تُعرف طبيعة العلاقات التي كانت تربطه بالبيزنطيين الذين ساعدوه على تحقيق الانتصار: أهو حسن الجوار، أم تحالف أم تبعية؟ إن الذي يبدو مؤكدا هو أن السنوات الثلاث

(1) Les premières invasions arabes, p. 140, sqq

(2) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 60

(3) le passé de l'Afrique du nord, p. 70

(4) La Berbérie musulmane et l'orient au Moyen âge, p. 32

هذه، حيث امتلك قائد أهليّ (indigène) هذه المملكة (Royaume) العربية البربرية الغربية، شاهدت أيضا الأيام الجميلة الأخيرة للمقاطعة الإمبراطورية، في حين أن قسطنطين الرابع تصدّى بنجاح إلى الجيوش الإسلامية في المشرق وأجبر الخليفة الأموي على دفع ضريبة سنوية له، من المال والعبيد والخيول، وبقيت حامياته تحتفظ بمواقع الساحل، من سوسة إلى بونة، وبقلاع الداخل، ولا شك⁽¹⁾

ويذهب الجنرال Brémont إلى القول: أنه، عند استقرار كسيلة بالقيروان، "لم يبق فيها أي عربي. واستمر احتلال الحاميات البيزنطية لقرطاجة وبعض المدن الساحلية" ويعتبر ش. أ. جوليان أن "كسيلة"، بعد دخوله القيروان، أصبح القائد (Chef) الحقيقي لإفريقية والمغرب الشرقي، لمدة ثلاث سنوات وأن البربر الذين اعتنقوا الإسلام تسارعوا إلى الردّة، مثلما فعلوا في غالب الأحيان: اثنتا عشر مرة في سبعين سنة، حسب نص معروف لابن خلدون. وبدأت إفريقية راغبة في استقلالها برئاسة قائد بربري، حول الأوراس حيث نبض قلب المقاومة البربرية⁽²⁾.

للعلم هنا أن Julien المتأثر كثيرا بـ Gautier (E.F.) أخذ عنه فرضيته (théorie) المبنية على أن "الأحداث الكبرى، من تاريخ كسيلة تجتمع حول الأوراس: حيث حقق انتصاره الكبير، وقتل سيدي عقبة، جنوب غرب الأوراس، بالقرب من بسكرة، وفقد العرش والحياة، شرق الأوراس، بين هذا الأخير والقيروان"⁽³⁾ وأن Masqueray "لا يتردد في تأكيد وجود صلة بين الأوراس الغربي وبين أوربة كسيلة، وهي فكرة

(1) Marçais G., Op. cit., p. 33

(2) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, pp. 19- 20

(3) Le passé de l'Afrique du Nord, pp. 267-268

معقولة لكنها ليست بديهية⁽¹⁾ ومع أن ابن خلدون "لا يحدد موقع أوربة الأوائل (Primitifs) في الأوراس، ولا في مكان آخر ... لكن يُستنتج من روايته للأحداث أن كسيلة وقبيلته أوربة لم تكن لهما ارتباطات بالأوراس فحسب، بل أيضا بالثلّ الوهراني، أي منطقة تلمسان وحتى رواق تازة. إن ... أبا المهاجر كان قد أسر كسيلة في "عيون تلمسان"، وبعد الهزيمة الكبرى (هزيمة كسيلة) لاحق العرب المنتصرون أوربة إلى ملوية، وسنرى بقاياها تستقر بوليلي (Volubilis) إن صورة الأرض، وشاح (écharpes) النجود المرتفعة، أقامت، دائما، صلة طبيعية بين الأوراس وبين ملوية؛ وقد يكون من المناسب التذكير بقيام مجموعة من أضرحة الأهالي، إلى اليوم (النصف الأول من القرن العشرين)، بجنوب غرب تيارت، في أعلى نهر ميني، تسمى جدار (Djeddar)، ومن الثابت أنها قبور أسرة حاكمة، معاصرة للاحتلال (occupation) البيزنطي،.... ومن الطبيعي الاعتقاد بأن أسرة بربرية حاكمة، قادرة على ترك آثار في أهمية جدار خلفها، تكون قد بسطت سيطرتها، شرقا، حتى الأوراس بل حتى حدود إفريقية البيزنطية. ومن الواضح أيضا أن إقامة جدار تفترض مساهمة المهندسين المعماريين البيزنطيين⁽²⁾. وهنا يتساءل Gautier ما إذا كان من حقه افتراض أن كسيلة وقبيلته أوربة كان لهما شيء مشترك مع جدار؟ مجيبا أن هذا ليس محالا، مع أن الفرضية لم تصدر أبدا. و هو لا يعرف لماذا، ويرى أن ذلك قد يعود، قبل كل شيء، إلى كونها مجرد فرضية، وبالتالي فهي

(1) gautier, op. cit., p.268., p. 268

(2) Ibid., pp 268-269

عديمة الفائدة⁽¹⁾. وهذا الكلام الذي يشك صاحبه نفسه في صحته، كما تبين، يسلّم به Julien وبناء عليه يجعل الأوراس مكانا لنبض قلب المقاومة البربرية ضد المسلمين.

وبالنسبة لمحمد طالبي " فإن القيروان.... أصبحت، من سنة 64 إلى سنة 69هـ/من 683 إلى 688م، عاصمةً لمملكة بربرية واسعة يحكمها كسيلة وقد أشار ابن عذاري (....) إلى أن كسيلة آمن المسلمين... وأقام أميراً على كافة سكان إفريقية والمغرب، بمن فيهم المسلمون، لا كراهية للأجنبي إذاً، ولا اضطهاداً ولا تعصباً دينياً، علماً أن هذه المعلومات أوردها شهود ليس لهم سبب يجعلهم يُدارون أعداءهم. وتمّ التأكيد لنا على أن كسيلة ذاته لم يكلف نفسه عناء الردّة، بعد انتصاره. وهذه الإجراءات تكشف، بكل وضوح، برنامجاً سياسياً كاملاً موجهاً، ولا شك، لانتزاع الحجة الدينية لغزو العرب، مرة أخرى، للمغرب"⁽²⁾.

وفيما يخصّ ما آلت إليه وضعية زهير في برقة، يعتقد Caudel أن السيد Fournel بين، بطريقة جيدة جداً، العلاقة الوطيدة التي تجمع شؤون المغرب بشؤون المشرق، خلال القرن الأول الهجري: يقول لنا كيف كانت ثورات بلاد الشام والعراق أو الحجاز تسترعي انتباه الخلفاء، لدرجة تجعلهم يهتمون تماماً بالمغرب. وقد أدت ظروف متشابهة إلى نفس النتائج سنة 64هـ/683م: ففي الوقت الذي قتل فيه عقبة، توفي الخليفة يزيد في ربيع الأول، من نفس العام وخلفه مروان بن الحكم، فوجد ولاياته مقلّصة إلى حدّ كبير: فعبد الله بن الزبير كان يدّعي الخلافة في مكة، ويسيطر على كامل الحجاز ويمدّ يده إلى مصر والعراق، في آن

(1) gautier, op. cit., p. 269

(2) Talbi M^{ad}, E I., n^{alle} éd., Leiden- Paris 1986, T 5, art. , Kussayla b. Lemzam, p. 522

واحد، وبعد شهر من توليته تمكّن من هزيمة والي بلاد الشام الثائر،
 بمرج راهط، وفي السنة الموالية تمكن من طرد ممثلي ابن الزبير من
 مصر، وفي نفس السنة 65هـ توفي وقد وجد خلفه، عبد الملك،
 الأمور أحسن قليلاً: فابن الزبير بقي مسيطراً على مدن الحجاز
 (villes saintes) والعراق لكن الخلافة الأموية استعادت مصر،
 ودخلت، بواسطتها، في اتصال مع مسلمي إفريقيا. وكان هؤلاء
 يستجدون بصوت عال، وحسب المؤرخين، فإن نداءهم وصل عبد
 الملك، الذي تجاوب (Cédant) مع إلحاح (pression) حاشيته
 (entourage) وصلوات عرب برقة، فأسند إلى زهير بن قيس قيادة
 حملة جديدة، لكن تاريخ تلك الحملة ليست مؤكدة، بصفة قاطعة
 (absolument)، بل إن البعض يشكون في حدوثها مثل Weil، صاحب
 كتاب Geschichte des chalifen الذي اتبع طريقة سطحية بعض
 الشيء، خاصة وأن المصادر التاريخية والجغرافية تزودنا، عن هزيمة
 كسيلة وموت زهير، بتفاصيل دقيقة، لا يمكن أن يوجد لها مكان في أية
 حملة أخرى، وهي على العكس تتطابق جيداً فيما بينها لتشكّل تفصيل
 (détail) حملة لها تاريخها وهيئتها (physionomie) الخاصة، فمن
 المستحيل إذًا، جعلها محل شك، وعلى أكثر تقدير يمكن مناقشة الوقت
 الدقيق الذي حدث فيه، ويجعله أغلب المؤرخين عام 69هـ / 688 م،
 ويستشهد (cite) السيد Fournel بياقوت وابن الأثير وابن عذاري
 والنويري وأبي المحاسن ومولى أحمد الذين ينكرون هذا التاريخ ويقبل
 شهادتهم التي يخالفها ابن خلدون، وحده، الذي يشير إلى تاريخ 67هـ /
 686 م، ولم يجد صاحب كتاب البربر (l'auteur des Berbères)
 صعوبة في إلحاقه برأي زملائه، ملاحظاً بدقة أنه (ابن خلدون) يُبيّن

كسيلة وهو يحكم إفريقية، مدة خمس سنوات وبالتالي فإن حكمه الذي بدأ سنة 64 لم يسقط إلا سنة 69هـ/688م⁽¹⁾.

ويعتقد Fournel أن نتائج الأحداث الرئيسية التي أجمل (esquisser) الحديث عنها بسرعة "كانت لصالح قضية ابن الزبير؛ أما بالنسبة لعبد الملك فقد استفاد من القضاء، تقريبا، على أخطر أعدائه، وهم الشيعة، دون أن يتطلب ذلك تدخله الشخصي. وهذا ما يعنيه، ولا شك، ابن عذاري بقوله، وهو يتحدث عن خليفة دمشق: "عندما توطدت سلطته، اجتمع كبار حاشيته للإلحاح (le presser) عليه كي ينجذ إفريقية..." فاقنتع الخليفة بالفكرة الحميدة لكن الحذر اقتضى تأجيلها... ثم تقرر إرسال حملة. وكان الأمر يتعلق، قبل كل شيء، بإيجاد الرجل القادر على تحقيق مسعاها، وبصوت واحد عيّن زهير بن قيس البلوي كأجدر مَنْ ينتقم لدم عقبة ولهزيمة تهودة.... فأرسلت إليه تعزيزات عسكرية (renforts) وأموال وانطلق إلى القيروان⁽²⁾.

ويرى Caudel أن المالكي يبدو مخطئا، عندما بين لنا أن مروان هو الذي عقد الاجتماع (بالحاشية) وأن عبد الملك هو الذي اتخذ الحل، ويظهر له، بالأحرى أن المالكي بقي وفيا لتسلسل الأحداث، دون أن يذكر ذلك التسلسل، بما فيه الكفاية، وقد يكون مروان حوَصِر بالتماسات خاصة بمشروع القيام بحملة جديدة على إفريقية، ولم يستطع الموافقة عليه، وإنما كان ابنه، وحده، هو الذي فكر في تنظيم الحملة، ويقم لنا صاحب البيان الرواية نفسها، عن هذه الظروف، ويحدّد وقوعها في خلافة عبد الملك⁽³⁾.

(1) Fournel, les Berbères, T. 2, p. 144 : انظر : Les premières invasions arabes, P.135 sq

(2) Les Berbères, T. 2, pp. 194-195

(3) Les premières invasions arabes, p. 139

وكان اختيار زهير لقيادة هذه الحملة يفسر نفسه: فزيادة على أن هذا القائد عُرف بالصفات التي أشار إليها المالكي: "فهو من عباد الله الصالحين ومن أشرف المجاهدين"، فقد كان قريبا جدًا من مسرح الأحداث، وكان بقايا جيش عقبة تحت تصرفه، وباختصار فإن عبد الملك لم يكن في وسعه سوى إيقاعه في منصبه، بإعطائه أمر التحرك. ويبدو أن هذا الأمر أُسرّ كثيرًا زهيراً⁽¹⁾.

ويذهب م. طالبلي إلى القول: "إن موجة الاحتلال (Conquête) لم تكن بعدُ (بعد هزيمة تهودة) قد نفذت، وعندما هدأت الأزمة التي ظهرت في المشرق مع ثورة ابن الزبير، عاد زهير إلى ولاية إفريقية"⁽²⁾.

وحاول Caudel رسم صورة لحال (aspect) إفريقية عند بداية غزو (invasion) زهير فتحدّث عن بقاء تنظيم بيزنطي محكم في الشمال حيث توجد دفاعات جدية وسلطة مطاعة إلى حد بعيد؛ أمّا في الجنوب، في مقدّمة خط القلاع، وسط السهل، فتوجد القبائل البربرية مصطفة، تقريباً، تحت أوامر كسيلة تشكّل، دون أن تعلم، طليعة المسيحية ضد الإسلام: فالبيزنطي الماكر ترك لها هذا الموقع الخطير الذي لم يعد ينشغل باحتلاله، وهي لم تتحصن: إمّا من باب الجهل أو من باب الغطرسة وسيفاجئها هجوم زهير.⁽³⁾

ولم يُصدّق نفس المؤلف ما أورده المالكي من أن خبر زحف زهير لم يبلغ كسيلة إلاّ عندما اقترب القائد المسلم من القيروان، معتقداً "أن غموض (le vague) الحملة العربية سيجنب، هذه المرة أيضاً مؤلفها، الدعوى التي كنّا سنقيمها على كاتب أكثر دقة، و"الاقتراب من

(1) les premières invasions arabes, p. 139.

(2) E.I, n^{de} éd. Leiden- Paris 1986, T.5, art. Kussayla b. Lemzam, p. 522

(3) les premières invasions arabes, p. 144

القيروان" عند الحديث عن برقة يعني تجاوز قابس، وهذا هو المعنى الذي نعطيه له⁽¹⁾.

ويردّ Terrasse H. سبب إرسال خلفاء دمشق لحملة زهير إلى كونهم لم يستطيعوا أن يتراجعوا، دون أن يعرضوا سمعتهم إلى خطر كبير، وكانت الأسرة (dynastie) الأموية، آنذاك، في أوج قوتها، وكانت لديها موارد كبيرة من المال والرجال، غير أنه كان لابد من أربع سنوات حتى تتمكن الحملة التي أعدها عبد الملك، من غزو إفريقية، من جديد، سنة 688م...⁽²⁾.

ويعتقد Julien أن "العرب لم يستطيعوا البقاء على هذا الفشل (فشل تهودة). وقد يكون الخليفة عبد الملك أجل الانتقام بسبب الصراع مع عبد الله ابن الزبير القوي ... ثم استغل فرصة هدوء لإرسال جيش بقيادة زهير ابن قيس..."⁽³⁾.

ويلخص Fournel ما ورد في المصادر العربية عن وقوع الصدام بين زهير وكسيلة مبيناً أن هذا الأخير "رأى أن عليه مغادرة القيروان وانتظار العدو في مكان أنسب، لأنه كان يخشى، إذا تحصّن بها، أن يقدم العرب الكثيرون الذين بقوا فيها، على مساعدة محاصرة، وقد بقي القائد العربي من جهته، أمام المدينة ثلاثة أيام، دون أن يدخلها: إما احتراساً من مكيدة محتملة أو لترك جنوده يستريحون، وفي اليوم الرابع انطلق نحو النقطة التي أقام فيها كسيلة معسكره... قرب قرية ممّس (Mames) (الواقعة على مرحلة من شرق سبيبة Sabibah)"⁽⁴⁾.

(1) le premières invasions arabes, p 144.

(2) Histoire du Maroc, T. 1, p. 83

(3) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 20

(4) Les Berbères, T. 2, p. 195

ويرى Caudel أن "ما كان كسيلة يبحث عنه بانتقاله نحو الغرب (إلى ممس) ... هو ... الهضبة الموريطانية والتضاريس المتحركة (Mouvementés) التي تخذها، وطريق سببية الذي يكون قد اتبعه هو المباشر الذي يؤدي إليها، وهو ينطلق من القيروان ليقطع حوالي عشر فراسخ، في سهل، ثم يدخل بين خاصرتي (contreforts) جبل أوسلات (Ousselet)، شمالا، جبل طروزة (trozza) جنوبا، والجبلان بتركان بينهما شعبا (Gorge) ضيقا جدا لكي تستطيع مؤخرة جيش منسحب الدفاع عن الممر بسهولة، ويبقى الطريق، فيما بعد وعرا، غير متساو ومتعرج، ثم يقطع منطقة العلاء (Le pays d'él-Ala) وتأتي في الأخير، منطقة وادي الخطب الغابية، وعند صعود مجراه تقع سببية ... لم يكن في وسع كسيلة اختيار موقع أفضل، فواد الحطب له مجرى دائم ومنسوب مائه كاف، والبلد يوفر الخشب والمؤن (vivres) بكثرة، وله أيضا مراعي ..."⁽¹⁾.

ويقول م. طالبي: "إن كسيلة، الذي لم يكن متأكدا من ساقته (ses arrières) بالقيروان، اختار الذهاب إلى ممس، على بُعد 50 كلم غرب العاصمة، والانتظار هناك ... في منطقة يمكن أن توفر له جبالاً فيها ملجأ، في حالة الهزيمة"⁽²⁾.

وقد أدى مقتل كسيلة في المعركة، حسب Fournel، إلى "هزيمة تم فيها القضاء على حشد من البربر والروم الذين لاحقهم العرب إلى وادي ملوية، كما يزعم ابن عذاري، وهذا قليل الاحتمال"⁽³⁾.

(1) Les premières invasions arabes, pp.145- 146.

(2) E. L., n^{elle} éd., leiden - Paris 1986, T.V, art. Kussayla B. Lemzam, p. 522.

(3) Les Berberes , T.2, p72 sq

وفي رأي Mercier أن "معركة واحدة حاسمة، وقعت بممّس، قرب رافد علويّ لنهر مجردة، أنهت حملة زهير الذي لاحق أوربة، باعثة (Promoteurs) التمرد (révolte)، وطردّها من خيامها (Campements) أمامه إلى عمق المغرب حيث أقام بقاياها في الجبال المجاورة لوليلي"⁽¹⁾.

ويقتبس Caudel ما أورده كل من المالكي وابن الناجي، من أن العرب لا حقوا أعداءهم بعيداً (si loin) حتى سقوا حيادهم من مياه ملوية، نهر طنجة، وغزوا (conquirent) شقبنارية وقلعة أخرى "مستخلصا أن مدينة (sicca vénéria)، الكاف الحالية، تقع على بعد سبعين كيلو مترا شمال سيبية، ويمتد بينهما طريق يؤدي، من مْزاق، إلى وادي بقرادة (Bagradas)، وأن الاستيلاء على Sicca محتمل أكثر بكثير من الزحف حتى ملوية، ومع ذلك، ليس له اعتراض كبير على الرأي الأخير: إذ قُتل كسيلة وانحبس الروم في قلاعهم، فمن يستطيع منع السرايا العربية من القيام بما قام به عقبة من قبل ؟ لقد رأيناهم، قبل ذلك، انطلقوا بسرعة كبيرة عبر الموريطانيّتين (Les Mauritanies)، وحملة 69 هذه كانت أقل صعوبة وأقل خطرا عليهم من حملتي: 57 و63هـ، لأنّ قوة البربر كانت قد شلّت مؤقتاً⁽²⁾، وفي مكان آخر يقول، نفس المؤلف، إن "تخطيم القوة البربرية كان، هذه المرة، من عمل زهير بن قيس، لقد حصلت حملته، التي لا يوليها المؤرخون المحدثون أهمية تُذكر، على هذه النتيجة الكبرى، فبهزيمة كسيلة وقتله، أعدّ زهير سقوط القوة الإغريقية، لأنه حطّم مقدمة الجيش (Le corps avancé) التي

(1) Histoire de l'établissement des arabes, p.60.

(2) Les premières invasions arabes, pp.146- 147

كانت تدافع عن الولاية البيزنطية (proconsulaire) أفضل من خطّ القلاع الأمامية (Le Limes)، وفتح طريقها لخلفه⁽¹⁾.

ويذكر Fournel أن زهيرا، بعد انتصاره، دخل القيروان التي غاب عنها، مدة طويلة "وربما كانت تنتظره مهمة ثقيلة : فالبربر سيطروا على البلاد، خمس سنوات، وبالإمكان التأكد أن الإدارة العربية، في النقاط المختلفة، تم مَحْوُها بالكامل، تقريبا، وأن كل شيء كان يحتاج إلى إعادة تنظيم، ويبدو أيضا أن هزيمة كسيلة لم تكن متبوعة بتهدئة كاملة، فابن خلدون يقول: "إن حملات أخرى ذهبت متتالية من القيروان ونجحت، أخيرا، في إخضاع البلاد بكاملها " بل إن البلاذري يؤكد أن زهيرا غزا (conquit) تونس، ربما لمعاقبة الروم عن مساعدتهم للبربر. لكن كم كانت مدة ولاية زهير؟ إن كان الإخباريون العرب يقدّمون (présentent) قحطا متزايدا عن أعمالها، فإنهم صامتون، تماما عن مدتها، نفس القائد، الذي انتظر، في صبر ببرقة، مدة خمس سنوات، الأوامر والإمدادات، التي حالت اضطرابات المشرق، دون إرسالها إليه، والذي تمكن الآن من استرداد إفريقية للأمويين، صوّر لنا فجأة، وكأنه يتفحص سلوكه السابق، وكأنه يرتعش من كل أهوال ضمير متورّع، أمام مسؤولية ولاية (un gouvernement)⁽²⁾. ويقف Fournel عند الأسباب التي أوردها كل من ابن عذاري والنويري وابن خلدون والقيرواني في هذا الشأن، معلقا: أن نصوص هؤلاء تتفق على رسم حالة ذهن زهير وعلى إطلاعنا عن اتخاذ قرار مغادرة القيروان ولكن، لا أحد من المؤرخين العرب قدّم اسم المساعد الذي أسندت إليه القيادة أثناء

(1) les premieres invasions arabes, p.155

(2) Les Berbères , T.2, p 196

تلك المغادرة ولا تاريخ حدوثها، نعرف فقط، عن طريق ابن خلدون أنه ترك الأمور آمنة في القيروان، وأن كثيرا من أصحابه مكثوا فيها⁽¹⁾. ويلاحظ Caudel أن المالكي يصور لنا البلد آمنا، مباشرة، بعد الغزو (Conquête)، وهو وسيلة لتفسير سفر زهير بن قيس المفاجئ إلى المشرق، بالنسبة لمؤلف حياة الأولياء هذا الذي لا يريد دفع ولي (saint) إلى ارتكاب خطأ : فمغادرة زهير القيروان، والثورات تهدده من كل ناحية، معناه أنه قائد غير مبال بواجبه، لكن مغادرته ولاية مزدهرة ومجزية يعني أنه شخصية فاضلة، اختارت حياة الناسك المتأمل الزاهد، عن بدّخ (Faste) السلطة⁽²⁾.

ويعلق نفس المؤلف على ما ذكره Fournel من " أن البربر سيطروا على البلاد، خمس سنوات، وبالإمكان التأكد أن الإدارة العربية في النقاط المختلفة، تمّ محوها بالكامل، تقريبا، و أن كل شيء يحتاج إلى إعادة تنظيم" قائلا: لا ينبغي المبالغة في أهمية العمل (tâche) الذي تحتم على زهير وعلى مساعديه، وإني أجد هنا انشغالا دائما لكتابنا الغربيين، لأنهم تعودوا رؤية تنظيم دقيق رياضي مستمر، منذ القديم لديهم، يريدون أن تكون، دائما، في إفريقية إدارة وحكومة: فالسلطة (pouvoir) البيزنطية سبق وأن سقطت، لا بد وأن السلطة (autorité) العربية عوضتها مباشرة وإذا كان العربي طرد (chassé) فإن البربري هنا سينظم (ordonner) عوضا عنه، ويعود العربي سنة 69هـ — و سيعيد التنظيم، أنها نفس الفكرة التي دفعت السيد (Diehl) إلى الحديث عن مملكة بربرية والتي أوحى إلى السيد (Fournel) شكوكا حول السير

(1) les Berbères, pp. 196-197

(2) Les premières invasions arabes, p.150

الحسن للإدارة العربية، . لقد بَيَّنْتُ، فيما سبق، ماذا يمكن أن تكون مملكة بربرية، وفيما يخص الإدارة العربية فهي بسيطة لدرجة جعلها سهلة النقل، إنها تقتصر، في مجملها، على موظف، أمير حاكم، وقاضي. والوثائق تتكون من سجل (registre) واحد، هو ديوان الخراج، وحتى وإن ذهب الأمير ما وراء قابس ومعه سجله، فإن الإدارة العربية وُجِدت، ولم تترك من آثار، في ذاكرة الأهالي، سوى ذكرى محرقة لغرامة ثقيلة، مأخوذة بوسائل بسيطة وحازمة، وهذا التنظيم البدائي يتنقل بسرعة نادرة ويعود أسرع مما ذهب لكن لا يشغل الأرض من تلقاء نفسه، وسيختلف الأمر عندما يعتنق جميع الأهالي (indigènes) الإسلام، ولم ينجح زهير، في هذا الصدد، أكثر من سابقيه، لقد قَلَّدهم و لم يفعل أكثر منهم، فالحملة التي قادها مرت خَفِية بسهولة، وكان هناك مَتَسِع من الوقت للشك في حدوثها، وهي لم تقدم علامة (trait) لم تَسْبِق لنا معرفتها...: دخول مفاجئ في بلاد مفتوحة على مصرعيها، انسحاب جيش الدفاع، نهب (pillage) أقل إثماراً (moins fructueux)، بطبيعة الحال، لأنه لم يكن الأول، تَوَقَّف في مكان الراحة الذي تشير به الطبيعة على العرب، ملاحقة العدو، قتال، هروب البربر، استئناف النهب، شن غارات (incursions) في كل مكان لا تستطيع فيه القوات المنظمة عرقلة الأخذ المُنْتَهَج للغنيمة.... وكفي وجود خطٍ من القلاع المملوءة بالجنود لإيقاف الاستكشافات العربية، لكن الحاميات (garnisons) لم تشعر أن أعدادها كافية لمحاولة الخروج، في حين كان المحتلون يركضون على طول خط الدفاع، دون محاولة اختراقه، وهكذا نجت الولاية البيزنطية (Proconsulaire) من السلب، في حين عانت منه الموريطانيان الأكثر

بعدا. وعندئذ فإن القائد العام المتعب من الحرب والميال إلى الحياة التأملية، ترك ولايته وعاد إلى الشرق⁽¹⁾.

وبالنسبة لـ Mercier E. فإن البلاد لا يمكن أن تخضع بنجاحات عابرة وجزئية (كالنجاح الذي حققه زهير) بصفة دائمة فالبربر كانوا يخضعون، في كل جهة يمر بها العرب، وبمجرد ابتعاد أسيادهم (Maîtres) يتمردون ويرتدون، ولم يكن ما مع زهير من الجيش كافيا، لأن الخليفة، عبد الملك، كان منشغلا كثيرا في بلاده (chez lui) حتى يتمكن من إمداده بالمقاتلين، فرجع القائد العربي إلى المشرق، متخليا عن المهمة المستحيلة التي أسندت إليه⁽²⁾.

وذهب Gautier إلى القول: إن زهيراً وجد أمامه، في المعركة التي قتل فيها كسيلة، جيشا مكونا من البربر و الروم... وهلك المحاربون الأكثر شجاعة، من الروم والمشركون في هذه القضية (affaire)⁽³⁾؛ وفي مكان آخر يشك نفس المؤلف فيما " يؤكد المؤرخون العرب، من أن انتصار زهير كان حاسما، وأن البربر المنهزمين ألحقوا بعياء، مادام العرب، حسب شهادتهم، هم أنفسهم، غادروا مرة أخرى إفريقية..."⁽⁴⁾.

في حين يرى. Marçais G أن " زهيراً الذي لم يأت إلا للقتال في سبيل الله" اكتفى بترك حامية في القيروان وعاد إلى الشرق..."⁽⁵⁾. ويرد الجنرال Brémont مغادرة زهير لإفريقية، بعدما تقدم غربا حتى ويلي (volubilis)، إلى اضطرابه، أمام هجمات البربر

(1) Les premières invasions arabes, pp. 148- 149.

(2) Histoire de l'établissement des arabes, pp.60-61

(3) le passé de l'Afrique du nord, p.273

(4) Ibid, p. 70

(5) La Berbérie Musulmane et l'orient au Moyen Age, p. 33

عليه (1). وهو نفس الرأي الذي يذهب إليه، تقريبا. H Terrasse قائلا: "إنه لمن المستحيل كتابة تاريخ ولاية زهير القصيرة، ما دامت المصادر متناقضة، وإن ثورات جديدة أجبرت المسلمين على مغادرة إفريقية وانسحب زهير نفسه إلى برقة" (2).

ويعتبر ش. أ. جوليان "هزيمة زهير لكسيلة نسبية، لأن زهير انسحب، دون أن يترك حامية في القيروان" (3)؛ كما يعتبر م. طالب أن "المعركة ... كانت لغير صالح كسيلة إلا أنه يجب الاقتناع أنها لم تكن حاسمة إلى الدرجة التي تزعمها مصادرنا، لأن زهيرا، في الواقع، حتى ولو انتصر، فضل، مغادرة البلاد، من جديد، حتى ينأى بنفسه عن مغريات خيرات هذا العالم، كما قيل لنا " ... إن محاولة كسيلة تأسيس إمبراطورية كبيرة تحكّم، من المدينة التي أسسها عقبة بن نافع، لو نجحت لأخذ تاريخ المغرب، ولا شك، منعرجا آخر، لكن (طالبي تساءل عما إذا) كان البربر، آنذاك، ناضجين لمثل هذا المشروع؟" (4).

ويرجع H. Fournel ما ذكره ابن عذاري و النويري، من أن "خلقا عظيما" اتبع زهيرا إلى المشرق عما زعمه مؤرخون آخرون، من أنه كان على رأس مجموعة صغيرة (une petite troupe)، ويرى أنه من المسموح به الشك في نزاهتهم والاعتقاد أنهم رغبوا في تقليل أهمية النكبة التي أعلنوا عنها في الرجوع؛ ومن هؤلاء ابن عبد الحكم الذي لم يجعل معه سوى حراسه (escorte) من سبعين فارسا والقيرواني الذي

(1) Berbères et Arabes , p.183

(2) Histoire du Maroc ,T.1,p.83

(3) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, ,p. 20.

(4) E. I., n^{elle} éd., leiden - Paris 1986, T.V, art. Kussayla B. Lemzam, p. 52.

نسق (arranger) روايته بطريقة، لا تترك، أيضا إلا حراسة قليلة مع زهير⁽¹⁾.

ويعتمد الكاتب المذكور على ابن عذاري أيضا، في قوله: "إن الروم، عندما علموا أن زهيرا غادر إفريقية في اتجاه برقة أبحروا بأسطولهم الذي أنزل جيشا في هذه النقطة من تلك المنطقة (Cyrénaique)، وإن زهيرا عندما وصل بجيشه، وجد البلد قد خرب (saccagé) والسكان قد قُتلوا (massacrés) أو أُسروا وكُتسوا في المراكب المسيحية، فأصدر الأمر مباشرة بالقتال للإسراع في تخلص المسلمين، لكن الروم المتفوقين في العدد دحروهم، فقتل زهير ومعه الأشراف الذين كانوا يرافقونه"⁽²⁾.

ويسجل Fournel بدون تعليق، أن النويري "يزعم" أن الأسطول البيزنطي زحف عليها من صقلية وأن ابن خلدون لم يقدم أية تفاصيل، وأن ابن عبد الحكم وأبا المحاسن (ابن تغري بردي) حدّدا تاريخ موت زهير بسنة 76 هـ، مع أن هذا الأخير جعل دخول حسان ابن النعمان، خليفة زهير، سنة 57، في مقطع أول، وسنة 69 في مقطع ثانٍ⁽³⁾.

ويقتبس Caudel ما أورده البلاذري عن مقتل زهير، لكنه فضل ما جاء في كتاب معالم الإيمان، لمحمد بن الناجي، لأنه بدأ له أكثر وضوحا وقابلية للفهم ومضمونه "أن الروم انتهزوا فرصة ذهاب زهير للهجوم على برقة، فقاموا بتحويل (diversion) للهجوم الذي قام به القائد العربي، في نفس الوقت، على إفريقية، وكانت طريقتهم

(1) Les Berbères , T.2, p.196 et note 1et2

(2) Ibid,p.197

(3) Ibid, p. 197, note 2

(tactique) سعيدة: إذ استولوا على المدينة ووصل خبر استسلامها
لزهير، وهو عائد إلى المشرق، فترك الغالبية من جيشه تواصل طريقها
ومال (faisant un détour) هو، مع نخبة من فرسانه فوقع ببرقة،
وسط قوات إغريقية أبانته هو ومجموعته⁽¹⁾.

ويلق Caudel قائلا: إن الأمير، في هذه الحالة، لم يُبرهن على
يقظة كبيرة، ملاحظا أنه: "القائد المسلم الثاني الذي نراه يذهب بهذه
الكيفية، خلال انسحاب، إلى تقديم رأسه مطأطأة في كمين، وقد تأثر
العرب بنكبة (désastre) برقة بقدر ما تأثروا بنكبة تهودة... وبعدها
لاحظ أن هناك خطأين احترابيين (tactiques)، راح يتساعل ما إذا كانا
منسوبين إلى القائدين الذين كان ضحيتيها؟ ثم يجيب بأنه من الصعب
التصديق أن رجلين قادا بمهارة حملات حربية، يمكنهما ارتكاب أخطاء
كبيرة كهذه، وهما يقودان انسحابا: فالمؤرخون يبرزون لنا عقبة، قبل
تهودة، وزهير، قبل برقة، تاركين جيشيهما يذهبان أمامهما أو في
حاشيتهما، ثم يسيران بنفسيهما نحو عدو جديد، فهذان القائدان، حسب
أولئك المؤرخين، قد يكونان تركا الجيش (يذهب بدونهما)، ألا يكون
الجيش، على العكس من ذلك، في الحالتين، ترك قائديه؟ لننتذكر الحذر
البارز الذي يُظهره الجيش العربي، عندما يكون محملا بالغنيمة، فهو لا
يخاطر بأي شيء، ويتفاوض مع العدو عن طيب خاطر، ويتفاداه على
الخصوص، برشاقة، ويسجل نفورا كبيرا من القتال، فجيش عقبة كان قد
نهب الموريثانيين، قبل طنجة، وهو يتعجل لوضع مادة نهبه في مأمّن
بالقيروان، أو أبعد من ذلك إن كان الأمر ممكنا، وجيش زهير يتسارع،

(1) Les premières invasions arabes, pp. 149- 150.

قبل برقة، نحو مصر، وبلاد الشام لنفس السبب، وفي الحالتين فإن الإعلان عن قتال جديد ليس فيه ما يعجب غالبية الجيش، التي أطفئت حماسها الحربية، ولم يعد يفكر في القتال إلا القائدان وحدهما، ومعهما السيّافون المحنّكون، ولم يعد للأمير سلطة سوى على هؤلاء، وقد بيّنت تجربة كل الأزمنة وكل البلدان، بوضوح كبير، أن جيشاً نهّب لم يعد جيشاً وإنما أصبح قافلة أمتعة، تعود من الطريق الأقصر إلى الإقليم الذي انطلق منه العسكر، وفي مثل هذا السير تضعف سلطة القائد، ويُسمع كلامه، فقط، إن دلّ على طريق بلد الازدياد، ووافق على التحول إلى خبير (stratège) إدارة المراحل، ولكن إن تحدّث عن ترتيب الوحدات للقتال يتهرب الناس من حوله، وإن أراد تغطية الانسحاب أو القيام بمشروع جديد، فهو لا يجد حوله سوى نخبة صغيرة، يقودها نظامها وشجاعتها مباشرة إلى الموت، وهكذا هلك زهير ببرقة⁽¹⁾.

وفي رأي (E. F.) Gautier فإن زهيراً، عندما قُتل أثناء انسحابه (retraite) "بمنطقة طرابلس، على الطريق الذي يحادي البحر، لم يقتله البربر ولكن قتله الروم الذين أنزلهم أسطول كبير، وجيّد التجهيز، يعني جهّزه البيزنطيون الذين أخطروا، بطبيعة الحال، وكانوا يعملون باتفاق مع البربر، وعندما علموا أن زهير انطلق من إفريقية نحو برقة، كما يقول البيان، انتهزوا هذه الفرصة"⁽²⁾.

(1) Les premières invasions arabes, pp. 149- 150

(2) le passé de l'Afrique du nord, p.273

ويكتفي. E. Mercier بالقول: إن زهيراً "اصطدم، في برقة، بجيش إغريقي قام بعملية إنزال في إفريقية، وقُتل مع كل مرافقيه وهكذا استعاد البربر استقلالهم"⁽¹⁾.

ويقول Marçais G.: "إن وصول زهير إلى برقة كان في الوقت الذي أنزل فيه أسطول بيزنطي كبير جيشاً نهب البلاد منتهزاً، ولا شك، فرصة الانقاصات (prélèvements) التي مست جيش الاحتلال، لغزو (envahir) إفريقية، فخاص زهير ضده معركة قُتل فيها مع قادة عرب كثيرين"⁽²⁾ واكتفى Terrasse بقوله "إنه هُزم وقُتل ببرقة"⁽³⁾ كما اكتفى Julien (Ch. A.) بالقول "إنه فوجيء وقُتل (بها)"⁽⁴⁾ وتساءل م. طالبي عما إذا لم يكن الأمر متعلقاً بعملية مُرتبة تهدف إلى أخذ العرب في المصيدة الإفريقية ولكنها لم تتجح لأن تتسببها كان ردنا؟"⁽⁵⁾.

- ولاية حسان بن النعمان الغساني على بلاد المغرب:

في حديث Fournel H. عن الحملة العربية الخامسة على إفريقية، يقول إنه "بعد مرور ست سنوات على هلاك زهير الباسل (vaillant) كلّف الخليفة، سنة 77 هـ، حسان بن النعمان الغساني بالثار لهزيمة الأسلحة الإسلامية هذه"⁽⁶⁾ ويُذكر بما سبق له وأن لاحظته عن غموض تاريخ دخول حسان إلى إفريقية معللاً التواريخ الكثيرة التي حُدثت لذلك الحدث، وخاصة التباعد (écart) بينها، بعدة أسباب، منها: الشك في

(1) Histoire de l'établissement des arabes, p.61

(2) La Berbérie Musulmane et l'orient p. 33.

(3) Histoire du Maroc, T.1, p.83

(4) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 20.

(5) E. I., n^o éd., leiden - Paris 1986, T.V, art. Kussayla B. Lemzam, p. 522.

(6) Les Berbères, T.2, p209 sq

تاريخ نكبة برقة، وسكوت المؤلفين البيزنطيين عن تلك المعركة، مع أنها كانت في صالح الجيش الإغريقي؛ والخلط (confusion) بين حملة زهير وبين حملة حسان، ونسيان مختلف مراحل الصراع الذي نتج عنه استيلاء العرب نهائياً على قرطاجة⁽¹⁾.

وعن تعدد تلك التواريخ وابتعادها عن بعضها يقول Fournel: "إن أبا المحاسن (ابن تغري بردي) يُدخل حساناً إلى إفريقية سنة 57، في حين أن أبا المهاجر (كما تبين سابقاً) هو الذي كان يحكم إفريقية سنة 57؛ وهنا يوجد خطأ قد يكون تسبّب في خطأ القيرواني ... ويذكر أبو المحاسن نفسه أن عبد العزيز بن مروان كلف حسان بن النعمان الغساني بغزو (envahir) إفريقية سنة 69؛ في حين أن زهيراً، كما سبق وأن قلنا، هو الذي كلف بالثأر لموت عقبة، وهنا يظهر الخلط بين حملة زهير وحملة حسان التي جاءت بعدها، فضلاً عن ذلك فإن البكري حدّد تاريخ ذهاب حسان إلى إفريقية بسنة 68، وحدّد الرقيق بسنة 69 وتبعه في ذلك ابن خلدون، ومولى أحمد لكن ابن الأثير ينقلها إلى 74 ثم إن ابن عبد الحكم، وبعده القيرواني، يترددان بين 76 و77 وأخيراً يجعلها ابن عذاري سنة 78، وقد أخترت، كما يتبين، أحد التاريخين اللذين، أشعار إليهما أقدم هؤلاء المؤرخين جميعاً"⁽²⁾.

ويضيف نفس المؤلف أن ابن خلدون "يُزعم أن حساناً كان والياً لمصر لكننا رأينا أن عبد العزيز، أخا عبد الملك، قد عُيّن في تلك الولاية سنة 65، والمعروف حسب أبي الفداء وأبي المحاسن اللذين يكونان قد

(1) Les Berbères , T.2, p209 sq

(2) Fournel: Op: cit., p.210, note1 Ibid, p. 210, note 2

اقتبسها عن ابن عذاري، أن هذا الأمير احتفظ بها، مدة عشرين سنة، إلى أن مات سنة 85، وبالتالي، لا يمكن التسليم (admettre) بأن حسان بن النعمان كان واليا لمصر في أية سنة من السنوات التي تفصل سنة 65 عن سنة 85، بل أكثر من ذلك، فقد يكون عبد العزيز هو الذي استقدم هذا القائد إلى ولاية إفريقية...»⁽¹⁾.

وقد " أرسل حسان، أولا، إلى مصر، مع أربعين ألف رجل، فأقام بها بعض الوقت وهناك أبلغه عبد الملك أوامره في رسالة قائلا: " إنني أضع تحت تصرفك أموال مصر... " وهذه الانطلاقة من مصر هي التي دفعت إلى الاعتقاد، خطأ، أن حسانا كان واليا لهذه المقاطعة".

وفي رأي Eournel H. أن المؤرخين الغربيين اعتقدوا أنهم مجبرون على الانحياز لهذا المؤرخ أو ذاك، فيما يخص تاريخ تعيين حسان على ولاية المغرب، وقد فعلوا ذلك دون محاولة الدفاع على الحل الذي كانوا يتبنونه: فالسيد Fournel اختار سنة 77، اعتمادا على رأي أقدم مؤلف رجع إليه، ويشير Amari إلى 74-75هـ / 693-694م، حسب (sur la foi) ابن الأثير، دون أن يذكر لنا لماذا بالضبط، ويبدو أن ذلك تم تحت انطباع (sous l'impression) أحداث المشرق التي تُعطي، في الواقع، بعض الاحتمالات إلى رأيه؛ أما weil فقد اعتمد تاريخ 73هـ/692م كما أورده ابن عبد الحكم⁽²⁾.

وقد بدا لـ Caudel أن محاولة التوفيق بين المؤرخين العرب يكون أكثر حكمة من مقابلة بعضهم بالبعض الآخر، ويمكن التوصل إلى ذلك هكذا: ألم يخلط هؤلاء المؤرخون بين حدثين متتاليين: تعيين حسان

(1) Fournel, op. cit., p. 210, note a

(2) Ibid., p. 211

والهجوم الذي قاده على الممتلكات البيزنطية؟ وقد يعود تاريخ 69 إلى أول تلك الأحداث، وتواريخ 73، 76 أو 78 إلى ثانيها. وبكل تأكيد، فإنّ الشك يبقى قائماً، ما دامت التواريخ الثلاث بقيت تُعرض علينا، عن هذا الحدث الأخير، لكننا نقرب أكثر من الحقيقة، ولنكتفي بهذه المقاربة، وهناك حقيقة مكتسبة هي، أنّ العرب الذين دخلوا إفريقية مع زهير، تركوا ذويهم بالقيروان، وبعد وفاة الأمير كان لا بد من تعيين رئيس عليهم: فاختار لهم الخليفة، فوراً، (حسب رواية المالكي) حسان بن النعمان الذي ذهب مباشرة لاستلام منصبه مع الجيش الذي زوّده به الخليفة، وعدده ذو مغزى: لم يأت مع حسان سوى 6000 رجل، وهو ما قاله لنا المالكي، قبل قليل، وهذا يكفي لتأمين (وهي عبارة المؤلف نفسها) مسلمي القيروان، من العدو، لكنه قليل جداً لكي يُستخدم في الهجوم، ويفسر ضعف هذه النجدة التي قمنها عبد الملك بالصعوبات التي كان الخليفة فريسة لها، في المشرق، بتاريخ 69هـ لأنه كان يصارع، في آن واحد، عبد الله بن الزبير الذي استمرت سيطرته على مكة، والخوارج الذين ثاروا بالعراق. وقد قُتل عبد الله سنة 73هـ 692م، وهُزم الخوارج سنة 77هـ / 696م، فكان بإمكان عبد الملك التفكير في تدعيم وآليه على إفريقية سنة 74، وأكثر من ذلك سنة 78هـ، وفي الانتظار بقي هذا الأخير في موقف دفاعي، وقد يكون عاد بسرعة إلى المشرق لاستعجال تنظيم الحملة التي كان يطمح لقيادتها، وهو ما يجعل تفسير هذا الخلط في التواريخ الذي وقع فيه الإخباريون، مقبولا⁽¹⁾.

(1) Cauldel : op.cit, pp. 152- 153.

ويذكر Mercier E. بكل بساطة، أن " خليفة المشرق، عند سماعه خبر نكسة المغرب، أرسل إلى حسان بن النعمان، وإلى مصر، إمدادات قوية وأمره باستعادة السلطة العربية في الغرب (L'ouest)"⁽¹⁾؛ ويذكر الجنرال Brémond مثله تقريباً، أن "حسان بن النعمان (أو حسان ابن عثمان، حسب آخرين)، وإلى مصر، قاد الحملة الخامسة سنة 689م... وأن تلك الجيوش كلها كانت شامية تنتمي إلى المجموعتين اللتين كانتا تتنافسان على السيطرة: القيسيين والكلبيين"⁽²⁾. مع ملاحظة أن كلام هذين الكاتبين غير موثق.

ويقول Marçais G.: إن الخليفة عبد الملك، عندما أخبره الناجون من كارثة مقتل زهير بما حدث " اختار قائداً قادراً على إعادة النظام إلى إفريقية، لكنه لم يقم بتنفيذ المبادرة إلا بعد ذلك بسبع سنوات، مثلاً حدث غداة الحملة الأولى "وبدا له" أن هذا التوقف، عن الغزو، مبررٌ جداً بالاضطرابات الخطيرة التي كان المشرق مسرحاً لها: فالخليفة عبد الملك كان في نزاع على ملكية (Possession) بلاد العرب مع أحد المطالبين بالخلافة، و كان العراق في ثورة، وكانت مصر، أيضاً تهدد بالانفصال، ولما تم القضاء على الثورات، فقط، أرسل عبد الملك حسان النعمان على رأس أربعين ألف رجل".⁽³⁾

ويرى م. طالبي أن المتتبع لعمل حسان يصطدم بالشك (incertitude) في تسلسل الأحداث وبتناقضات كثيرة، وأن التواريخ المقدّمة في وصوله إلى إفريقية هي: محرم 68هـ / يوليو أغسطس 687م و 69هـ / 688-689م، و 73هـ / 692-693م. و 74هـ /

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 61.

(2) Berbères et Arabes, p. 183.

(3) La Berbérie Musulmane et l'Orient p. 33.

693م-694م، و78هـ/697-698م ... وأن التسلسل الذي أشار إليه أقدم الإخباريين، يعني: ابن عبد الحكم وابن قتيبة، والذي أكده ابن عساكر هو الأكثر احتمالا، فهو يوافق التسلسل المنطقي للأحداث ويُمكن من تجنب التناقضات ⁽¹⁾ ويضيف " أن عبد الملك المنشغل بالصراع ضد مدّعي الخلافة، عبد الله بن الزبير، لم يتمكن على الفور من تعيين خلف، لزهير الذي قُتل سنة 69هـ / 688-689م، لكن ابن الزبير هُزم وقتل سنة 73هـ / 692-693م واستؤنفت الحرب ضد البيزنطيين، وفي هذا التاريخ، إذا، أرسل حسان، ولا شك، مع جيش قوي لاستعادة (Pour reconquérir) إفريقية" ⁽²⁾.

ويتساءل Fournel H. عن وضع العرب بالقيروان، خلال السنوات الست هذه ؟ ثم يجيب مفترضا " أنه كان وضع متفرجين أكثر منه وضع لاعبين "مؤيدا رأيه بما ذكره ابن خلدون "من انتشار نار الفتنة، من جديد بعد هزيمة زهير، في كامل إفريقية، وتفرقت صفوف البربر ونظر كل واحد من شيوخهم إلى نفسه كأمير مستقل"، وقد بدا لهذا الكاتب أن انتصار برقة شجع بيزنطيي إفريقية على استعادة الهيمنة التي كانوا فقدوها نهائيا، على البربر، وأن هؤلاء شاهدوا عدة قادة متخاصمين، على رأس حركة المقاومة، هذا ليس إلا افتراض، ولا شك، غير أن ما سيقع من أحداث سيعطيه بعض الاحتمال ⁽³⁾.

ويسجل Caudel M. "أن المؤرخين العرب لا حظوا أن الناس دلّوا حسان على أعظم أمير بإفريقية في شخص حاكم قرطاجة، بمعنى الإكزارخ (l'exarque) الإغريقي الذي كان يحكم لفائدة الإمبراطور

(1) E. I., n^{elle} éd., leide - Paris 1986, T,III, art. Hassan B.Al-Numan al-ghassan ,p.279.

(2) Id.

(3) Les Berbères, p.211

وهم، في هذا، متفقون تماما مع المؤلفين المسيحيين، وأقوال هؤلاء وأولئك غامضة لكنها كافية لتثبيتنا بهذه النقطة" ثم يقتبس هذا المؤلف من السيد Diehl قوله: "إن البيزنطيين يبدو أنهم انتهزوا فرصة قيام هذه الاضطرابات (تَشَتَّت البربر بعد موت كسيلة) بترميم سلطتهم، أكثر بقليل، في مُزاق: إذ وَرَدَ في كتاب "Le liber pontificales" أن مقاطعة إفريقية، بكاملها، خضعت من جديد إلى الإمبراطورية الرومانية (romaine) حوالي 685م (66هـ) "ويعلق caudel قائلاً: إن الكتاب المذكور لا يقدم تاريخاً مؤكداً، بحيث يبدو أن تاريخ 685 م سابق للأوان، بعض الشيء، لأن كُسيلة، حسب مؤلفينا، لم يكن توفي، غير أن الحدث يصبح ممكناً جداً، إذا حددناه بسنة 688 أو 689م بعد التاريخ المحتمل لوفاة القائد البربري الكبير: ففي ذلك الوقت على حد قول ابن خلدون، كانت قبائل الأهلالي في اضطراب تام. وهذا مثال جديد ومدهش عما ذُكرت في الحديث عن الحكومة البربرية، فبِمُجَرَّد اختفاء الرجل الذي أقامها، انهار كل شيء، وعادت القبائل إلى حياتها الخاصة، واستأنفت صراعاتها الداخلية، ومن المحتمل أن تكون السلطة البيزنطية تمكنت، مرة أخرى، من مُزاق، ولم يكن لها الوقت الكافي لكي تتوطد، وقد كشفها إلى العرب اختفاء منافسها الأهلالي (indigène) وعندما عاد هؤلاء بقوة مع حسان، لم يعد هناك، في الواقع، سوى حكومة نظامية واحدة بإفريقية، هي حكومة الإكزارخ (l'exarque) وسينقُصَ عليها حسان⁽¹⁾.

(1) Les premières invasions arabes, pp. 154- 155.

ويقول E. Mercier: إن البربر، بعد مقتل زهير، "استعادوا استقلالهم وسقطوا، أول الأمر، في الفوضى، ثم هدأت نزاعاتهم تلبيةً لنداء امرأة، ديهية ابنه ثابت بن نفاق، ملكة جَراوة الأوراس وأطاعوا الكاهنة..."⁽¹⁾. ويستخلص (E. F. gautier) من تعاون الروم مع البربر على مقاومة عقبة، في بغاية ولمبيسة وتيهرت وتهودة، وعلى مقاومة زهير بممس وقتله في منطقة طرابلس، ومن ميلاد ابن الكاهنة، من أب يوناني: "أن البيزنطيين احتفظوا حتى ذلك الوقت، بحاميات مبعثرة، هنا وهناك، في قلاع منيعة على الجيش العربي، وأن المواصلات بقيت حرة ما بين قرطاجة وبيزنطة، وبقيت المدن بيزنطية، واقعا وروحاً، وأن بيزنطة مونت وسلحت ونصحت البربر، فوجد العرب أمامهم آنذاك، كلَّ المغرب موحدًا: اللاتين والبربر، المستقرين والرحل، وبطبيعة الحال، فإن حسانا احتل قرطاجة لتحطيم هذا التحالف..."⁽²⁾.

كما يستخلص (Julien Ch.A.)، بناء على التشبُّث بما قاله ابن خلدون، وعلى التفسير (l'exégèse) المغربي لـ إ. ف. غويتي (Gautier E. F.) "أن اختفاء كسيلة أدَّى إلى نتائج خطيرة: فالبيزنطيون المسيطرون على الموانئ الكبرى، من سوسة (Hadrumète) إلى بونة (Hippo- Régius)، وعلى عدد من القلاع الداخلية، ولم يلعبوا في حرب الدفاع، سوى دور المساعدين للبربر، انتهزوا فرصة ذهاب العرب، والنزاع بين رؤساء القبائل، لتقوية سلطتهم في مزاقي حين ضيَّعت أوربة قيادة العمليات التي انتقلت إلى قبيلة من الأوراس الشرقي، هي قبيلة جَراوة..."⁽³⁾.

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 61

(2) Le passé de l'Afrique du nord, T. 2, p. 274.

(3) Histoire de l'Afrique du Nord, p. 20

وقد نبّه Fournel إلى "إشارة في أحد أسطر النويري، حول فشل عقبة في محاولة ضد قرطاجة" لكن انفراد ذلك الكاتب بهذه المعلومة، كما لاحظ، جعله يسكت عنها، عند حديثه عن مآثر عقبة⁽¹⁾.

ويُعلّق نفس المؤلف على ما ذكرته المصادر العربية "من أن حسانا، عند وصوله إلى القيروان سأل سكان البلاد عن أقوى حاكم (Souverain) بإفريقية فدلّوه على حاكم قرطاجة": "فيذكر أن الجواب كان، بالطبع جواب البربر لكنه كان بالإمكان أن يُنسب إلى العرب الذين بقوا في إفريقية، مما يُمكن من استنتاج أن الروم كانوا قد استعادوا بعض النفوذ"⁽²⁾.

ويستأنف Fournel كلامه، حسب نفس المصادر، دائما، موضحا أن القائد العربي "راح دون أي تأجيل، يعسكر تحت أسوار هذه الحاضرة البيزنطية من إفريقية...، فاقتحمها واضطر السكان الذين أُجبروا على اللجوء داخل سفنهم للذهاب إلى صقلية وإسبانيا، وبمجرد ما ابتعد حسان انقضّ الأهالي (indigène) على المدينة التي طرد منها الروم، غير أن القائد العربي، سُرعان ما ظهر مرة أخرى، مع جيشه، وقام بهجوم عنيف واسترجع قرطاجة عنوة، وبعدها قام بمذبحة (massacre) حقيقية، في حق هؤلاء السّلاب (pillards)، وبعدها نشر الرعب في كل الضواحي، حطّم المدينة عن آخرها"⁽³⁾ ويلاحظ نفس المؤلف أن الوضوح ينقص للمعلومات الواردة في المصادر العربية عن استرجاع حسان لقرطاجة ولكنه يستنتج أنه حارب الأهالي (indigène)⁽⁴⁾.

(1) les Berbères, T.2, p p.211-212..

(2) Ibid, T.2, p .211 note 6

(3) les Berbères, T 2 , pp . 211- 212

(4) Ibid, p . 212. note2

إلا أن الجيش البيزنطي، حسب نفس المؤلف دائما، لم يُحطَم بكامله وأن البربر فهموا، ولا شك، أن مهمنا أكثر قسوة، ظهر، لأن حسان سرعان ما علم باجتماع الروم و البربر في أرض صطفورة⁽¹⁾ فسار إليهم وهزمهم شرّ هزيمة ثم "وكان الأهالي (indigènes) تخلّوا، مرة أخرى، عن خلفائهم، فهرب الروم، مرتعشين، إلى باجة، حيث تحصنوا، في حين لجأ البربر إلى منطقة بونة (عنابة) التي بدت لهم جبالها أكثر تحصينا من أسوار باجة"⁽²⁾.

ويستنتج Fournel من قول ابن عذاري: "إن حسان دخل عندئذ القيروان ليستريح ويستريح جيشه" أن هذا يعني "أن الحملة كانت طويلة وقاسية، ويستبعد فكرة الزحف المباشر على الأوراس، كما يزعم المؤرخون العرب، لإخفاء الفشل الذريع الذي كان ينتظر حسان، فشل يقدم لنا عنه المؤلفون (auteurs) البيزنطيون رواية، بالأحرى محتملة، حتى أن تغييرا في حكم الإمبراطورية الإغريقية، بالنسبة إليهم، يرتبط بالأحداث التي يتحدثون عنها.

وحسب هؤلاء المؤلفين فإنه بمجرد وصول خبر الاستيلاء على قرطاجة إلى القسطنطينية، جهّز (الإمبراطور) Léonce الذي اعتلى عرش الإمبراطورية سنة 76هـ/ 695م - 696م، كل أسطوله وكلف

(1) "صطفورة هي اصطفورة عند ابن الأثير Fournel ويسجل. 212. Ibid, p 212. وشطفورة عند ياقوت الحموي، وصطفورة عند ابن عذاري وابن خلدون، وصطفورة عند ابن حوقل الذي يقول أنها المنطقة البحرية الشاسعة التي تضم ثلاث مدن، أقربها من تونس تسمى أنبلونة ثم تأتي باجة وبعدها بنرزت " ملاحظا أن باجة التي يوجد خط طولها على بُعد 45 دقيقة تقريبا، غرب خط طول بنرزت، توجد هنا بسبب خطأ في النسخ ثم إن الإدريسي في نقله لهذا المقطع يسمي المدن الثلاث أشلونة وتينجة و بنرزت ويسميتها صفى الدين أنبلونة ومتيجة وبنرزت " (les Berbères, T.2, pp. 212-213, note 3.

(2) les Berbères, T.2, p. 113.

البطريق يوحنا (Jean) بقيادته، وقبل نهاية خريف 78 هـ، كان الجيش الإغريقي على مرأى من سواحل إفريقية: إذ يصور لنا Théophane وكل ناقله، البطريق Jean وهو يحطم السلسلة التي تغلق الميناء، ويقتل الحامية التي تركها حسان بقرطاجة، ولم يكتف بالاستيلاء على العاصمة المسيحية بإفريقية لكنه استعاد كل المدن المحصنة، ويجمع المؤرخون البيزنطيون على القول بأن المنتصر قضى فصل الشتاء في قرطاجة، شتاء 78 هـ / 697-698م، طبعاً، لكن عند وصول خبر هذه الهزيمة إلى عبد الملك سارع بتجهيز أسطول أكبر من الأسطول الإغريقي، وفي سنة 79 هـ، استرجع حسان بن النعمان، بفضل ما وصله من دعم، كل المدن التي احتلها الروم، الواحدة تلو الأخرى، واستولى للمرة الثانية على قرطاجة، وأجبر البطريق Jean على الفرار، مع بقايا أسطوله وجيشه، ويحتمل أن يكون الأسطول الشرقي (Sarrasine) أبحر في ربيع سنة 689م (الأشهر الأولى من سنة 79 هـ)، وبالتالي يمكن التقرير أن حسانا سيطر، نهائياً، على قرطاجة حوالي منتصف سنة 698م (منتصف ربيع الآخرة 79 هـ) ... وضاعت إفريقية نهائياً من بيزنطة، لكن سيطرة العرب عليها كانت بعيدة التحقيق، رغم الثقة التي أوحت لهم بها النجاحات الحديثة، على ما يبدو، فهم لم يهزموا حتى ذلك الوقت، سوى محتلين (conquéransts)، متوترّي الأعصاب، بسبب انحطاط الوطن الأم، وبقي عليهم أن ينتصروا على المقاومة الحقيقية، مقاومة السكان المتجذرين في الأرض، وكان باستطاعتهم، منذ ذلك الحين، تقدير مدى طاقة هذه المقاومة، خاصة وأنه سبق لهم أن اختبروا أنفسهم مع البربر حيث لقنهم كسيلة، قبل خمس عشر سنة، أن الأهالي لا ينقصهم القادة القادرين على قيادتهم إلى الانتصار: غير أن ثقتهم الكبيرة بأقدار

إمبراطورية الهلال، وحرمانهم من معرفة عادة الصراعات العنيفة التي خاضتها، من قبل تلك القبائل المحاربة، ضد سادة العالم، جعلهم يعتقدون، لوقت وجيز، أن طرد الإغريق نهائيا له بُعد، لكن المستقبل، والمستقبل القريب سَيَنْتَزِع منهم كلَّ وَهْم. لقد كان لكسيلة، الذي ذَكَرَهُ باسمه قبل قليل، خَلَفَ وهذا الخلف كان امرأة، الكاهنة ملكة الأوراس...⁽¹⁾.

ويقرّ Caudel بشيء، يقول إنه "مؤكد جدا" (trop certain)، وهو أنه لا يعرف، بالضبط، في أي تاريخ هاجم حسان بن النعمان الروم ... فالمؤرخون يقدمون الحدث تحت نفس المظهر، وقد يكون حسان، حسب ما قالوا، هاجم مباشرة الروم، إنها خطة (tactique) جديدة، لقد رأينا العرب حتى الآن، ينهبون مزاق (Byzacium) بسهولة، تقريبا، ويصعدون حتى الموريطنيتين، ويذهبون بعيدا جدا نحو الغرب أحيانا، لكن لم نرهم يصعدون نحو الشمال إلا نادرا: فاللّيمس البيزنطي كان يقطع عليهم الطريق، فهل كان حاجزا جديا؟ ليس باستطاعتنا الحكم على ذلك بسهولة، والأكثر احتمالا أن القبائل البربرية كانت، حتى ذلك الوقت، بمثابة فراش واق للأملاك البيزنطية، فعليها أنهكت حدة حرب العرب الذين وجد تعطّشهم إلى النهب، ما يُشبع رغبتهم في منطقة إفريقية الجنوبية، وقد أرشدتهم الضربات المأخوذة و الغنيمة المُجمّعة، إلى البقاء هناك، وهذه المرة، تغيرت الظروف: فالجيوش الإسلامية سيطرت على مُزاق (Byzacène) وانتهت من إنهاكها، ولم يعد هناك على ما يبدو، خوف من البربر، في حين كثرت التقارير عن ثروة الولاية البيزنطية (proconsulaire). فإن أراد العربي المزيد من النهب، فعليه الذهاب

(1) Les Berbères, T.2, p. 113sq

بعيدا واجتياز خط الليمس، والهجوم على الروم، وهما هو يحاول انجاز المشروع مع حسان الذي انتقل، من أول وهلة، تحت أسوار قرطاجة، فكيف اجتاز خط المواقع الحدودية (le limes)؟ لا نعرف شيئا عن ذلك، ولم تخطر ببال المؤرخين (auteurs) أية صعوبة في هذا الجانب ... وقد سبق لأبي المهاجر دينار، وحده، أن حاول القيام بحملة نحو الشمال، حوالي سنة 55هـ، والذي مكنه من القيام بزحف جريء كهذا هو التحالف الذي عقده مع البربر، ونعرف أن نجاحه كان نسبيا جدا، إلا أنه، على الأقل، يُفسّر محاولة حسان ويثبت لنا أن الخط الحدودي لم يكن ممتعا. وقد لاحظ المؤرخون العرب أن حسانا دُلَّ على أكبر أمراء إفريقية — في شخص سيّد (maître) قرطاجة، بمعنى الأكرخ (l'exarque) الإغريقي الذي كان يحكمها لحساب الإمبراطور، وهم في هذا متفقون تماما مع المؤلفين المسيحيين، وأقوال هؤلاء وأولئك غامضة ... (1).

وبعدما ذكر Caudel برقم 6000 رجل الذين وصلوا حسان، مع (تعيينه على) ولاية إفريقية، حسب المالكي الذي لم يُضف شيئا إلى هذه المعلومات، وبالأربعين ألف التي كانت أعظم جيش وصل إفريقية، حسب ابن عذاري، وبعد استعراضه لنصي: المالكي وابن الناجي الذين تحدثا عن حملة حسان على قرطاجة، لاحظ أن السيد Fournel اعتمد على ابن عذاري لتقديم رواية مختلفة تماما عن تحطيم قرطاجة، مضيفا أن صاحب كتاب البربر (l'auteur des Berbères) " يبحث عن مقابلة روايات العرب بتقارير الإغريق، وعلى العكس من ذلك فإنه ليس هناك

(1) Les premières invasions arabes, p.153 sq.

ما هو أسهل من التوفيق بينهما، كما سيتبين لاحقا. ولنلاحظ، ببساطة، أن استعادة حسان لقرطاجة هو أمر مكتسب ... وأن تلك الاستعادة كانت من سكان الضواحي، الذين يتحدث عنهم السيد Fournel، وإن وافقنا على رواية البيان، فهي بمثابة عملية بوليسية، على أكثر تقدير، وليست عمل حرب" (1).

وبعدما استعرض Caudel نصّ المالكي عن أحداث صطفورة، ولاحظ أن نص ابن الناجي لا يختلف عنه، راح يستنتج أن " العرض الذي يقدمه لنا المؤرخون العرب عن هذه الحملة ينسجم، بدون عناء، مع الذي يقدمه المؤرخون المسيحيون الذين ينقل لنا السيد Diehl روايتهم: "لقد اتبع القائد المسلم، آنذاك، طريق الساحل، متغاضيا عن أهالي الأوراس، ومستوليا على المواقع الموجودة في طريقه، الواحدة تلو الأخرى، وفي حوالي 695م. (76هـ) ظهر، ولاشك، تحت أسوار قرطاجة، فحاول الكزرخ (l'exarque) عبثا، خوض معركة أمام المدينة فألقي به في الموقع، وبعد هجوم عنيف، سقطت عاصمة إفريقية البيزنطية بأيدي المسلمين، وتمكّن بعض السكان من الإبحار واللجوء إلى جزر الساحل المجاورة، بصقلية وحتى في الممتلكات التي بقيت الإمبراطورية تحتفظ بها في أقصى الغرب، وقُتل أو استرقّ الباقون، وتجمعت بقايا الجيش الإغريقي، شمال وغرب قرطاجة، في منطقة بنزرت وفي حماية (à l'abri) جدران باجة (Vaga) القوية؛ أما حسان فبعدما ترك فيما غزاه (sa conquête)، التفت إلى البربر" (2).

(1) Les premières invasions arabes, pp.158-159.

(2) Ibid, p.159.

ويلاحظ (caudel) أنها نفس الأحداث وأن الأهم ربما، أنه نفس التاريخ: كُنَّا قَدْ تَرَدَدْنَا، قبيل الآن، بين التواريخ الثلاثة 74 و 76 أو 78 هـ/ 693-695 أو 697م لتحديد سنة عزو حسان للولاية البيزنطية (proconsulaire)، بدقة، ويبدو أن المسحيين أشاروا إلى سنة 76، دون تأكيد أي شيء، وهي السنة التي نتبناها، مع ضم شكوكنا إلى شكوكهم، دون تدقيق أكبر. ويمضي نفس المؤلف في كلامه قائلا: "قد يكون العرب وجدوا صعوبة كبيرة، في الحملة على الولاية البيزنطية، لأن المؤرخين يجمعون على تسجيل دخول حسان إلى القيروان بعد هزيمة الروم والبربر بصطفورة، لإعادة تنظيم جيشه... ولم تكن نتائج الحملة باهرة، كما يمكن افتراضه في البداية، وقد يكون سقوط قرطاجة أحدث، بطبيعة الحال انطباعا كبيرا جدا، في كامل إفريقيا الشمالية لكنه لم يُتبع بخضوع البلاد المطلق: إذ نرى سكان الأرياف يستجيبون لإنذار حسان لكن باجة (Vaga) بقيت تقاوم، وقُلدتها، ولا شك، مواقع أخرى في المنطقة، دون أن تتمكن حامياتها الضعيفة من إقلاق الأمير كثيرا، فاكتفى بنصف نجاح وأعاد تنظيم جيشه المنهك في القيروان، وبمجرد أن دخل خلوتَه، سمع الحديث عن قوة جديدة تهدد توسعه (conquête): إنها أميرة، من قبيلة جراوة، لم يصلنا اسمها، ويُطلق عليها العرب تسمية الكاهنة" (1).

وبالنسبة لـ Mercier E. فإن حسانا "عند حلوله بإفريقية استولى، أولا، على المواقع المحصنة، حيث توجد بعض القوات لإغريقية ثم سار إلى الأوراس حيث كانت الكاهنة" (2).

(1) Caudel: op. cit., pp.159-160

(2) Histoire de l'établissement des arabes, p. 61.

ويقول Marçais G.: إن حسان، بعد وصوله إلى القبران "بدأ بالسير إلى البيزنطيين. وقد مكّنته قواته - ... - من إخضاع المواقع الشمالية للمقاطعة (Province)، دون عناء كبير، ودارت معركة بالقرب من قرطاجة التي دخلها العرب منتصرين، وهكذا بدأ أن الجُهد، الذي شُرِع فيه قبل ذلك بثمان وأربعين سنة، قد تَوَجَّ، إلّا أن ذلك كان بعيد التحقيق، إذ بقي، قبل كل شيء، إخضاع البربر⁽¹⁾".

ويذكر Terrasse H. أن حسان بن النعمان الذي قاد جيشا هاما، من أربعين ألف رجل ودخل البلاد التونسية "غير الخطّة (التكتيك)، حيث سار مباشرة إلى قرطاجة التي كانت، حسب المصادر القديمة، في حالة انحطاط كبير و التي تم الاستيلاء عليها بالقوة، وحسب المصادر البيزنطية فإن الامبراطور Léontios، جهز أسطولا استرجع المدينة سنة 697، لكن البربر ثاروا من جديد، وهذه المرة بقيادة امرأة، الكاهنة، من جراوة الأوراس⁽²⁾ مع ملاحظة أن Terrasse لم يُبيّن ما هي المصادر العربية أو البيزنطية التي اعتمد عليها في كلامه.

وحسب محمد طالبي فإن حسان "بعد استيلائه على قرطاجة وتخريبها ولجوء سكانها إلى صقلية، لاحق الروم وحلفاءهم البربر في منطقة بنزرت، فهزمهم من جديد ورمى بالأوائل إلى باجة (Vaga) ...، وبعد استراحة بالقيروان، زحف على الكاهنة⁽³⁾".

ويسجل Julien (Gh. A.) أن "والي حسان بن النعمان الغساني دشّن، في الواقع طُرُقًا (méthodes) جديدة، فبدأ بالقضاء على

(1) La Berbérie Musulmane et l'orient p.34.

(2) Histoire du Maroc ,T.1, p.83.

(3) E. I., n^{elle} éd., leyde - Paris 1990, T.III, art Hassan B.Al-Numan al-ghassani .p.279

الخطر البيزنطي، بالاستيلاء على قرطاجة بالقوة سنة 695، ولم يكن الإحساس بالصدمة في القسطنطينية أقل من ذلك الذي تركه نجاح Genséric (الوندالي)، وقد يكون الإمبراطور Léontios جهّز أسطولا نجح، لحسن الحظ، من استرجاع المدينة، وفي غضون ذلك التفت حسان إلى بربر الأوراس، ويقال: إنه عَلم أن ملكة (reine) قوية تسمى الكاهنة كانت تحكمهم ...⁽¹⁾.

ويعتبر Fournel H. الكاهنة خلفاً لكُسَيْلَة، واسم الكاهنة لقب يعني أيضا العرافة ... ويزعم ابن خلدون أن اسمها الحقيقي كان دَهْيَة: لكن معنى هذه الكلمة هو " الماكرة " ويبدو أنه ليس سوى لقب لملكة الأوراس، ويسمّيها القيرواني دمية ويكتبها غيره داميّه، لكن بطبيعة الحال، فإن اسم دهيّة هو الذي كُتب خطأ دُمية، لأن أحد مخطوطات الإدريسي يقدم هذا المغزى الخاطئ بالنسبة لأدهية. وفي حالة تعذر إعطاء اسمها الحقيقي، سأطلق عليها تسمية الكاهنة التي يطلقها الكتاب عندما يتحدثون عن هذه المرأة ...⁽²⁾.

والكاهنة هي ملكة الأوراس، حسب نفس المؤلف الذي يقتبس عن ابن عذاري قوله "وكان جميع روم إفريقية يخشوها وجميع البربر يطيعونها" ملاحظا أنه " كان بإمكان شهادة المؤرخين العرب الجماعية أن تتبّه Lebeau كي يتفادى تقييمه الغريب للمشهد الذي كانت هذه المرأة بطلته، وهو يضيف إلى الشك الذي يطغى على تواريخ الأحداث التي وقعت في تلك الفترة ... تهكّما بدّا له، ولا شك، سيمّة من النقد الفلسفي الرفيع، والذي أخطأ تماما في جعله يقوم على أسس صلبة قائلًا: " إن

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T 2, pp. 20-21.

(2) les Berbères, T 2, p. 215, note 1

المؤرخين العرب المياليين (Partisans) للعجيب (merveilleux)،
 ألبسوا تاريخ الثورة (التي نقلت حاضرة إفريقية من أيادي البيزنطيين إلى
 (أيادي العرب) بظروف خيالية لقد "كانت (الكاهنة) حسب رواياتهم،
 ملكة للبربر تحدث أولاً، العرب... وبناءاً على الانتقادات الأكثر تبصراً،
 فإن هذه البطلة هي البطريق يوحنا (Jean) ذاته، الذي جعله المؤرخون
 العرب متكرراً في شكل امرأة، لأنه كان خصياً (eunuque) "وَبَرْدُ
 القديس مارتين (Saint Martin) هذا التخمين، في هامش له، إلى
 الأكاديمي Otter، وعندما عُذْتُ إلى الصفحة المشار إليها من عمل
 Otter قرأت العكس بالضبط⁽¹⁾.

إذ قال Otter: "... إن Nicéphore لا يتفق مع النويري لكن
 المؤرخ العربي يستحق هنا، مصداقية أكبر من المؤلف الإغريقي، لأن
 هذا الأخير يُسند مآثر الأميرة الكاهنة إلى البطريق Jean، احتقاراً⁽²⁾
 وهنا توجد "بصمة الغموض الذي أظن أنني تمكنت من إزالته، باقتباس
 استعادة الإغريق لقرطاجة من المؤرخين البيزنطيين، وهو حدث هام
 سكتت عنه التواريخ العربية، والواقع أن Nicéphore لا يسند إلى
 البطريق Jean سوى ماله فهو يقول: إن هذا القائد الماهر هزم حسان
 بن النعمان، وأضاف أن حساناً، بعد تلقيه إمدادات، ثارَ لنفسه وطرده
 الإغريق من إفريقية، وهنا ... يسكت عن الأحداث اللاحقة ... لكن تلك
 الأحداث اللاحقة، بالنسبة لـ Otter مثلاً هي بالنسبة لكل الذين جعلوا
 وقوع الحملة ضد الكاهنة، بعد الاستيلاء الأول على قرطاجة مباشرة،
 أحداث متزامنة تقريباً، وهنا يمكن الغموض"⁽³⁾.

(1) Les Berbères, T. 2, pp.215-216.

(2) Ibid, p 216, note, 3.

(3) Les Berbères, T. 2, p.216, note, 3.

وبعدما ذكر Fournel بما قاله، من أن الكاهنة كانت تحكم في الأوراس، وأن "عائلتها من جراوة، وهي قبيلة يهودية كانت، كما يؤكد ابن خلدون، تُزوّد جميع البربر بملوك ورؤساء منحدرين من الابتر"⁽¹⁾ راح يستعرض ما وقع بينها وبين حسان بن النعمان من أحداث، كما وردت في المصادر العربية، منذ بداية زحف كل منهما نحو الآخر⁽²⁾ مع قيامه، أحياناً، بتعليق حول بعض الروايات كما فعل بالنسبة لرواية الرقيق القيرواني التي تفيد أن الكاهنة كانت على رأس جيش عظيم من البربر والروم (Greco)⁽³⁾ حيث ذكر أن "الروم الباقيين بإفريقية والذين لم يكونوا من المعمّرين، ولا من الحضر (citadins) لم يبق بهم، من وسيلة، إلا الانضمام إلى البربر والسير تحت لواء الكاهنة، كما سبق لهم وأن ساروا تحت لواء كسيلة"⁽⁴⁾.

وفي شأن مكان توقف حسان، بعد هزيمته، يشير Fournel إلى أن "بعض المؤلفين (auteur) يقولون إنه حدث في أرض برقة وآخرين يقولون في برقة نفسها، وابن خلدون يقول "في مقاطعة طرابلس" وهذا، بالطبع خطأ، لأن اليعقوبي أخبرنا أن تاورغه آخر نواحي (localité) مقاطعة برقة، وهي تقع، حسب الإدريسي، على بعد 65 ميل (33 فرسخ) غرب قصور حسان، ... فهذه الأخيرة كانت إذًا، موجودة بالفعل على الأراضي التابعة لولاية برقة"⁽⁵⁾.

وعن تسمية الأسير العربي الذي تبنته الكاهنة يرى المؤلف الأخير "أن البكري يسمي هذه الشخصية (Personnage) يزيد بن خالد، على

(1) les Berbères T2, p. 217.

(2) Id.

(3) Ibid, p. 118

(4) Ibid, p. 118, note 2

(5) Ibid, T. 2, p. 220, note 1.

إثر خطأ في النسخ، لأن كلاً من ابن عذاري والنويزي وابن خلدون يطلقون عليه خالد ابن يزيد القيسي، ويسميه القيرواني خالد فقط، وكتب في مولى أحمد خالد العباسي⁽¹⁾.

ويذهب Caudel إلى القول إن الكاهنة "جمعت حولها قبائل أهالي موريطانيا والسكان اللاتين الذين تركتهم هزيمة الإكزرخ بدون حكام (maîtres)، وبدون مدافعين"⁽²⁾ ثم يستنتج، من قول ابن الأثير "إن البربر أحاطوا بها، بعد موت كسيلة"، أنها "قد تكون أقامت إمبراطوريتها على أنقاض إمبراطورية كسيلة، وبهذه الطريقة أسست إمبراطورية تشبه الإمبراطورية التي شيدها كسيلة قبل قليل، في كل شيء، إذ نرى ولادة أحداث متطابقة تحت تأثير نفس الظروف: تقرب القبائل البربرية من بعضها، تحت تهديد العربي، وتوثق وحدثها، وتبحث لها عن قائد وقد وجدت، في المرة الأولى، الحاكم الإغريقي جرجير... فجرّها إلى هزيمة، وسرعان ما تماكنت نفسها ثانية واختارت أميرا من جنسها، هو كسيلة الذي تقاسمت معه النجاح والفشل النهائي، واتخذت هذه المرة امرأة رئيسة. والحدث لا ينبغي أن يدهش لأن المرأة لدى البربر كانت لها، في المجتمعين السياسي والمدني، مكانة رفيعة تمكنها، عند اللزوم، من الصعود إلى الصف الأول، ولم نعر ذلك على أدنى أثر للعجيب الذي يلصقه بها المؤلفون، لقد شرح السيد Fournel بطريقة جيدة جداً، أن ملكة الكاهنة كانت من خصائص النساء عند البدو (Les maures) وأن اللاتي كانت لهنّ موهبتها يتلنّ شرفا كبيرا وسلطة كبرى"⁽³⁾.

(1) Les Berbères, T. 2, p.220, note 5.

(2) Les premières invasions arabes, p.160.

(3) Caudel: op.cit, pp . 160- 161.

وبعد اقتباس Caudel لنص الماكي الذي تحدث فيه عن استراتيجية حسان في القيروان، إثر حملته على قرطاجة، وإشارته إلى اتفاقه فيما قاله، مع مصادر أخرى، يستخلص أن " تسلسل الأحداث ينتظم جيداً: لقد جاء حسان إلى إفريقية لاسترجاع أعمال العرب المهددة منذ كارثة برقة، فوجد بالقيروان سكاناً وحامية إسلامية، تركها فيها زهير، وعند تلقّيه إمدادات من الخليفة، في تاريخ لا نستطيع تحديده، يُحتمل أن يكون سنة 76هـ / 695م، زحف على الممتلكات الإغريقية ... وعند تحطيم القوة البيزنطية التي كانت تهدده عن قرب، التفت إلى البربر الذين كانوا ينظمون أنفسهم، بعيداً عنه، على الهضبة الموريطانية ⁽¹⁾.

ويلاحظ Caudel، في شأن التفاصيل التي قدمتها المصادر عن حملة حسان ضد الكاهنة، أنها لا تختلف عن بعضها بدرجة محسوسة، لكنه وجد أن ابن الأثير يكتب باغاي (Baghai) بطريقة مختلفة ويسمّيها بغاية، غير أنه يختار تسمية باغاي التي أطلقها عليها الماكي، لأنها أكثر تطابقاً مع التسمية اللاتينية (Bagai)، وكانت موقعا محصنا تابعا للمنظومة الدفاعية التي جدّها البيزنطيون، وأن الماكي عندما يتحدث عن وادي مكناس يُحتمل أنه يعني بهذا الاسم، المغيّر بسبب خطأ في النسخ، وإذ يذكره الإخباريون الآخرون، بمناسبة هذه الحملة، هو وادي مسكيانة، والواقع أن حسانا يمر بوادي مسكيانة لكي ينتقل من القيروان نحو الهضبة ⁽²⁾.

وعلى العموم، كما يضيف Caudel، " ليس هناك ما هو أسهل من إعادة تشكيل حملة حسان بن النعمان: إذ انطلق من القيروان ليصعد

(1) Les premières invasions arabes, pp.161-162

(2) Ibid, pp . 167- 168

وادي نَهْر فكة (Fekka) ويسمى في مجراه الأعلى وادي الحطّاب (Hatob) الذي أوصله، عن طريق مجانه (Vegesala)، إلى تبسة التي تبعد عنها بثمانى فراسخ، في وادي ملاق (Mellègue) الأعلى حيث مر، بدون عناء، إلى الهضبة المرتفعة التي يسقيها وادي نيني (Nini) وفيها انتهت الحملة⁽¹⁾.

وفي اعتقاد Caudel أن "هزيمة حسان تُذكر بهزيمة عقبة وهي، في الواقع، أخطر، لأن عقبة كان قد وقع في كمين، وقُتل مع عدد قليل من مرافقيه لكن أغلب الجيش لم يعان، إذ تولى زهير بن قيس القيادة، وتمكن من تنظيم الانسحاب إلى برقة، ولم يُثبت نجاح كسيلة، من جهته، أي تفوق تكتيكي، ولم يستطع البربر، بعد تهوذة الافتخار بأنهم سحقوا أعداءهم وأجبروهم على الفرار. والأمر يختلف بعد معركة واد نيني، فلاول مرة يتمكن جيش من الأهالي من تلقى صدمة جيش عربي، دون أن يضعف بل على العكس من ذلك، صمد أمامه وصده بقوة، فتحوّلت هزيمة المسلمين إلى فوزى أخذت معها كل شيء، وهرب الأمير والجيش معا... فالعربي المطارد، من كل جهة، والمحاط بالسكان الذين ثاروا ضده، بمجرد ما وصلهم أول خبر لهزيمته، لم يعد يفكر سوى في الهروب..⁽²⁾

ويُقدّر Caudel قول المالكي: "إن الكاهنة حكمت إفريقية بكاملها بحجة أن هذا المؤلف" نسي، في بلبله الهزيمة، أن الإغريق عادوا إلى قرطاجة، حيث أن خبر الاستيلاء عليها أثر كثيرا على بيزنطة، فأرسل الإمبراطور Léontios، الذي تولى العرش سنة 695م/76هـ، أسطولا

(1) Caudel: Op. cit., p. 168.

(2) Ibid, pp. 168- 169.

معتبراً ضد العرب، بقيادة البطريق يوحنا (Jean)... فاقترح مدخل الميناء، وطرد الحامية العربية، واستعاد المدينة وقد نجح البطريق في تحقيق أكثر من ذلك: "انترع من أيدي الكفار (infidèle)، كما قال البطريارك (Patriarche) نفقور (Nicéphore)، كل قلاع البلاد، ونصب حاميات كثيرة للدفاع عنها " وبعد تخلص إفريقية هكذا، عاد ليقضي فصل الشتاء بقرطاجة، ويضيف Diehl أن الكاهنة كانت قد هزمت حسانا، في ذلك الوقت الذي استولى فيه البطريق على قرطاجة، وأنا اعتقد، على العكس من ذلك، أن معركة وادي تبني يمكن تحديدها، دون صعوبة، بتاريخ سابق: فقرطاجة كانت قد سقطت تحت ضربات الأمير (l'émir) حوالي 695م./76هـ، وليس لدينا تاريخ مضبوط لكن هذا ينسجم تماما مع التواريخ الأكثر غموضا التي يحدد بها المؤرخون العرب حملة حسان، مُضيفين أنه لم يأخذ سوى وقت إعادة تنظيم جيشه بالقيروان لينطلق إلى الأوراس، سنة 77هـ/696م، ونحن نعلم أنه، بعد هزيمته التحق في سرعة كبيرة، ببرقة، وقد يكون اجتاز حدود قابس قبل نهاية العام⁽¹⁾.

ويوجه Caudel انتقاداته للنظرية التي يقدمها "السيد Fournel" عن حملة حسان الأولى قائلا "إن صاحب كتاب البربر، في الواقع، يرتب أحداث هذه الفترة من التاريخ الإفريقي على نسق خاص، يختلف تماما، عما تبناه المؤرخون العرب، وكتاب الغرب المحدثون"⁽²⁾، والواقع، "أن هذا الكاتب لا يبحث فقط، في هذا الظرف الخاص، عن حلّ مشكل تسلسل الأحداث، وإنما يؤيد، في آن واحد، القضية البربرية التي ألف

(1) Les premiers invasions arabes, pp, 169- 170.

(2) Ibid, p.162.

كتابه من أجلها، فالنظرية العامة، مع الأسف، تغطي على حل مسألة المؤلف الأولى، فأصبح يبيع، وهو يتشبه بالدفاع عنها، الحقائق التاريخية التي تزودنا بها المصادر، بثمن رخيص، ولنرى، أولاً، مسألة تسلسل الأحداث، هناك تاريخان فرضا نفسيهما على السيد Fournel: تاريخ استعادة الإغريق لقرطاجة وتاريخ استيلاء العرب، نهائياً، على تلك الحاضرة، وقد حددهما المؤلفون المسيحيون، وهو يعتبرهما، بحق صحيحين: فالبطريق Jean استعاد قرطاجة سنة 697م (78هـ)، وفقدتها سنة 698م (79هـ)، وبتبني سنة 77هـ / 696م كتاريخ لدخول حسان إفريقية، يعطي السيد Fournel الأمير (l'émir) وقتاً للاستيلاء على قرطاجة، مرة أولى فقط، فقد جعله يكرس كل جهده للإغريق، ويحفظ (réserve) بالبربر إلى ما بعد، وهنا تبدأ النظرية ... قد يكون المؤرخون العرب، في رأيه، سيروا مباشرة حسان إلى الأوراس " لإخفاء الفشل الذي كان ينتظره " (بعد قرطاجة) لكنهم قادوه إلى نكبة أخرى لم يخفوها ! سنرى قريباً أنهم يسجلون (constatent)، بصراحة كبيرة، هزيمة وادي نيني، ويعترفون أن الأمير تكبد شرّ هزيمة ... حقيقة أن الإخباريين لا يُلحّون على استعادة الإغريق لقرطاجة، ولا يلاحظون ذلك إلا ضمناً، فيما بعد، عندما يبتّوا لنا كيف استعادها حسان، وهاهو بالضبط، ما يجعل رواية ذات منطق قوي: ففي الوقت الذي ضيّع فيه الجيش العربي كامل إفريقية، في يوم واحد، بعد نكسة شنيعة، أصبح استسلام قرطاجة للبيزنطي حدثاً ثانوياً ينبثق، بطبيعة الحال، عن الحدث السابق، ولا يستحق إشارة خاصة، وفي نظرية (Système) السيد Fournel فإن سنهؤ الإخباريين، على العكس من ذلك، لا يقبل العذر، ومنطقه هو الأضعف عندما يُبرز لنا بطريقاً إغريقياً يأخذ من حسان الأراضي التي

توسع فيها (ses conquêtes) حديثاً، رغم أنه، دون أن يحاول هذا الأخير منعه. والنظرية (thèse) تنمو: فيبزنطة هُزمت لكن "سيطرة العرب على إفريقية ما تزال بعيدة" وعلى العكس من ذلك، يبدو لي أنهم اقتربوا من تلك السيطرة، إنها مسألة سنوات وسيخبرنا بذلك السيد Fournel نفسه، بعد عشر صفحات: "في سنة 84 تم احتلال إفريقية" لكن لا، بقي عليهم "أن يهزموا المقاومة الحقيقية" التي لم يعرفوا "تقدير طاقتها" مسبقاً. يستطيعون الاعتقاد أن طرد الاغريق نهائياً له بُعد يكون على المستقبل ... ان ينتزع منهم كل وهم في شأنه". لا يوجد في المصادر العربية أدنى أثر لوهم ما، يكون جنود حسان قد تصوروه في موضوع الاستيلاء على قرطاجة ... وهذا مفهوم في حد ذاته: فبالنسبة لنا نحن الغربيين، مثلما هو الأمر بالنسبة لبيزنطي القرن السابع (الميلادي)، كلاًنا مشبع بالآداب (lettres) اللاتينية، ومملوء بالذكريات العظيمة لقرطاجة القديمة، وسقوط هذه المدينة يستحضر عالماً من الأفكار، لقد أثرت علينا كثيراً، وتركت انطباعات أليماً في العالم المسيحي، آنذاك؛ وبالنسبة للعرب فإن قرطاجة (Qartadjinah) هي مدينة كغيرها، ليست أجمل ولا أغنى من دمشق أو الإسكندرية أو القسطنطينية، وقد أدهشهم زوال الروم قليلاً: فالإخباريون لم يتوقعوا، أكثر عند هذا الحدث ... ويبدو أن العرب، بعيداً عن تشييد أو هام كبيرة، في طرد (expulsion) لم يقوموا به، رأوا فيه رحيلاً سرياً، حرمهم من مكسب جميل، وعلى عكس ما يدافع عنه السيد Fournel تماماً، فإن المحتلين انشغلوا دائماً بالبربر، ومقاطع المؤرخين الكثيرة التي استشهدت بها تثبت ذلك، فالرومي نادراً ما قُدم، بعد موت جرجير، إلا كمساعد للأهلي (indigènes).... ومع الأسف، فإن صاحب كتاب البربر (l'auteur des Berbères) الذي جرته حماسة البرهنة، لم

يُورد رؤية ما يعرضه المؤلفون العرب بكل بساطة ووضوح: الفكرة التي كانت لإخوانهم عن الروم و البربر، ومآل الأحداث (Suite des faits) (1).

ويكتفي E. Mercier بالقول: إن حسانا بعدما قضى على المواقع المحصنة، سار إلى الأوراس "حيث كانت الكاهنة المحاطة بمجموعات غفيرة من البربر تستعد للمقاومة، فنشبت معركة كبيرة على ضفاف نهر مسكيانه كان النصر فيها عكس المنتظر، لصالح البربر وملكتهم وقد يكون حسان هرب، مع شتات جيشه، إلى ما بعد قابس أمام ملاحقة الأهالي المنتصرين" (2).

وقد جرّ الحديث عن الكاهنة (E.F.) Gautier إلى الحديث عن قبيلة جراويّة، انطلاقاً من اعتقاده أن "موت كسيلة نتج عنه انتقال الرئاسة (primauté) (في البربر) إلى قبيلة أوراسية أخرى، هي قبيلة جراويّة التي كانت تسيطر على الأوراس الشرقي" ملاحظاً أن المغرب احتفظ إذاً، بالنوميديين على رأسه "وحتى الخصوصية الأوراسية لجراويّة مؤكدة أكثر من خصوصية أوربة" فابن خلدون يحدّد بصراحة موقع جراويّة في الأوراس، ويختلف هؤلاء تماماً عن أوربة: فهم ليسوا برانس، وإنما هم بتر، زناتيون... ليسوا مسيحيين كأوربة، لكنهم يهود، وبطبيعة الحال فإنهم على العكس من أوربة، رحالة، جمالون كبار، أقحاح تقريبا، قادمون جدد، دخلاء على المغرب، ليس لهم مثل أوربة، شراكة نسبية قديمة، في المصالح والأفكار، مع اللاتينية والمسيحية، منفصلون بعمق عن إفريقية القديمة، بحكم ماضيهم وطريقة معيشتهم، وهؤلاء هم الذين

(1) Les premières invasions arabes, p.163 Sq.

(2) Histoire de l'établissement des arabes, pp 61- 62.

أصبحوا رؤساء، حاملين لواء المغرب بكامله إنه موضوع ذو بعد كبير (في رأي Gautier) لم يلق بعد اهتماماً⁽¹⁾.

ومن هنا يتطرق هذا الأخير للحديث عن الكاهنة ذاتها قائلاً: "لقد عاد التاج هذه المرة، إلى امرأة، عرفت في التاريخ باسم الكاهنة، والمرأة التي تحكم الرجال، في المجتمع البربري، لها بالضرورة خاصية مقدسة، شيء من الكهانة (Quelques chose du Marabout)، وكلمة الكاهنة تعني، الساحرة، القديسة، ولها هذا المعنى في اللغات الثلاث: العربية والعبرية والبنوية"⁽²⁾.

ويميل Gautier إلى اعتقاد أن الأصل العبري هو الأصح، اعتماداً على قول ابن خلدون "ومن بين البربر اليهود، اشتهرت جرواة... " كما يقتبس من المؤرخ الأخير قوله "وكانت لها معارف خارقة للعادة يأتيها بها الشياطين المترددون عليها" مما جعلها، ولاشك (في رأيه) امرأة لافتة للنظر، حققت نجاحات كثيرة⁽³⁾.

وفي رأي نفس المؤلف فإن حسانا، بعد تحطيمه التحالف الموجود بين الروم والبربر، باستيلائه على قرطاجة لم يحصل على النتائج المرجوة، مادامت الكاهنة هزمت، بعد ذلك بقليل، وأجبرته على مغادرة إفريقية⁽⁴⁾ عند قيادته الهجوم العربي الجديد سنة 69هـ / 688-689م، وكان حسان بن النعمان الغساني والياً لمصر، وعندما زحف عليها، توقف على ضفة نهر مسكيانة، شمال الأوراس فقادت الكاهنة جيشها ضد المسلمين وشنت عليهم هجوماً ضارياً، أجبرتهم فيه على الفرار، بعدما

(1) le passé de l'Afrique du Nord, pp. 270- 271

(2) Ibid, p. 271.

(3) Id.

(4) Ibid, p. 274.

قتلت لهم كثيرا من الناس ولم تُضَيِّع أي وقت في ملاحقة العرب، وبإخراجهم من أرض قابس أجبرت قائدهم على اللجوء إلى مقاطعة طرابلس، وهناك فقط تمكن حسان من السيطرة على الوضع، في حمى الخطوط المحصنة التي تسمى قصور حسان إلى اليوم⁽¹⁾. والكاهنة بالنسبة للجنرال Brémond هي " امرأة من عائلة كبيرة، ديمنية ابنة ثابت (dimnia bent tabet) الملقبة بالكاهنة (كاهنة، ساحرة، كوهين) أو الداهية (la Dahia) (الملكة)، ملكة قبيلة جزاوة (djezaoua) أو جراوة اليهودية، استولت على حكم البربر، وكانت عاصمتها بغاية قصر باغاي⁽²⁾."

وفي تقدير Marçais G. أن حسانا، بعد إخضاعه المواقع الشمالية (البيزنطية)، بقي عليه إخضاع البربر الذين " تجمعوا، بعد موت كسيلة تحت قيادة امرأة أو بالأحرى، فإن قبيلة جراوة التي كانت تحت سيطرتها، أصبحت قطب اجتذاب لقوات المقاومة، وكان الأوراس يقف كالقلعة حيث تنتظم فيها تلك القوات ... وإذا كان هناك شك في أن الخيال الشعبي أغنى تاريخها بحلقة كاملة من الأساطير، فإن ذلك لا يعني أن كل ما قيل فيها يُستغنى عنه، إن إسناد القيادة إلى امرأة، في قبيلة بربرية ليس أمرا شاذًا، وتبدو حقيقة انتماؤها، مثل أقاربها، إلى الديانة اليهودية، مؤكدة من ابن خلدون، مع أنه مشكوك فيها، مما يستدعي التدقيق. وفيما يخص موهبة التنبؤ (prophétie)، الذي اتفق على الاعتراف به لها، فهو يجري بسهولة تقريبا، وعلى كل يمكن تصديق المؤلفين المسلمين، عندما سجلوا النكسة التي تكبدها جيش حسان بن النعمان القوي، على

(1) Gautier: Op. cit., pp.271-272.

(2) Berbères et arabes, p. 183.

ضفاف مسكيانة، فكان توقف إجباري للاحتلال (Conquête)، مرة أخرى⁽¹⁾.

وحسب Terrasse فإن " التحالف الجديد " (La nouvelle coalition) الذي تكوّن، بعد استعادة الأسطول البيزنطي لقرطاجنة، وثورة البربر بقيادة الكاهنة، تمكّن من إلحاق هزيمة بحسّان في منطقة بغاية-تبسة، وانسحبت الجيوش الأموية، مرة أخرى، إلى مقاطعة برقة⁽²⁾، وقد توقف Terrasse معلقا " أن نقاشا كثيرا دار حول شخصية هي الأخرى نصف أسطورية (à demi- légendaire)، وهي شخصية الكاهنة، واسمها الكاهنة (devineresse): يدفع إلى افتراض أن سلطتها أو شهرتها كان لها بعض الأصول الدينية، وتعتبرها بعض النصوص يهودية، بمعنى بربرية متهودة، وهذا ليس مستحيلا، لكنه يزيد من صعوبة تفسير التقاف تحالف بربري - مسيحي حولها⁽³⁾.

ويقتبس (Julien (Gh. A.) نظرية Gautier " عن جرواة ويرى "أنها خصبة، لأنها ستوضح، إذا ما تم تأكيدها، الاتجاهات الجديدة التي طبعت بها ملكة الأوراس، الكاهنة، الصراع"⁽⁴⁾، ويضيف في مكان آخر إنه في حين استولى الأسطول البيزنطي، الذي جهّزه الإمبراطور Léontios، على قرطاجنة " التفت حسان إلى بربر الأوراس، ويقال أنه علم أن ملكة قوية كانت تحكمهم تسمى الكاهنة، بمعنى المتنبئة، وكانت تلك المرأة التي لا يُعرف اسمها (دامية، ديهية ؟) تدين باليهودية، كما يؤكد ابن خلدون، وكذلك أبناء قبيلتها. وهناك من أراد اتخاذ لقبها كدليل

(1) La Berbérie musulmane et l'orient au moyen age, p. 34.

(2) Histoire du Maroc, T.I, p. 83,

(3) Ibid, p. 83, note1.

(4) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, p.20.

على ذلك، مع أنه عربي صرف، وقليل هم الأبطال الأفارقة ألهموا هذا
 القدر من الأساطير كالتى يُسميها Marçais G.، على نحو مُثير،
 "الديبورة البربرية" (La débora berbère) ، ومن جهة أخرى لنلاحظ
 نهائيا أن النساء، في بلاد البربر، لعيّن مرات عديدة دورا في المقام
 الأول، على الأقل، حتى العهد الموحدى... ومع ذلك لم تبلغ منهن واحدة
 درجة الكاهنة في السمو، والواقع أننا لا نعرف عنها سوى أسمها
 وسمعتها ومقاومتها العنيدة للمحتل (envahisseur)، وهي متشعبة، على
 ما يبدو، بالوطنية البربرية والعقيدة العبرية. وهناك أمر يظهر أنه مؤكد،
 هو أن الكاهنة أعادت تشكيل الكتلة البربرية وسحقت (écrase) الجيش
 العربي على ضفاف مسكيانة (بين عين البيضاء وبين تبسة) وألقت به
 في منطقة طرابلس (Tripolitaine)⁽¹⁾.

وتمثل الكاهنة في نظر طالبي "روح المقاومة البربرية للمحتلين
 (envahisseurs) العرب، بعد انهيار سلطة الروم الرسمية الموسومة
 بسقوط قرطاجة سنة 75هـ/ 602-603م. إن حقيقة شخصيتها التي قد
 تكون، فوق ذلك، معقدة جدا، تصعب بالأحرى، الإحاطة بها، فلا نستطيع
 التعرف على سماتها (traits) الحقيقية إلا بالأصداء المشوّهة، عبر
 منشور (Prisme) الأسطورة...: ليس هناك اتفاق على اسمها الحقيقي،
 وقد يكون أطلق عليها اسم ديهية (Dihya)... وقد تكون دَهِيّة ودَاهِيّة
 ودَمِيّة ودَامِيّة أو دحية، هي اختلافات في كتابة اسم واحد. يوجد نفس
 التردد في موضوع نسبها: فقد تكون ابنة تاتيت أو ابنة ماتية (Mathis,
 Mathieu) بن تيفان (Théophane)، فهل معنى ذلك أن الكاهنة من

(1) Julien: op cit., p.21.

هؤلاء البربر ذوي الدم الممزوج (mêlé) منحدره من الزواج المختلط (Mixte)؟ هذا إن ثبت، سيساهم في تفسير السلطة التي كانت لها، ليس فقط على مواطنيها ولكن أيضا على البيزنطيين، هذه الفرضية، بالأحرى، محتملة لدرجة أن بعض الدلائل تؤكد، فقد تكون الكاهنة نفسها تزوجت من إغريقي، إذ كان لها في الواقع، كما تم التأكيد لنا، ولدان: أحدهما من نسب بربري والآخر من أب يوناني، ويحتمل أنها كانت، عكس ما يُعتقد، على الديانة المسيحية أكثر مما يحتمل أنها كانت يهودية، وقد تكون قبيلتها جراوي، المتفرعة عن زناته ... التي تعيش على الترحال والرعي، اعتنقت في البداية، ولا شك، اليهودية لكنها تحولت فيما بعد إلى المسيحية، مثل قبائل أخرى كثيرة ومنها نفوسة، على سبيل المثال، وقد كانت، عند دخولها مسرح التاريخ، أرملة ومسنّة، بدون شك، وتمنحها الرواية 127 عاما، منها 35 قضتها "كملكة" الأوراس...، وكانت، ولاشك "شطحية" (une extatique): ففي وقت الإلهام (inspiration)، كانت تدخل في هيجان كبير، وتتشرب شعرها وتضرب صدرها، وكانت تمارس أيضا تقنيات تقليدية أكثر في الكهانة، كقراءة المستقبل في الحصى، وليس هناك شك في أن أكبر جزء من سلطتها، يعود الفضل فيه إلى مواهبها الكهنونية⁽¹⁾.

وقد قبلت "الكاهنة التحدي الذي سبق وأن رفعه كسيلة وعبّا، على الخصوص البرانس الحضر، وانتصرت في المرحلة الأولى: فبعدما استولى حسان ... على قرطاجة وحطم القوات البيزنطية المنظمة، توجه نحو الأوراس، حصن المقاومة البربرية، وبعدما جمع قواته على ضفاف

(1) Talbi Med : E. I, n^{elle} éd. leideñ- Paris 1978, .4, art. Al- Kahina, pp. 440-441.

مسيكينة وشنّ الهجوم، وبعدها حطمت الكاهنة باغاية، التي يحتمل أنها استخدمتها كعاصمة، وأرادت منع سقوطها المتوقع في أيدي المعتدين عليها (Agresseurs)، فعلت مثله، ووقع الصدام الحاسم على ضفاف نهر نيني الواقع، ولاشك، قرب محطة القطار (gare) التي تحمل نفس الاسم، وهي اليوم على بعد 16 كلم جنوب عين البيضاء، على السكة الحديدية القادمة من خنشلة، وكانت المعركة مشؤومة جدًا على حسان لدرجة أن الوادي الذي شهد عليها لم يعد يسميه العرب بعد مدة قصيرة، إلا نهر البلاء، وأيضاً لأسباب غير واضحة، وادي العذارى ... وكانت نهاية هذه الحملة الأولى ... في أرض قابس أثناء معركة أخيرة، دفعت الغزاة (envahisseurs) خارج إفريقية، وتلقى حسان الأمر بالتوقف عن الانسحاب، على بُعد أربع مراحل إلى الشرق من طرابلس حيث أقام معسكره⁽¹⁾.

كما تسبب سقوط قرطاجة في صدمة عنيفة ببيزنطة، فأرسل الإمبراطور léontius، الذي أسقط جستنيان الثاني (Justinien II) سنة 695م. "البطريق" Jean، على رأس أسطول قوي، لاستعادتها فكان ذلك، ولا شك، بعد انسحاب حسان من إفريقية⁽²⁾.

وكان الأمر الذي تلقاه حسان بالانتظار، حيث وافاه جواب الخليفة، يوحى في نظر Fournel، "بان حكومة دمشق كانت لها انشغالات حيثة في مكان آخر، وبالفعل فإن بلاد الشام (Syrie) عرفت ثورة (Soulèvement) سنة 79 هـ أو بداية سنة 80 هـ، قادها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بمساعدة سعيد بن جبير، فأعلن نفسه

(1) Talbi: op cit, p. 441.

(2) Talbi Med: E. I, n^{elle} éd, leyde - paris 1990, T.III, art. Hassan B. Al- Numan al-ghassani, P. 279.

خليفة ... واستولى هذان القائدان على البصرة، وطردها الحجاج من الكوفة وقاما بحرب تُفسَّر مدتها وحدها، تفسيراً كافياً، القلق الذي قد تكون أوحته به منذ بدايتها إلى عبد الملك، لأنها لم تنته لي إلا سنة 83هـ بواقعة دير الجماجم التي خاضها المهلب ضد عبد الرحمن و قتله فيها....، وتتفق المصادر (auteurs) العربية على أن حساناً، بعدما انتظر في صبر، بِقُصُورِهِ على ساحل سيرت (Syrt) خمس سنوات، تلقى الإمدادات والأموال، مع الأمر بدخول إفريقية ثانية، وذلك في نهاية سنة 83 أو بداية سنة 84هـ⁽¹⁾.

ويعتقد Caudel أن تبني تاريخ 77هـ / 696م، لانسحاب حسان، (بعد هزيمته على يد الكاهنة) يترك له " الحرية بالنسبة للمؤرخين العرب الذين يحددون إقامته في قصور حسان بسنوات عديدة، ويدعي أغلبهم أنه أقام خمس سنوات، ويقول المالكي ... ثلاث سنوات فقط، وهاهو يتفق معنا، تقريباً، لأن استعادة قرطاجة كانت سنة 698م. / 79هـ، وهذا تاريخ مؤكد، قدّمه المسيحيون فحسان بقي، إذا أكثر قليلاً من سنتين، خارج إفريقية"⁽²⁾.

وبالنسبة لـ Mercier فإن حساناً استقر في برقة، ومن هناك كاتب المشرق يطلب الإمدادات، لكن عبد الملك المنشغل بحروب أخرى لم يكن في استطاعته تحويل جندي واحد إلى حسان الذي لم يتلق إِذًا، دعماً إلا بعد خمس سنوات من تاريخ هزيمة مسكيانة، عندما هدأت حروب المشرق، بعد سقوط ابن الزبير المشهود (mémorable)، حوالي 693م، فسار مجدداً على رأس جيش قوي إلى المغرب"⁽³⁾.

(1) Les Berbères ,T.2, p. 221-Sq.

(2) Les premières invasions arabes, p.170.

(3) Histoire de l'établissement des arabes, p. 62

وقد أدى انسحاب حسان إلى برقة، أمام الكاهنة، حسب Marçais G. "إلى توقف إجباري للاحتلال، مرة أخرى، استمر ثلاث سنوات من الهدنة (repit)، جاء خلالها أسطول إغريقي لاسترجاع (réoccuper) قرطاجة"⁽¹⁾.

أما الكاهنة المنتصرة فيقول عنها Fournel "إن الحركات الكريمة التي أظهرتها النبوة (prophétesse) في طريقة معاملة أسراها، امتزجت لديها مع إحياءات كشفت عن همجيتها: اقتناعاً منها أن العرب يطمعون في إفريقية للتمتع بنباتاتها الغزيرة ونهب ثرواتها فقط ظنّت أنها اتّقت عوّنتهم إلى الأبد... عندئذ تم، بأمر منها تخريب فضيع، فحطمت المدن وأُتلفت الحقول والبساتين، وقطعت الأشجار وحولت المياه، واختفى كل ما يمكن أن يستهل على العرب غزواً (invasion) جديداً، هكذا كان أحد الأعمال الرئيسية للكهانة المسيطرة على بلاد البربر... وبإصدارها تلك الأوامر.. فإنّ ملكة النبوة التي اختصت بها الكاهنة، ألهمتها هذه المرة، وحيّا سينا جداً، لأنها قد تكون، بكل تأكيد، هيّجت السكان المسلوبين بهذه الطريقة، ولم تتجنب الآفة التي كانت تخشاها"⁽²⁾.

وفي رأي Caudel: فإن الكاهنة سيطرت خلال السنتين (وليس خمس سنوات) اللتين بقي فيهما حسان خارج إفريقية "على الجزء الجنوبي من المقاطعة التي لم يستردها البيزنطيون، وكان التقسيم بين الأميرة البربرية والبطريق، سهل الإنجاز، بدون شك، حيث أقامت جنوباً في مَراق الجنوبية، منطقة السهول المفتوحة، في حين كان Jean يعيد بناء الليمس القديم، قدر المستطاع، على الخط الذي يربط Sicca

(1) La Berbérie musulmane et l'orient; p. 34.

(2) Les Berbères, T 2, pp. 221-222

Hadrumetum بـ vénéria، وهذا ما يُستنتج من نص البطريرك Patriarche نقفور (Nicéphore) السابق، على الأقل⁽¹⁾.

ويرى Mercier E. في الانتصار المحقق على حسان نجاحا أعاد البربر لأنفسهم، مدة معينة أخرى، سيطرت فيها الكاهنة على إفريقية والمغرب الأوسط ... وعند اقتراب الخطر أمرت ... بحرق حقول المغرب الغنية حتى تخلق فراغا أمام العرب، لكنها نفرت. بهذا الإجراء القاسي، قلوب عدد كبير من البربر، لم ترق وطنيتهم إلى مستوى التضحية بالثروة من أجل الاستقلال، وهكذا تأججت، أثناء السنوات الأخيرة من السلم النزاعات الداخلية، في كل النواحي، فأنهى العمل الذي بدأه الخلاف التضحية التي فرضتها الكاهنة، فلم تلب أية وحدة عسكرية النداء، واستعدت الملكة المهجورة للموت، من أجل القضية التي كانت تدافع عنها⁽²⁾.

ويعتبر Gautier (E.F.) رواية ابن عذاري، في نقل أسطورة تخريب الكاهنة لإفريقية، التي تنافس المؤرخون العرب في نقلها، هي الأكثر انتشارا، ملاحظا حدوث تعاليق كثيرة على هذا المقطع الذي يحمل شهادة مفيدة على تدهور المغرب تحت السيطرة الإسلامية، ومنذ مدة طويلة تمت ملاحظة أن الكاهنة، وحدها، لم تكن تستطيع، في سنوات قليلة تكديس خراب بهذا الحجم، غير أن المقطع زيادة عن ذلك، يُلقى ضوءا ساطعا على أسباب التنافر العميق بين النوميديين وبين حلفائهم الحضرة (Urbains)، ويقتبس Gautier عن ابن خلدون (نون توثيق) قولاً يصفه بالحكيم مفاده "أن البربر نظروا إلى تخريب ممتلكاتهم

(1) Les premières invasions arabes, p.171..

(2) (Histoire de l'établissement des arabes, Pp 62-63.

بانزعاج كبير "معلقاً أن المقصودين هنا هم، بطبيعة الحال: المزارعون وسكان المدن، الحضر: لقد رأى هؤلاء أن كل ما يعطي قيمة للحياة، في نظرهم، مهدّد، كما جعلتهم بضغّ سنوات من حكم البتر يلمسون، بأصابعهم عدم تفهم للسادة الجدد الكلّي والبنوي لمصالحهم، إنه النزاع الأبدي، بين البدو والحضر، الذي نجده في كل مكان، وهو القاعدة الأبديّة لازدواجية الروح في المغرب⁽¹⁾.

ويتعجب نفس الكاتب من حدوث حركة مترابطة لدى البتر، ففي الوقت الذي كان الحضر يديرون فيه ظهورهم للبدو، هيجت تلك الولاية (Maraboute)، الكاهنة خيال العرب، فابتعد مؤرخوهم عن كل عاداتهم، وراحوا يلخّصون عنها صورة حية، أحياناً، مع أنها أسطورية، بطبيعة الحال⁽²⁾.

وفي رأي Marçais: إنّ الكاهنة "استغلت هدنة الثلاث سنوات لتخريب الأرياف (campagnes) وتحطيم المدن بانتظام، قصد تثبيط عزيمة المحتل (l'envahisseur) وقد يكون نتج عن هذه المعالجة البطولية، التي يحتمل أن يكون الفلكلور بالغ في سعتها، غضب البربر وحتى البيزنطيين الذين كانوا يؤيدونها"⁽³⁾.

ويرجع (Julien (Ch. A.) "النصر السهل" الذي حققه حسان على الكاهنة، في حملته الثانية عليها إلى "تشتيت" البربر، ذلك أن تلك المرأة "قد تكون حكمت المغرب خمس سنوات، وفق المبادئ البدوية (nomades)، ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت النتائج: لقد أكد كل المؤرخين العرب أن الغزاة (envahisseurs) وجدوا مساعدين مهمّين

(1) Le passé de l'Afrique de nord, p 276.

(2) Ibid, pp. 276-277.

(3) La Berbérie musulmane et l'orient; p 34

(précieux)، من الروم والبربر الحضرة، وإذا صحَّ أن الملكة أرادت تفادي عودة العرب بتخريب البلاد وتحطيم الأشجار والجدران فإنه يكون من السهل فهم أنها أثارت ضدها المدنيين (citadins) والمزارعين، سواء كانوا إغريقا أم أمالي، وكان حسان على علم بما كان يجري، ولا شك أنه استفاد من تلك الوضعية، بالإضافة إلى أن (ال خليفة) عبد الملك الذي انتصر، منذ وقت قريب على الثورة الأخيرة التي أعلنها أحد المطالبين بالخلافة سنة 702، بعث إليه جيشا هاما استخدمه في عملية الهجوم⁽¹⁾.

ويسجل م. طالبي أن الكاهنة "وسَّعت سيطرتها (domination) ولكن من المؤكد أن سلطتها (pouvoir) لم تشمل المغرب كله، كما تؤكد ذلك بعض المصادر ... ولا كافة إفريقية... وكانت قد تبَّنت، بفضل عادة (rit) الرضاغة البربرية الصورية، قائدا (chef) مؤثرا... أسند إليه دور الجوسسة لصالح حسان، هل أرادت (بنلك) إحداث علاقات جيدة مع العرب، وحملهم على التخلي عن نواياهم التي كانت تعرفها بواسطة طرق أكثر تأكيدا من الكهانة ؟ ومن المحتمل أن يكون فشل هذه السياسة أدى بها إلى اتخاذ قرار جذري ترتبت عليه نتائج جسيمة، بعد استنفاد جميع الوسائل، التخريب... وقد أثارت تلك التخريبات مناقشات طويلة بحيث أن بعض المؤرخين المحدثين ينفون حدوثها، في حين يبالغ الإخباريون العرب في وقوعها بإفراط. وفي الواقع، يبدو أنه من غير الممكن نكرانها، ولا إعطاؤها أبعاد كارثة حقيقية بإنصاف، وقد لا تكون تجاوزت إطار بعض مناطق إفريقية لكنها قد تكون، مع ذلك، هامة

(1) Histoire de l'Afrique du Nord ,T.2 :p.20

وكافية لإغضاب شرائح واسعة من المجتمع الحضري التي استسلمت، عندما لم تبحث عن اللجوء إلى جزر البحر المتوسط وحتى في إسبانيا، إلى التماس تدخل حسان⁽¹⁾.

وفي اعتقاد Fournel H. أنه "إذا أثبتت صحة التفاصيل الواردة في شأن تزويد ولد الكاهنة، بالتبني، لحسان بمعلومات (عنها)، فإن ذلك يشكل خيانة شنيعة لكنه لم يزعزع كرم ملكة الأوراس: فَبِتَوَقَّعُهَا (prévoyant) أنها ستُقتل، في الصراع الجديد الذي ستخوضه، ليس بصفتها كاهنة ولكن لأنها كانت تعرف قوة حسان، وكذلك الهيجان الذي تسببت فيه حولها، بتخريب البلاد، فبذلك التوقع إذا، أرسلت ولديها (Ses fils) إلى القائد العربي، بصحبة خالد بن يزيد، مع توصيته عليهما وهو ذلك الولد بالتبني الذي أعادت إليه حريته، في مقابل الخيانة التي يكون سبق وأن ارتكبتها، وقد تَوَسَّلَ إليها ولداها، عبثاً، أن تفر وتترك البلاد للمسلمين ما دامت تعلم أن هلاكها حتمي، وتظاهر خالد نفسه بضم إلحاحاته إلى إلحاحات ولديها، غير أن هذه المرأة البطلة أجابت: "إن الهروب سيكون عاراً على شعبي (peuple)، وإن التي حكمت البربر والعرب والنصارى يجب أن تعرف كيف تموت ملكة" وسرعان ما التقى الجيشان ... وهُزِمَ البربر... ولُوْحِقَتْ ملكتهم إلى أن قتلت بالأوراس أمام بئر كانت تسمى في عهد ابن خلدون، بئر الكاهنة، وأرسل رأس هذه المرأة الباسلة إلى عبد الملك ثم... دخل حسان القيروان في رمضان سنة 82هـ، حسب ابن عذاري، أو 84، حسب القيرواني، وهذه الأخيرة هي المفضلة، طبعاً، وهي تتفق، على الأقل، أكثر مع التواريخ

(1) Talbi M.: E I, n^{elle} éd., leiden- Paris 1978, T.4, art. Al- Kahuna, p.441.

التي عيّنتها، على التوالي، للأحداث السابقة⁽¹⁾، ويعتقد Fournel أيضا أن ابن خلدون، الذي حدد تاريخ وقوع هذا الحدث، هنا وفي أماكن أخرى، بسنة 74، كتب 84، لأن هذا الخطأ يبدو، بالنسبة إليه، جرّ خطأ 69 عوض 79 التي هي، بالنسبة إلينا، سنة هزيمة الكاهنة لحسان⁽²⁾.

وفي نظر Caudel فإن الكاهنة كانت تتوقع أن يعيد حسان زحفه عليها " فاتبعت خطة (Tactique) جديدة، يبين لنا عنها موقفها السابق من باغاي بعض التصور ... وكان سلوك (التخريب هذا) محزنا، نقر من الملكة الأهلية (indigène) للمعمرين المزارعين الذين لم يجدوا، لحماية أشجار زيتونهم إلا حسانا⁽³⁾، وبعدما اقتبس نفس المؤلف نصّين يتحدثان عن انضمام إلى هذا الأخير من صفوف أعدائه: أحدهما من كتاب معالم الإيمان والآخر من رياض النفوس، يخلص إلى القول: إن تلك المرأة، عندما "أحست أنها مقتولة أرسلت إلى الأمير ولديها وأسيرها، يزيد بن خالد الذي كان حاميا لهما"⁽⁴⁾.

ويذكر العرب أنه كان من بين أسرى وادي نيني الثمانين، فتعلقت به (prit en affection) "وتبنته في حفل بدائي (barbare) كان يمارسه البربر وقت الجاهلية، وأصبح يزيد هذا حميما لولدي الأميرة، واستفاد من موقعه لتزويد قائده حسان، عن قوات أمّه بالتبني، وصار عند هزيمة البربر النهائية، وسيطا مفيدا بين أخويه هذين وبين الأمير"⁽⁵⁾.

ويحدد هذا الكاتب مكان وقوع المعركة التي هُزمت فيها الكاهنة وقتلت " قرب بئر أطلق عليه المسلمون، منذ ذلك الوقت، تسمية بئر

(1) Les Berbères, T. 2, p. 224, note a

(2) Les Berbères, T.2, p. 224, note a

(3) Les premières invasions arabes, pp.171-172..

(4) Ibid, pp. 172-173

(5) Ibid, p.171.

الكاهنة، وهناك أيضا مَنْ يزعم أنها قُتلت في مكان يسمى طرفة⁽¹⁾ ويرى أن تسمية "طبرقة التي أطلقها عليها كل من ابن الناجي والبكري هي خطأ إملائي، لأن طرف مَسْكَالَة أو مَسْكُولة هي ناحية من بلاد الحراكنة، الواقعة على ست فراسخ إلى الشمال من بغاية " حسب مقدمة ابن خلدون الجغرافية. لاحظوا اسم البحيرة المجاورة، فرعة الطرف... وربما كانت، قرب بحيرة الطرف، بلدة تسمى بهذا الاسم تحديدا⁽²⁾.

ويحاول Caudel أخيرا، تحديد سير الأحداث التي كان لحسان فيها دوره، حيث أنه عُنِنَ واليا على إفريقية، بعد وفاة زهير بن قيس، ربما منذ سنة 69هـ/678م، وهاجم سنة 75هـ/694م، روم الولاية البيزنطية (proconsulaire)، فاستولى، مرة أولى، على قرطاجة، وبنانتصاره على الإغريق التفت نحو قوة بربرية جديدة، هي قوة الكاهنة، وتكبد هزيمة نكراء، وبعد طرده خارج المقاطعة نَظَمَ صفوفه بقصور حسان ثم عاد بعد حوالي سنتين، أي سنة 79هـ/698م ليستأنف هجومه ويَذَحَر جيش الكاهنة، قرب قابس، ولاحق الأميرة إلى الأوراس، فهزمها وقتلها واسترجع القيروان⁽³⁾.

ويسجل E. Mercier أن حسانا، في حملته الثانية " دَحَرَ، وهو يتقدم مع جيشه، كل شيء وَجَدَه أمامه، وبعد استعادته القيروان استولى، بصعوبة على قرطاجة التي حاول سابقوه إخضاعها عبثا، وسَلَمَها للنهب ثم استولى على بقية حصون الساحل، على لتوالي، وبعدئذ سار القائد العربي إلى الكاهنة، وكانت ملكة الأوراس تنتظره في جبالها، مع أتباعها

(1) Caudel, op, cit, p.173.

(2) Ibid., p.173, note3

(3) Td.

من جرواة وبعض البربر الآخرين، وانزلت معركة ضارية، غير بعيد عن بغاية لكن أعداد العرب انتصرت على شجاعة الأهالي ...⁽¹⁾.

ويقول (E.F.) Gautier، في تعرّضه لما يسميه "أسباب الأنهيار" إنه يظن أن حدثًا محوريًا يتبين جيدًا، من خلال المؤرخين العرب، وهو أن جرواة كانوا بترًا⁽²⁾، وبعد اقتباسه بعض نصوص ابن الأثير وابن خلدون، في موضوع الأخطاء التي ارتكبتها الكاهنة ولجوء بعض أنصارها إلى حسان والهزيمة النكراء التي ألحقت بها، يلاحظ "أننا لم نخبّر حتى بمجرد اسم تلك المعركة وبالمقابل كيف قدمت لنا الاستعدادات إليها"⁽³⁾ بإرسالها وكذئها مع خالد إلى حسان وخروجها يوم المعركة، ناشرة شعرها، وهي تنبئ قومها بمقتلها المؤكد، وأنه "إذا كان هذا الفلكلور، يعني شيئًا، فهو أن احتمال ضراوة تلك المعركة ضعيف"⁽⁴⁾.

لقد وجد حسان، عند عودته، الكتلة الخطيرة التي حطمته مُفَكَّكة...⁽⁵⁾ ويعرض Gautier قصة تنبئ الكاهنة للشاب خالد الجميل، وإرسال أخويه من الرضاعة معه إلى حسان الذي أمّنها وعقد لكبيرهما على قيادة جرواة وولاية جبل الأوراس، مستنتجًا أن "مثل هذه النادرة، في الواقع، بربرية جداء، سواء تعلّق الأمر بالبتر أم بالبرانس: إذ يوجد مثيلها، بالضبط، في القرن العشرين، بالمغرب الأقصى، في مواجهة المحتل (Conquérant) الفرنسي حيث أن رئيس قبيلة جبالية، في بلاد زيان، موحّة أو حمّو، حقّق في بداية الأمر نجاحًا كبيرًا ضد المحتل الفرنسي، وبعد سنوات قليلة أيّفن أن اللعبة انتهت، وأن المقاومة أصبحت

(1) Histoire de l'établissement des arabes, p. 63

(2) (Le passé de l'Afrique du Nord, p. 274.

(3) Ibid, p. 275

(4) Id

(5) Id.

مستحيلة، ماذا سيفعل؟ قام ببادرة خاصة، وبالضبط بادرة الكاهنة، التي تُدهشنا، كما أدهشت أيضا، العرب، قبل ذلك بخمس مائة سنة، هل سيَتخلَّى عن الكفاح (à lutter)، هو مُوحَّة أو حَمُو شخصيا؟ لا، لقد ظن، مثل الكاهنة، أنه من العار عليه أن يفعل ذلك ولكنه أعطى أمر الخضوع إلى المنتصر لأبنائه، ففعلوا، دون قصد خفي، وحضروا إلى جانب الفرنسيين المعركة الأخيرة التي قُتل فيها والدُهم، ومعنى ذلك أنهم ساهموا في موته، ثم تحولوا إلى أكثر المساعدين قيمة وإخلاصا، بالنسبة للجنرال poeymirau، خلف حستان البعيد. وقد تم، في مكان آخر تحليل السيرة النفسية عن هذا السلوك الغريب، ويكفي التذكُّر، أن البربري، في القرن العشرين، كما في القرن السابع، ليست له أية فكرة عن الوطن، وهو لا يتصوّر حتى المغرب كوحدة متكاملة، قد تكون له واجبات نحوه، ولا يهتم أكثر بالوطن الصغير، نوميديا أو بلاد زيان، ليست له فكرة عن ذلك، والشئ الوحيد الذي يتحمس له البربري، ويكون مستعدا لتقديم حياته من أجله، هو عَشِيرَتُهُ (son clan)، عائلته، ومن ثم يتضح كل شيء، وأمام الكارثة الوشيكة المحتومة، فإن الشئ الوحيد الذي يهدد حقيقة، هو العشيرة، هل يمكن تخليصها؟ بكل وضوح نعم، وسواء كان المنتصر عربيا أم فرنسيا، فهو لا يطلب أكثر من استعمال خدمات أسرة يكون قد اختبر نفوذها، زيادة عن اللزوم، ثم إن المؤرخ العربي وضع في فم الكاهنة جملة لها مدلولها (caractéristique): "قالت لهما إذهبا فكمكما سيحتفظ البربر ببعض النفوذ (pouvoir) "علما أن البربر المقصودين هم بالضرورة جرواة، بقيادة عائلتها الأميرية: فالطريق، إذا، مرسوم، وينبغي الخضوع، وإذا كان من غير الممكن أن تقوم الملكة العجوز، المكلفة بالنصر بهذه التضحية، فإن وكدنيها يفعلان ذلك بأمر

منها: إنه واجبهما المقدس وسيقومان به فعلا، مثلما فعل أبناء مُوحّة أو حَمُو، بنوع من البطولة الشرسة... فهذه النادرة الأسطورية والغريبة تشتم فيها للوهلة الأولى، على ما يبدو، رائحة ألف ليلية وليلة، ويصبح من المستحيل الشك في خطوطها العريضة... ثم إن غرابة الحدث لا توجد سوى بالنسبة إلينا، نحن الغربيين المدربين، منذ ثلاثة آلاف سنة، منذ المدينة القديمة، على فكرة الوطن، إن سلوك الكاهنة ومُوحّة- أو حَمُو، هو بكل وضوح، ردُّ فعل عادي لعقل سياسي لم يتجاوز مستوى (l'étage) العشيرة، وقد بقي مغرب كل الأزمنة، بكامله في مستوى لعشيرة " (1)

وبالنسبة لـ. Marçais فإن حسانا، بعد إطلاعه على الخلاف بين الكاهنة ورعاياها، نتيجة سياستها المدمرة " عاد بقوات جديدة. وفي سنة 698 م تم الاستيلاء على قرطاجة، مرة أخرى، نهائيا هذه المرة، وفي سنة 700 أو 701 م تم سحق المغرب في معركة كبيرة، لقيت فيها الكاهنة حتفها المجيد الذي أخبرتها به ملكتها التنبؤية (prophétique) الخاصة " (2).

أما Terrasse H. فيذكر " أن حسانا أعاد الهجوم سنة 702م، ولما شعرت الكاهنة بعجزها عن مقاومة صدمة الجيوش الإسلامية، أحدثت فراغا أمام العدو، لكن حسانا استعاد قرطاجة، وأبعدت بيزنطية التي كانت قد ضيّعت، آنذاك، إمبراطورية البحر، من إفريقيا الشمالية، وسيحارب البربر وحدهم، وبعد هزيمة الكاهنة لُوحتت حتى الأوراس حيث قتلت " (3).

(1) Le passé de l'Afrique de nord, p.277sq

(2) La Berbérie musulmane et l'Orient, pp 34

(3) Histoire du Maroc, T.1, p 83

ويحدّد Julien (Ch. A.) غزو حسان الجديد لمُزَاق واستعادته قرطاجة بسنة 698م، مُضيفاً أنه لم يُعثر في المدينة إلا على بعض الروم الذين كانوا بُؤساء لدرجة لم تمنعهم من تغيير السّادة، دون أية مبالاة، بينما انتقل السكان الآخرون إلى جزر البحر المتوسط. لكن حسان وضع أسس مدينة جديدة، مباشرة، بعد سقوط العاصمة، في عمق خليج قابس، وكانت في بداية الأمر تلعب دورَ دارِ صناعة بحرية، بعيدة عن عرض البحر. في حين بَعُثرت سفنُ الخليفة الأسطول البيزنطي الأخير الذي استطاع أن يَجُول سواحل إفريقيا، وانتقلت سيادة البحر إلى العرب، وبعد ذلك بقليل لم يعد الإغريق يحتفظون إلا بموقع سبّتة (Septem)، مع بعض بقايا موريطانيا الثانية (Seconde) والطنجية (Tingitane) ومايوركا (Majorque) ومينوركا (Minorque) ومدن نادرة في إسبانيا، وجعلوا كل ذلك، على ما يبدو، في إكسارخية استمرت عشر سنوات أخرى. وبقي التغلّب على البربر! إنْ تشبّتهم، هذه المرة، جعل النصر عليهم أمراً سهلاً. وقد تكون الكاهنة حكمت المغرب، مدة خمس سنوات، وفق المبادئ البدوية، فلم يتأخر ظهور النتائج⁽¹⁾. وتعليقاً منه على الأمر الذي أصدرته الكاهنة لولديها، بالانتقال إلى العدو، يعتقد Julien أن * (E. F.) Gautier بين، بمقاربة مثيرة، كمّ أن هذا السلوك طبيعي لدى رئيس بربري يضع سيطرة عائلته على القبيلة فوق كل اعتبار. وقد خاضت الملكة العجوز معركة يائسة، ربما قرب طبرقة... وقُتلت قرب بئر... وأُرسل رأسها ... إلى الخليفة... وبموتها انتهى عهد الدفاع البطولي...⁽²⁾.

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, P.21

(2) Ibid, P.22

وقد مكث حسان في منطقة طرابلس (Tripolitaine)، بعد هزيمة مسكيانة، حسب م. طالبي، ثلاث سنين ثم استأنف الهجوم بجيش جديد، سنة 78هـ/697-689م، ويُحتمل أن تكون بعض المجموعات البربرية الساخطة على سياسة الكاهنة قد دعمته، وهُزمت هذه الأخيرة وقُتلَت في المعركة. وبعد ذلك تم الاستيلاء على قرطاجة التي غادرها المدافعون عنها في الوقت المناسب...⁽¹⁾.

ويُخصّ Fournel H. ما أورده المصادر العربية من أن إتمام فتح (Conquête) إفريقية كان مع مقتل الكاهنة وتأمين سكان الأوراس في مقابل 12000 مقاتل، كوّن منهم حسان فرقتين عسكريتين متكافئتين، وجعل على رأس كل واحدة منهما ابنا من ابني الكاهنة وكلّفا بالنهوض إلى المغرب، والقضاء على الروم والبربر الذين بقوا على شركهم. وبينما كانت هذه المهمة الشاقة تُنفَّذ، دخل الوالي القيروان وانشغل بتنظيم إدارة البلاد، وبالأخص وضع الخراج (الضرائب على العقار)، وسجّل، في الديوان، النصرى من الأهالي ومعهم الغرباء على إفريقية، وكان منشغلا بهذه الاهتمامات، مستفيدا في ذلك، من الهدوء الذي عاد إلى المنطقة، لكن عبد العزيز بن مروان عزله فجأة وبعث له، في نفس الوقت، أمرا بالقنوم عليه، وولى مكانه موسى بن نصير⁽²⁾.

ويتابع Fournel قصة سفر حسان إلى مصر وما جرى له مع عبد العزيز بن مروان هناك ثم انتقله إلى الخليفة بدمشق وما كان بينهما، متوقفا عند اسم الخليفة الذي استقبله، وملاحظا "أن ابن عذاري، والنويري الذي نقل عنه، بطبيعة الحال، يؤكدان أنه كان الوليد بن عبد

(1) Talbi Med, E I, n^{elle} éd, Leyde- Paris 1990, T3, art. Hassan B. Al. Numan al-ghassani, p 279

(2) Les Berbères, T. 2, pp. 224 -225

الملك وخليفته، لكن هذين المصدرين نسيّا أن عبد العزيز كان وليّ العهد (successeur) الذي عيّنه مروان، في حالة وفاة عبد الملك، ومع ذلك، يقول Fournel، سأترك ابن عذاري يصحّح نفسه: "كان عبد الملك، كما قال، يفكر في عزل أخيه عبد العزيز عن ولاية مصر سنة 85هـ، بسبب غضبه عن عزل حسان بن النعمان وعن نهب الغنيمّة التي حملها هذا القائد من إفريقية.... وقد تمكّن قبيصة بن جؤيب من إقناعه بالتأجيل.... إلى أن مات عبد العزيز في 12 جمادى الأولى سنة 86هـ فعوض فوراً بشقيق آخر للخليفة، عبد الله بن مروان. وبعد خمسة أشهر أخرى، يوم 15 شوال 86/ الجمعة 9 أكتوبر 705م التحق الخليفة بأخيه في القبر وخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك. وهكذا حتى وإن تمّ تبني آخر تاريخ حدّد به المؤرخون وفاة عبد العزيز، فإنه يستحيل، كما تبين، موافقة ابن عذاري في قوله، إن حسان وجد الوليد خليفة، عندما انتقل من مصر إلى دمشق"¹.

ويرى Fournel فيما كتبه النويري من أن الوليد كاتب عمه عبد العزيز خطأ واضحاً، لأن ذلك يعني أن هذا الأخير المتوفي في جمادى الأولى 86هـ، لم يزل بعد أميراً لمصر، عند تولية ابن أخيه منصب الخلافة².

ويذهب Caudel إلى القول: إن حساناً بعدما هزم الكاهنة وقتلها "استعاد القيروان، وبعد ذلك بقليل طرد نهائياً الإغريق من قرطاجة وفي نفس الوقت أخضع البربر، وأصبح المسيطر المطلق على كامل إفريقية، والاتفاق التام بين الإخباريين العرب، حول السير العام للأحداث، يمنعنا

(1) Fournel : op.cit., p. 226, sq

(2) Ibid, p 227, note 2

من تبني نظرية Fournel التي تقول: إن حساناً فقد قرطاجة وهو لا يزال بعد بالقيروان، وأنه استعادها قبل إلحاق الهزيمة النهائية بالكاينة، كما أن التسلسل الذي يقترحه مؤلف كتاب البربر لسير الأحداث، هو أيضا غير مقبول، وأنا أفضل التعيين التقريبي الذي وضعته على دقته الخادعة، لما يمثل من مزايا ثلاث هي: أنها لا تناقض الإخباريين إلا في نقطة واحدة، تاريخ 84هـ الذي يحدثون به استرجاع قرطاجة والذي لا يمكن قبوله في كل الأحوال! وأنها تتفق مع الافتراضات التي وضعها المؤلفون الغربيون الذين عرفوا كيف يستخدمون المصادر العربية وأحسنوا الاقتباس منها بطريقة أفضل ومنهم: Amari وWeil، وأنها تتفق مع الرواية المسيحية التي يقدمها السيد Diehl¹.

ويلاحظ Caudel قائلا: "إننا نعرف الآن تقريبا، كيف وقع احتلال إفريقية نهائيا، لنبحث قليلا لماذا تم الأمر هكذا، والمسألة الأكثر تعقيدا في هذه الإشكالية ليست مسألة التواريخ، في وقت معين أو في آخر في سنة 78 أو في 84هـ أصبحت إفريقية دار إسلام: وهذا الحدث الأخير هو المهم. كيف استطاعت أن تكون كذلك بتلك السهولة، وبدون رجوع محتمل؟ إن الكاهنة كونت إمبراطورية قوية، بعد معركة واد نيني؛ وتوسعت ولا شك في مزارق كلها، وكان لها جيش ضخم مادامت أقدمت على الذهاب حتى قابس لاستقبال العدو، في سهل، بعيدا عن ملاجئها المعتادة، وهو ما لم يجرؤ غيرها على القيام به قبل ذلك، لا جرجير، عام 27هـ، ولا كسيلة عام 55. كما عرفت، بطبيعة الحال، كيف توظف في الروح البربرية، نوعا من الشعور الوطني، انطباع وجود خطر مشترك

(1) Les premières invasions arabes, pp. 175-176

ستكفي قواتُ القبائل المتوحّدة وحدها (bien juste) من إيعاده، زيادةً على أنها وجدت صعوبة أقل في استمالة، المعمرين اللاتين والإغريق المذعورين من كثرة الكوارث المتعاقبة، إليها. وبالضبط فإن الإخباريين يقولون لنا إن الروم أيدّوها. ونحن ندرك يقظة الوطنية البربرية، رغم ندرة ما يقدّمونه لنا من وقائع. إن الهبة الجماعية التي اتجهت إلى وادي نيني، والجرأة، غير المألوفة لدى الجيوش المحلية، التي جعلتهم يخوضون معركة مواجهة مخططة (bataille rangée) ضد الجيش العربي المنتصر على الإغريق، والزحف إلى قابس، وخوض معركة في ذلك المكان، كلّ هذه الأمور هي بالنسبة إلينا براهين، غير أن عبقرية الكاهنة لم تمكّنها من بناء أكثر من إمبراطورية بربرية بمعنى الإمبراطورية الأكثر تفكّكا والأكثر اختلافا والأكثر هشاشة للبنى السياسية: ذلك أنّ تقلّب وشراسة رعاياها ضيّعا كلّ شيء، إذ كان من المستحيل عليها ألا تلاحق العتو المنهزم حتى قابس، بعد الانتصار الذي حقّقه بوادي نيني، ولما وصلت هناك سلّمت مُزاق إلى قبائل الهضبة، فنهبوا كما نعلم. ومع أن مؤلفينا يرون في تخريب المقاطعة خطية متعمّدة من الملكة، أمام الفريسة الفاخرة التي تُعرض عليهم نفسها، بضعف الجرأة الوطنية التي أيقظتها الكاهنة في نفوسهم، ومع ذلك، فإن تلك الجرأة، بالنسبة للأغلبية، ناجمة عن الغيرة الحادة من الزميل (العربي) الذي كان يأخذ أحسن القطع من النهب، وعندما عاد العربي سارت القبائل إليه للدفاع عن فتوحاتها، لكن لم تفكر، بعد وفاة الملكة، سوى في إنقاذ ما يُمكن من الكارثة. وعندئذ أظهر حسان مهارة فائقة: إذ كان له الوقت الكافي للتفكير، أثناء انسحابه في القصور، وأقنعت هزيمته بوادي نيني أن القوة البربرية، مهما كانت، غير متساوية ومفكّكة، كبيرة

وبإمكانها إن واجهها مباشرة، أن تخلق له صعوبات جديدة. وفي نفس ذلك الوقت، كان يزيد بن خالد (خالد بن يزيد) يقول له: إن البربر ليس لهم أي تماسك وأي اتفاق"، فاستفاد من الملاحظة، وعند عودته إلى إفريقية طبق، إن لم نقل صاغ المبدأ السياسي المشهور: فرق تسد: فحرّض البربر ضد بعضهم البعض. وما كان الأهالي يريدونه، ليس أميرا من أمّتهم، ولا دولة على طريقتهم، ولا إيادة العرب، إنما كانوا يريدون الأرض فأعطاهمها حسان. وكانت صدمة وادي نيني المزعجة قد دُحرجت القبائل إلى السهل، ولم يستطع الأمير ردها إلى الأوراس فتركها حيث هي، مستخدماً أكثرها ليونة في حراسة غيرها، ومنح ممتلكات للتي اعتنقت الإسلام ووعدت بقتال الكفار، كما تكلفت هذه الأخيرة بإخضاع العنيدة منها بالقوة. وقد قال لنا المالكي... "إن حسانا اقتسم معهم الغنيمة والأراضي" هذه الجملة تقول لنا، عن احتلال (Conquête) إفريقية، أكثر من كلّ النقاشات حول التواريخ والأسماء، ولم تكن سياسة حسان جديدة: فالتاريخ يخبرنا أن ليس هناك من أخضع إفريقية أبدا، دون اللجوء إلى استعمال الأهلي ضد الأهلي. وقد تمخضت عن ذلك نتائج جديدة كليّة، لأنها بخلاف غزاة الماضي، فإن العرب تمكنوا من الانتصار على الجيش المحلي (autochtone) وعرفوا، في نفس الوقت، كيف يخضعونه لعاداتهم، لدرجة أنه، في وقت قصير نسبيا، أصبح من الصعب التمييز بين الغازي والمغزو، ما عدا في المناطق البعيدة جدا⁽¹⁾.

(1) Les premières invasions arabe, p. 176, sq

ويعتبر Mercier أن "حرب الكاهنة آخر" عمل من مقاومة البربر الفعلية للغزو (Conquête) العربي، فلم يعد لهم، بعد ذلك قادة، وذمّرت الفوضى الكبرى بلادهم، ومحقت الحروب الداخلية قوّاتهم، وغادر السكان الإغريق واللاتين، أرض إفريقية تماما، على ما يبدو؛ لكن بعض مجموعاتهم لجأت إلى الجريد وإلى واحات الزاب حيث سُمح لهم بالبقاء، مقابل دفع الخراج أو ضريبة الخاضعين (infidèles tributaires)⁽¹⁾.

كما يعتبر Gantier (E. F.) سلوك الكاهنة، أساسا، بربريا ولكنه، مع ذلك، بُتريّ على الخصوص، عندما "تبنت ولدا عربيا، لعب دورا راجحا في آخر عمل الكارثة: فهو الذي قاد ابني الملكة العجوز الحقيقيين إلى الأمير العربي. وسنجد خلال تاريخ المغرب بكامله، تجاذب البدو والعرب، إلى بعضهم البعض، لأن تطابق نمط الحياة والعواطف الأساسية أقوى من اختلاف اللغات. ويظهر أن أسطورة الكاهنة تشهد، كما ينبغي، على أن هذا التعاطف الأصم عرّف بتأثيره. ومن المفارقة أن هذا حدث في الوقت الذي أعجب فيه الحضرُ بفوائد الخلافة: حكومة نظامية، إدارة، نظام نسبي، وهكذا حدث، بطبيعة الحال، الطلاق بين الأمراء النوميديين وبين رعاياهم في المدن. ولم يستطع الحضر والبدو، أبدا، التعايش معا في المغرب، دون أن يتقيّا بعضهم البعض الآخر، فكان انتصار الغزو العربي، وهنا يوجد المنعطف الحاسم، وحسان هو السذي اجتازه..."⁽²⁾.

ويتعجب هذا المؤلف "من عدم رؤية قرطاجة ولا المدن المجاورة لها، في هذا القرن الأول من الغزو (invasion) الإسلامي، المضطرب

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, pp. 63-64

(2) Le passé de l'Afrique du nord, pp. 279-280

جداً: فالحامية البيزنطية، بقيادة جرجير هُزمت في سُبُطلة، بجنوب البلاد التونسية. لكن العرب لم يزحفوا على قرطاجة إذ كانت لهم قضايا أهم، فهم غالبون حذرون، يمثلون حكومة نظامية، ذات اتجاهات ضريبية، يَجْبُون غرامة حربية كبيرة. ولم يهتموا، بقرطاجة، في كل الأحداث المتلاحقة، سوى مرة واحدة، سنة 688م (تقريباً)، وحتى ذلك الوقت، نصف قرن بعد سُبُطلة، بقيت قرطاجة بأيدي البيزنطيين: كان هناك جيش وأسطول بيزنطي. فوضع والي القيروان العربي، حسان، حداً نهائياً بسرعة لذلك التهديد، واستولى على قرطاجة مرتين متتاليتين، على ما يبدو، وبفاصل زمني بينهما، يُقدَّر ببضعة أشهر أو أسابيع. وقد يكون الأسطول استعاد المدينة في ذلك الفاصل. ومكّن تدخل الأسطول البيزنطي السكان، على الخصوص، من الهجرة... "ولم يبق فيها، حسب ابن عبد الحكم، إلا قليل من الروم، كلهم من الطبقة الفقيرة. وكان الباقي أبحروا مع الوالي (gouverneur)" -ويقول البيان: إن سكان الناحية، استجابوا لنداء رسول حسان، بعد ذلك، وتسارعوا إليه... فجعلهم يحطّمون قرطاجة ويمحون كل أثر لها" ونفس الشيء يقوله ابن الأثير، تقريباً "بعث حسان فرقة تجول الضواحي فتسارع إليه السكان مذعورين للقائه فجعلهم يحطّمون قرطاجة، قدر الإمكان". إنه زوال قرطاجة، لكن تونس عوضتها، في الحال، واحتقر حسان نفسه، عبر بحيرة تونس، القناة التي أوصلت المدينة بالبحر. وكان يستحيل على الخلافة أن تترك ميناء قرطاجة قائماً، في عزلة كبيرة، بأخر شبه الجزيرة حيث يصعب عليها الدفاع عنه، خاصة وأنها لا تملك السيطرة على البحر. وهذا حدث معتبر، ولكنه عمل حربي صغير نُفِّذَ بسرعة، نهائياً، ويتعلق الأمر بغلق

آخر باب المدخل الذي بقيت بيزنطة قادرة على إرسال النجدة منه، ضدّ العدو الرئيسي الموجود في أماكن أخرى...⁽¹⁾.

ويختصر Marçais G. كلامه في التعبير عمّا جرى، بعد موت الكاهنة وسقوط قرطاجة، بقوله: إن هذين الحداث: "يعبران عن نهاية الفترة البطولية: فلن يعرف المسلمون صعوبات بارزة في البضعة والعشرين سنة التي ستلي، بعد ذلك"⁽²⁾.

أما Terrasse H. فقد اكتفى بملاحظة "أن حسان بن النعمان لم يكمل عمله، وعاد إلى المشرق"⁽³⁾؛ وفي اعتقاد Julien أن "ال خليفة أصبح يشك في حسان، بعد عودته إلى القيروان وشروعه في تنظيم الضرائب، فاستدعي"⁽⁴⁾.

ويذهب Talbi Med القول: إلى أن "عزل حسان كان على يد عبد العزيز بن مروان... الذي عوضه بمولاه (son protégé) موسى بن نصير في صفر 79 / أبريل- مايو 698، فعاد إلى المشرق، ولما وصل مصر، جرد (il fut dépouillé) من كل الغنائم التي أتى بها من إفريقيا. وتوفي وهو يقاتل الروم سنة 699/80-700. وقد وطّدت حملتا حسان، نهائياً، الاحتلال (Conquête) العربي. وله فضل (on lui doit) بناء دار صناعة تونس، بناءً على أمر الخليفة المنشغل بتكوين أسطول قوي، وإعادة بناء جامع القيروان... كما حاول تجهيز (doter) إفريقية بإدارة فعالة، مقلداً في ذلك الجهد الذي كان يبذل في مجالها،

(1) Le passé de l'Afrique du Nord, pp. 253-254

(2) La Berbérie musulmane et l'orient au M. Age, p. 35

(3) Histoire du Maroc, T. 1, p. 84

(4) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 27

آنذاك، بالمشرق، ولكي يضمن تحالف البربر وإخلاصهم. راح يُشركهم في الفيء، وخاصة عند تقسيم الأراضي⁽¹⁾.

وفي مكان آخر يذكر Talbi "أن حملة حسان الثانية، يحتمل أنها وقعت سنة 78هـ/697-698م... وقد ساعدته هذه المرة، ولا شك، وحدات من البربر الغاضبين من سياسة الكاهنة. ومنذ ذلك الحين لن تربط السكان الأصليين (autochtones) المصلحة الواحدة، وبعدئذ بدأت رياح الأنهازامية تهب على الأوراس، وهي بدون شك الرياح التي اخترقت شعر الكاهنة المنشور وأوحت لها تلك التنبؤات، المنذرة بالخطر، وهي ليست سوى إخطارات يائسة، وصلتنا كوشي إلهي (comme autant d'oracle) (من تلك المرأة) التي كانت ضحية البلبلة والقلق. وقد حدث الصدام الأول في منطقة قابس، وكان في غير صالح الكاهنة، ومن ذلك الوقت ينبغي، منطقياً، تحديد الحلقة المحزنة (l'épisode dramatique)، المستبعدة والتي يُرجّح وقوعها، وهي تقمّ لنا "الملكة"، المتأكدة بعدئذ من مقتلها، تتصح ولديها بالانتقال إلى المعسكر الآخر (changer de camp) في الوقت المناسب. وراحت هي نفسها، تلجأ إلى سلاسل الأوراس. وقد حدثت المعركة الأخيرة في مكان يُطلق عليه المالكي... تسمية طرفة، ومنها طبرقة.... التي ليست، ولا شك، سوى خطأ في النسخ. فهناك، يعني عند مخرج جبل نشار، تقريباً، على بعد 50 كلم، شمال طبنة، خاضت الكاهنة آخر معركة لها.... وقد تركت عزيمتها وحيويتها بصمة حتى أن بعض المؤرخين المحدثين يرون فيها نوعاً (une sorte) من Jeanne d'Arc البربرية⁽²⁾.

(1) E.L., N^{elle} éd., Leyde -Paris 1990, T. 3, art. Hassan B. Al-Numan al Ghassani, p. 279

(2) E.L., N^{elle} éd. Leiden- Paris 1978, T.4; art AL- Kahina, p. 441

نقل Fournel H. تعريف هذه الشخصية عن المصادر العربية التي تطرقت إلى بعض جوانبها، فتوصل إلى أن اسمه الكامل هو "أبو عبد الرحمن موسى بن نصير اللّخمي... وُلد عام 19هـ/640م؛ وأن أباه نصير، مولى عبد العزيز بن مروان"، كان على رأس حرس معاوية بن أبي سفيان، وكان يحتل مكانة مرموقة في نفس هذا الخليفة، غير أن موسى ارتدى في صف عبد الله بن الزبير، وشارك إلى جانب الزبيريين في معركة مرج راهط سنة 64هـ، وعندما نفاه مروان طلب وتحصل على حماية عبد العزيز، والي مصر، وحامي والده، وبفضل هذه الحماية ولا شك، كلّفه عبد الملك، بعد موت بشر بجباية خراج البصرة لكنه أتهم بالاختلاس وتلقى الحجاج أمراً بتوقيفه، وعلم به موسى في الوقت المناسب. ففرّ إلى حاميّه بمصر، وكان يشاركه الحمية، للقضية القيسية، وخدمة منه لمُوالٍ وقِيّ، سارع عبد العزيز لمرافقته إلى دمشق حيث فرض عليه الخليفة، رغم إلحاحات أخيه، غرامة قدرها مائة ألف دينار، لم يتردد والي دمشق في أخذ نصفها على عاتقه ثم عادا معا إلى مصر حيث بقي موسى بها إلى سنة 85هـ⁽¹⁾.

وهنا يبيح Fournel لنفسه "افتراض أن الغنائم المسلوبة من حسان ذهبت لدفع الغرامة المفروضة على جابي خراج البصرة الخائن (infidèle)، وزيادة في الكآبة، أرسل هذا المفضل بدون استحقاق (sans

* كان نصير من بين الأربعين شابا الذين استرقهم خالد بن الوليد عند استيلائه على
عين التمر، أثناء فتحه للعراق، في عهد الخليفة أبي بكر سنة 12هـ/633-634م
(Les Berbères, T. 2, p. 229, note 3).

1) Les Berbères, T 2, p. 229- 230.

(honneur) إلى مكانه بإفريقية وهو ما يبرّر بوضوح سخط غازي (Conquérant) قرطاجة⁽¹⁾.

ويستنتج المؤلف الأخير، من وفاة عبد العزيز في 12 جمادى الأولى سنة 86 هـ، وتعويضه بأخيه عبد الله بن مروان ووفاة عبد الملك بعده بخمسة أشهر، في 15 شوال 86 (الجمعة 09 أكتوبر 705م) وتولية ابنه، الوليد، الخلافة: أنه "حتى ولو تمّ تبني آخر تاريخ قدّمه المؤرخون عن وفاة عبد العزيز، يكون من المستحيل، كما تبين، موافقة ابن عذاري على أن حساناً وجدّ الوليد خليفة، عندما انتقل من مصر إلى دمشق.... وأن موسى بن نصير يكون قد تلقى من عبد العزيز ولاية إفريقية في نهاية سنة 85 أو بداية 86 هـ"⁽²⁾.

ولم يحاول Mercier التعرض لماضي موسى بن نصير قبل تعيينه والياً؛ بل يكتفي بالقول: "إن هذا القائد وصل إفريقية بلقب وال مستقل، بمعنى أنه تابع مباشرة إلى الخليفة، وكانت إفريقية، حتى ذلك الوقت، تابعة لولاية مصر"⁽³⁾.

ونفس الشيء فعله H. Terrasse الذي ذكر أن "موسى عُيّن والياً على إفريقية دون أن يكون خاضعاً - مثل سابقه - إلى والي مصر"⁽⁴⁾ كما ذكر (ش. أ.) جوليان "أن موسى بن نصير الذي تلقى، عندئذ ولاية إفريقية، أصبح بعد ذلك، مستقلاً عن مصر" مع ملاحظته أنه "يصعب تحديد تاريخ هذا التعيين، بفارق عشر سنوات، وإلى هذا الحدّ، تختلف التواريخ المقدّمة، وعادة ما يُحدّد تاريخ 705"⁽⁵⁾.

(1) Les Berbères, T. 2, p. 230

(2) Ibid, pp. 227-228

(3) Histoire de l'établissement, p. 64

(4) Histoire du Maroc, T. 1, p. 84

(5) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 27

وبالنسبة لـ Provençal (E. Lévi) فإن "أبا عبد الرحمن موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللّخمي.... وُلد سنة 19هـ/640م، وأن أباه كان من حاشية معاوية. وقد كلف الخليفة موسى، في البداية، بجباية خراج البصرة، لكنّه فرّ، بعدما اتُّهم بالاختلاس ولجأ إلى شقيق الخليفة، والي مصر،.... فعينه على ولاية إفريقية التي كان يتولّاها، حتى ذلك الوقت، حسان.... ويبدو أن ذلك تمّ سنة 79هـ/698م. أو السنة الموالية لها"⁽¹⁾.

وكان أول عمل قام به موسى، عند وصوله إلى القيروان، حسب Fournel H.، هو تكسير أبي صالح الذي كان يشغل منصب الوالي بالنيابة، بعد رحيل حسان إلى المشرق "وبالنسبة للبربر المستعدين للثورة، دائما، فإن خبر استدعاء حسان، الذي كانت مآثره توهي بالرعب، في البلاد المحتلة، كان إشارة لتمرّد، اضطر ابن نصير إلى قمعه بمجرد وصوله. وكان الخطر يبدو وشيكا أكثر في جبل زعوان وضواحيه، على مسافة يوم شمال القيروان، فأسرع الوالي الجديد بإرسال خمسمائة فارس جلبوا، حسب رواية ابن عذاري، عشرة آلاف أسير، لكن هذه المبالغة ما هي إلا تمهيد لمبالغات أكبر منها بكثير: فأبو المحاسن (بن تغري بردي) يجعل سنة 84هـ تاريخا لحملة يكون موسى بن نصير أسر فيها خمسين ألف شخص"⁽²⁾ وهنا يتوقف Fournel معلقا: "إنّ كان تاريخ هذه المعلومة صحيحا، فهو يناقض التاريخ الذي تبنيته..... بالنسبة لوصول موسى إلى إفريقية، بمعنى نهاية 85 أو بداية 86"⁽³⁾ ويضيف: أنّه "مهما كانت الأرقام التي قدّمها الروائيون مثيرة للسخرية،

(1) E. I, N^o 6 éd. Leiden- New York Paris, 1993, T. 7, art. Musa b. Nusayr, p. 643

(2) Les Berbères, T. 2, pp. 230-231

(3) Ibid, p. 231, note 2

فإن هذه النجاحات الأولى أخدمت، ولا شك، غضب عبد الملك، وجعلته يقرّ التعيين الذي قام به أخوه عبد العزيز، ولكي يتدارك تكرار التجاوزات التي أثارته، بحق، أشعر أخاه عبد الله، عند تعيينه مكان عبد العزيز، أن إفريقية ستكون في المستقبل مستقلة عن مصر، وتابعة للخليفة مباشرة، وعند تولية الوليد، منصب الخلافة، تَبَّت كل الولاة في مناصبهم. وفي عهد هذه الولاية بدأ احتلال (Conquête) المغرب⁽¹⁾.

ويذكر Mercier E. أن "موسى وجد المغرب مغطى بالخرائب، وفريسة للحرب الأهلية، فثابر على تهدئة قبائل النواحي الشرقية، بمساعدة وكذيه، ثم خرج إلى المغرب الأقصى...."⁽²⁾.

وقد يكون موسى، على حدّ قول Terrasse H.، "نظم إدارة البلاد وفرض الخراج على البربر النصاري الذين كانوا، على الخصوص، برانس، بعد ما بنى مسجدا جامعا بالقيروان"⁽³⁾ ويشير هذا الكاتب إلا أن "انتصار حسان بن النعمان لم يُعط المسلمين أكثرَ من إفريقية، وبقي عليهم احتلال (Conquérir) وتأمين (Passifier) أكبر جزء من بلاد البربر. وأن عمل هذا التأمين غير معروف جيّدا لدينا"⁽⁴⁾: إذ أن "حملتي ولدي موسى: عبد الله ومروان اللذين يكونان جلبا مائة ألف أسير، تبقيان غير دقيقتين ومشكوك فيهما كثيرا"⁽⁵⁾. ومهما يكن فإن موسى "أصبح، في وسعه بعد وقت قصير، غزو المغرب الأقصى..."⁽⁶⁾.

(1) Les Berbères, T. 2, p.231

(2) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 64

(3) Histoire du Maroc, T. 1, p. 84

(4) Id

(5) Ibid, p. 84, note 1

(6) Ibid, p. 84

وبالنسبة. Julien Ch A. فإن موسى "أخضع، في البداية،

المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي"⁽¹⁾؛ وفي تقدير E. Lévi. Provençal فإنه "سنّ، بمساعدة ولديه: عبد الله ومروان، حملات ناجحة ضد زعوان وسجومة (؟) وهزم هواره وزناتة وكتامة. وعند فرار البربر نحو الغرب، قرّر موسى الذهاب لإخضاعهم؛ ولما أبقاه خلف عبد الملك، الوليد، في منصبه واصل زحفه حتى طنجة...."⁽²⁾.

ويعتقد Fournel H. "أن احتلال المغرب (الأقصى) بدأ في عهد هذه الخلافة (sous ce règne)" خلافة الوليد،⁽³⁾ مما جعله يستبعد (rejeter) المراسلة التي قد تكون تمت بين عبد العزيز وعبد الملك، حسب ابن عذاري، في موضوع العدد الكبير من الأسرى الذين تقبض عليهم موسى. فهذه المراسلة جرت بين الوليد وموسى كما سيأتي⁽⁴⁾.

وقد "وردت أخبار، كثيرة الاختلاف، في شأن ذلك الاحتلال الذي سبق وأن شرع فيه ولدا الكاهنة: فحسب البكري فإن موسى بن نصير "كان قد حلّ بطنجة، عندما انفصل عن جيشه قائدان، هما: عياض بن عقبة وسليمان بن (أبي) المهاجر ليزحفا على سقوما، وهي مدينة تقع في ضواحي الموقع الذي تأسست به، فيما بعد، مدينة فاس⁵. ويلاحظ Fournel هنا "أن ابن عذاري، حسب ابن قتيبة، يكتبها سجومة وابن خلدون يكتبها سقيوما وأن السيد de Slane يقول: إن هذه المدينة يُحتمل أنها لم توجد أبدا"⁽⁶⁾.

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 27

(2) E I n^{elle}, éd. Leiden-New York- Paris 1993, T 7, art. Musā B. Nusayr, p. 643.

(3) Les Berbères, T 1, p. 231

(4) Ibid, p 231, note 6

(5) Ibid, pp. 231-232

(6) Op.cit., p. 232, note 1

وسواء "خضعت هذه المدينة، كما يتبين ذلك من رواية البكري أو، على العكس من ذلك، شَعُرَ عياض وسليمان أن ضعفهما الكبير لا يمكنهما من مهاجمتها، فأقنعا (بالتهديد كما زعم الكاتب) القائد الأعلى بالعودة معهما إلى حصار سقوما. وتم الاستيلاء عليها غنوة، وتعرض السكان لتقتيل شنيع وكبير جدا لدرجة أن نقص سكان أوربة استمر ملحوظاً أربعة قرون بعد ذلك؛ وكان عدد الأسرى مرتفعاً إلى حدٍّ بلغ منه خمس الخليفة مائة ألف رأس؛ وعند تلقي الوليد للكتاب الذي أخبره فيه الوالي بهذه النجاحات الخارقة، أجاب "...! إنها إحدى كذباتك!..."⁽¹⁾ و يعلّق Fournel على أسلوب هذه الرسالة قائلاً "إن صحَّ أنها عبّرت هكذا، فهي تصف اللياقة العربية في العلاقات الرسمية آنذاك وتبين الرأي الذي كان شائعاً عن ابن نصير"⁽²⁾.

ويَعرض مؤرخون آخرون هذه الرواية بطريقة مختلفة تماماً: فقد يكون الوالي أرسل ولديه: عبد الله ومروان، من إفريقية نفسها، إلى نقاط مختلفة، ويكون كل واحد منهما جلب 100.000 أسيراً؛ ويزعم اللّيث بن سعد، الذي نقل عنه ابن خلكان، أن الخمس بلغ 60.000 رأس وهو ما يعني أن عدد الأسرى كان 300.000 رأس، ثم إن موسى من جهته عاد، حسب النويري، بعدد يضاهي عدد أسرى كل واحد من ولديه، ويقدم ابن خلدون نفس الرقم 300.000، ويقول إنه نقله عن الرقيق؛ كما نقل، مثل البكري، مقطع الرسالة الفاحشة (grossière) التي كتبها الوليد إلى والي إفريقية، في موضوع عدد أسرى سقيوما (Sakïouma)، غير أننسي ذكرت، قبل قليل، ابن خلدون من بين المؤرخين الذين سلّموا بأن هؤلاء

(1) Les Berbères, T. 2, p. 232

(2) Id

تمّ أسرهم قبل قيام الحملة على المغرب (الأقصى)، وهذا ما يؤكد، على ما يبدو، ابن عذاري الذي كتب يقول: "إن أغلب مدن إفريقية كانت خالية، على إثر المقاومة التي كان يبديها البربر"⁽¹⁾.

وفي خضمّ "هذه المبالغات والشكوك، لم يحدّد أي مصدر تاريخ دخول موسى إلى المغرب (الأقصى) للزحف على طنجة، لكن البُعد عن الحقيقة لا يكون كبيراً، إذا تمّ التسليم بسنة 87هـ، إن السيطرة (domination) العربية المعلنة، أكثر مما هي مُوطّدة، عند مرور جيش المغامر عقبة، كإعصار، قبل خمس وعشرين عاماً، على هذه المناطق النائية، قد تكون شهدت محوراً بصنمتها الخفيفة بواسطة الفترتين اللتين يمكن تسميتهما مملكتي: كسيلة والكاهنة، وبالضرورة التي وُجد فيها حسان وموسى نفسه، منذ عامين، بتركيز كلّ الجهود العربية على إفريقية. غير أن صدى مآثر ابن نصير، انتشرت بعيداً، فكان اسمه يوحى بالرعب، والإخباريون يصوّرون لنا البربر مثبطي الهمة، محاربين دائماً ببسالة ولكن مهزومون باستمرار، وموسى الواصل بسرعة إلى السوس الأدنى و"بعد قليل، كما يقول ابن خلدون، هاجم طنجة واستولى على درعة ثم حاصر تافيلالت وبعث ابنه إلى السوس. وخضع البربر في كل مكان، وفي سنة 88 تسلّم من مصمودة رهائن أسكنهم مدينة طنجة وترك فيها، حسب ابن خلكان، حامية من تسعة عشر ألف بربري مُدجّجين بالسلاح ومموتين تموينا جيّداً؛ وكان هؤلاء اعتنقوا الإسلام بصدق، ثم أسند ولاية طنجة وأحوازها إلى مولاة طارق بن زياد البربري، تاركاً معه عدداً قليلاً من العرب لتعليم البربر القرآن وتعليمهم الإسلام، وعندما اتخذ هذه

(1) les Berbères, pp. 232-233

الإجراءات ورأى أنه لم يُعد في كامل البلاد، من بربر أو روم، من ينبغي قتاله، عاد إلى إفريقية⁽¹⁾.

ويتوقف Fournel عند هذه الجملة الأخيرة التي اقتبسها من ابن خلكان ملاحظاً: "أن جزءاً كبيراً منها غير صحيح، وعلى العكس من رواية ابن خلكان، فقد بقي هناك روم تتبعي محاربتهم لكنهم كانوا محصّنين في مدن عديدة، أهمها سبتة التي كان يحكمها ذلك القمص (Comte) يوليان نفسه الذي رأيناه، سنة 63هـ يحفظها، بمهارة من حرب عقبة. وأن ابن خلدون أخطأ أكثر عندما قال: "ولما علم يوليان بتقدم موسى بن نصير نحوه نال رفقته بإغداق الهدايا ودفع الجزية" وفي المقابل نُكر في أخبار مجموعة (القرن 11م.) أن موسى حارب يولييان ولكن عندما تحقق أن رعايا هذا الحاكم الصغير كانوا أقوى وأشجع من الشعوب التي حاربها حتى ذلك الوقت، رجع إلى طنجة وأمر بتخريب الأرياف المجاورة لسبتة، دون أن تحقق الغارات، التي أرسلها، النتائج المرجوة، لأن المراكب القادمة من إسبانيا، كانت تحمل المؤن والإمدادات، بدون انقطاع، إلى سكان سبتة وفي تلك الأثناء توفي Witiza ملك إسبانيا...⁽²⁾.

ويذكر Mercier E. أن ابن نصير عندما انتقل إلى المغرب الأقصى "أخضع قبيلة غُمارة بالريف، ومصمودة في الأطلس، متقدماً، بعد ذلك إلى السوس، حيث لم يدخل أي عربي بُعد عقبة (بن نافع)، وبسط نفوذه على سكان تلك الناحية، وعلى سكان درعة وسجلُماسة، وبعد تحقيق تلك النجاحات عاد نحو الشمال، وانتزع سبتة من السيطرة

(1) Les Berbères, T.2, p. 255 Sqq

(2) Ibid, T. 2, pp. 236-237

القوطية. وترك عناصره، أغلبها من البربر، حديثي العهد بالإسلام، في مختلف النواحي، مهمتهم نشرُ وشرحُ العقيدة الإسلامية لإخوانهم. وبقي أحدهم، اسمه طارق بن زياد بسببته كعامل (Gouverneur)، مع سبع وعشرين عربيا. وعندئذ عاد موسى إلى عاصمته، مرورا بالزاب والأوراس، فدخل القيروان سنة 707م، بعد إنهاء احتلال (Conquête) المغرب⁽¹⁾.

وحسب Terrasse H. فإن موسى عندما غزا المغرب الأقصى "اقتفى، تقريبا وبدون شك، طريق عقبة، واستولى مثله على طنجة. ثم أنه، دون أن يحاصر سبتة، حيث كان القمص (Comte) يوليان يقاوم الجيش الإسلامي، هذه المرة، نزل إلى السهول الأطلسية واستولى على مدينة سقومة Segouma، قرب فاس، وكانت لأوربة. وقد يكون ذهب، بعد ذلك، لتأمين (passifier) درعة وتاقللت، في حين يكون أحد ولديه أخضع السوس. وقد تكون مصمودة أعطته رهائن. ويبدو أن سهول ووحدات المغرب الأقصى- وربما بعض مناطقه الجبلية- انضمت إلى الإسلام وإلى سلطة الخلفاء، بدون صعوبات. و لم تحدث أية مقاومة جماعية: فالمغرب الأقصى خضع لموسى أسهل مما خضع لعقبة، فموسى كان، ولاشك، يمارس سياسة ضمّ وكان الرؤساء الذين يختارهم للبلاد، حسب المؤرخ المشرقي النويري، من البربر ولاشك: إذ نعلم أنه عين على طنجة، إحدى نقاط المغرب الأقصى الحيوية، أحد مواليه البربر، طارق، مع اثني عشر ألف جندي بربري، وسبع وعشرين عربيا مكلفين بتعليم هؤلاء المسلمين الجند القرآن والفقه. ويبدو أن أول تنظيم

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, pp. 64-65

للإسلام في المغرب الأقصى، قام به البربر أنفسهم. وعند عودة موسى من المغرب الأقصى أخضع، في طريقه، بعض القلاع التي استمرت تقاوم، وبعدئذ صارت بلاد البربر كلها جزءا من دار الإسلام⁽¹⁾.

وفي اعتقاد Julien (Ch. A.) أن ابن نصير، بعدما أخضع "المغرب الأقصى، حتى المحيط الأطلسي، تقدّم إلى سجلماسة بتافلاست، وأخفق أمام سبتة (Septem) لكنه استولى نهائيا على طنجة. وكان يسكن المنطقة (Le pays)، آنذاك، قبائل بربرية من كتلة صنهاجة: غمارة على الساحل المتوسطي، برغواطة على الساحل الأطلنطي، بين مضيق جبل طارق ومصب وادي أم الربيع؛ ومكناسة في الوسط، ومصمودة على السفح الغربي من الأطلس الكبير، وعلى ضفة أم الربيع بالسوس، وهسكورة، ما بين وادي السوس ودرعة؛ ولمطة ولمتوتة، على الضفة الغربية لنهر درعة؛ وكانت هذه القبائل أحيانا مسيحية أو يهودية، وعادة ما كانت مولعة بالعبادات الطبيعية ففرض (موسى) عليها، كما غرض على السكان المرتدّين، الإسلام عن طريق سياسة تحويل (Conversion) شديدة"⁽²⁾.

وبالنسبة لـ Lévi- Provençal E. فإن هذا القائد واصل مسيرته "إلى طنجة والسوس، ثم دخل إفريقية تاركا بالمغرب مولاه طارقا كمساعد. وقد غزا هذا الأخير إسبانيا سنة 92هـ / 710-711م"⁽³⁾.

(1) Histoire du Maroc, T. 1, p. 84

(2) Histoire de l'Afrique du Nord, T. 2, p. 27

(3) E.I éd, Leiden- New-York Paris 1993, T. 7, art. Musâ b Nusayr, p. 643

- مقاومة البربر للفتح الإسلامي:

يحمل Mercier E. البيزنطيين مسؤولية عدم انتهاز فرصة الهدنة التي عرفت إفريقيا، مدة حوالي عشرين سنة، بعد موقعة سبیطلة، لتنظيم المقاومة، بصفة فعلية، بحكم تجربتهم، وكان عليهم، في نظره، استدعاء الأهالي (indigène) إليهم وإقناعهم أن مصلحتهم تكمن في رد الغزاة، وتدريبهم على النظام، لكنهم راحوا، على العكس من ذلك، يكملون فصلهم عنهم بطغيانهم وابتزازهم⁽¹⁾.

كما يسجل نفس المؤلف أن إنهاء عملية احتلال (Conquête) المغرب كان مع عودة موسى بن نصير، من حملته على المغرب الأقصى، إلى القيروان سنة 707م، ملاحظاً أنه نجم عن ذلك "استعباد العرب للشعب البربري، في مدة نصف قرن، ولكن إفريقيا الشمالية، حتى وإن غيّرت الأسياد والديانة، لم يدخلها أي عنصر جديد من السكان، بل على العكس من ذلك، فإن ما كان تبقى من الجنسين اللاتيني والإغريقي قد اختفى وبقي المغرب بربرياً محضاً، وستبدأ أيام عظمة هذا الشعب تحت دفع أفكار جديدة. فمن الخطأ الجسيم، إذا، إطلاق تسمية احتلال (Conquête) العرب لإفريقية على غزوهم الأول لها، في القرن السابع (الميلادي): لقد كان مجرد توسع (Conquête) نائي متبوع باحتلال (Occupation) نقطة رئيسية، هي القيروان، وبعض المواقع الإستراتيجية البحتة، والهجرة العربية، تلك التي أدخلت ذلك الجنس إلى إفريقية الشمالية، لم تحدث إلا بعد أربعة قرون من ذلك الوقت"⁽²⁾.

(1) Histoire de l'établissement des Arabes, p. 56

(2) Ibid, p. 65

ويلاحظ Caudel "أن المؤلفين (الغربيين) المحدثين أرادوا إيجاد تاريخا كبيرا، في هذه الفترة من الاحتلال (Conquête) العربي. وأن حدثًا نتاجه بهذه الضخامة، بقيت أقدار القارة ترزخ تحت كامل ثقله، منذ ما يقرب من اثني عشر قرنا، كان يجب، حسب رأيهم، أن يكون مسبوقا ومصحوبا ومتبوعا بظروف عجيبة ومميّزة، تحضّره وتفسّره وتقرّره، لأن هذه المسألة، عندما تعلو في صميم تفكيرنا، تستيقظ معها الحيرة الأليمة للانحطاط اللاتينو-إغريقي، وكذلك فضول معرفة كيفية حدوثه بهذه السرعة وبهذه الشمولية. ونحن نتذكر غزوات (invasions) أخرى تكون قد ضاعفت هجماتها، ليس من أجل التخطيم ولكن من أجل الدخول إلى عالم مماثل تقريبا، ونفترض، في إفريقية، غارات (assaults) من هذا النوع لدى المكتسح بنّة مبيّنة، ومتابعة ضارية، ولدى المكتسح دفاع طويل وجيّد، وسقوط بطيئ وشهم، وخضوع أنوف، ثم ثار متأخر، ولكن مؤكّد بالروح الوطنية والقوانين والعادات والتقاليد المحلية، ضد النفوذ الأجنبي"⁽¹⁾.

وما يدهش هؤلاء المؤلفين قبل كل شيء، هو نجاح الجيوش العربية التي لا تكاد تظهر حتى تكون قد انتصرت، تدخل البلاد، دون عناء فتتّهبه براحة كاملة، ولا تجد قوّة العدو إلا بعيدا في الدّاخل: بسبب طلة وجلولاء وممس وقرطاجة أو ببغاية، بل إنها لا تجد مقاومة تذكر أحيانا: فالساكن يبقى في موقف دفاعي "خلف الأسوار التي تحميه، دائما تقريبا، إلا إذا هيا اللقّم ثقباً لم يكن المحتل (envahisseur) يعرف فتحه، وليس هناك ما يعادل جرأة الهجوم سوى اضطراب الدفاع.

(1) Les premières invasions arabes, p. 181

وسيمضي البربر خمسا وعشرين سنة، قبل أن ينتبهوا أنه بإمكانهم مجابهة العدو. ثم إن رئيسهم، كسيلة، لم يحاول إلا نصب كمين واحد لعقبة، وعند وصول زهير لجأ إلى انسحاب حذر (prudente)، لم ينقذه من الكارثة. والكاينة وحدها أقدمت على خوض معارك مخططة (rangées)، فانتصرت بوادي نيني عندما كانت في موقف دفاع؛ وهُزمت بقابس، وهي تُعدّ ما يبدو أنه هجوم. وقد كان لتنظيم الأهالي العسكري، كل مميزات الأجهزة البدائية التي يجعلها تجميعها الخشن (grossier) وضعف تلاحمها وتحركها، أكثر قدرة على تحمّل الصدمات، وهي سهلة التصليح. والجيش البربري المبعثر، اليوم، كسربة طيور في مختلف أنحاء البلاد، سيُعاد تنظيمه غدا. وعلى العكس من ذلك، فإن الجيش البيزنطي جهاز دقيق، منظم بمهارة، يسير بإحكام، إن كان في وضعية جيّدة، لكن الصدمة الأولى التي يتلقاها تعطله مدة طويلة. وبإمكاننا الاعتقاد أن تتأسق ذلك الجهاز الحربي، لم يكن على أحسن ما يرام سنة 27هـ، لأن صدمة العرب في سببيلة جعلته في حالة يرثى لها، لدرجة أن مسألة إصلاحه لم تعد مطروحة، ولم نعد نرى الروم، بعد موت جرجير، إلا خلف أسوار المدن، مقتصرين على القيام بدور فائر في مساعدة البربر. والعربي دفع الجميع بقوة، أهالي ورم، بسهولة عجيبة وسبب نجاحه يكمن في الاحتراب (Tactique) الذي يطبقه: إذ له الصدمة العنيفة التي يمكنها تفكيك صفوف الإغريق القوية، وله سرعة التقدّم التي تبلبل وتشلّ البربري الذي يقلّ عنه خفة، وقد نقله نجاحه، بعيدا، إلى ما بعد خط الليمس، حتى المحيط. فشعر بفخر كبير وظن أنه سيطر على البلاد. وهو، في الحقيقة، لا يمسك شيئا وليس انتصاره إلا خدعة (leurre). وإذا كانت نجاحات العربي، في الواقع،

سريعة، فإن عيوبه رهيبة، وهذا هو الأمر الثاني الذي يثير انتباهنا. لقد كانت للغارات (incursions) الأولى نهاية حسنة، وكان لعبد الله بن سعد ومعاوية بن حُديج، من الذكاء، ما جعلهما ينسحبان قبل أن يكون للدفاع وقت تنظيم نفسه، لم يدفعا مشروعهما إلى أبعد حد، فعادا سالمين إلى المشرق ويبدو لنا انتصارهما رديئا: عَوْضَ التوسع (conquérir) راحا ينهبان. ومرّا بسرعة، بعيدا عن التفكير في الاستقرار. وظلّ كل شيء على حاله بعدهما. وبايقاظهما سكان المقاطعات، عرضا الغزوات القادمة للفشل، عوضَ ضمان نجاحها. وعقبة هو أول من شكل، على ما يبدو، مشروع إقامة دائمة في إفريقية. أسس القيروان الذي سيصير قاعدة عمليات المسلمين، وملجأ لهم عند الضرورة. وتحت رايته تقدّم الجيش العربي، بعيدا عن القيروان. وعندما عاد (هذا الجيش) إليها تحت انفعال كارثة تهودة، بدا له ضعف كبير في موقعها وترك البلاد نهائيا. ولم يُوقف زهير (بن قيس) زحفه إلا في برقة. وكان ضياع إفريقية مرة أخرى. ومهما وصل بُعد موج الغزو (invasion) فهو يعود دائما إلى الخلف، إلى نقطة انطلاقه. وقام زهير بمحاولة أخرى، فاكتمسح المقاطعة من جديد، وصمد العربي، هذه المرة أكثر على الأرض، فبقي بالقيروان بعد ذهاب الأمير. ليس لدينا معلومات توضح لنا هذا الجزء من التاريخ، ومن المؤكد أن حامية المدينة العربية لم تظهر بوضوح في إفريقية. وظهر حسان، فقاتته انتصاراته على الإغريق إلى كارثة وادي نيني..... وضيّع العربي إفريقية من جديد. لكن هذا الفشل الأخير دموي. وأصبح الفشل يزداد خطورة، مع كل حملة جديدة... ولم يتعلّم الأمراء أي شيء من الحملات السابقة. ومع ذلك فإن حسانا عرف كيف يستفيد من هزيمته، وعموما، فهو المحتل الحقيقي لإفريقية، ما دام هو الوحيد الذي

استطاع المكوث بعد غزوها (envahir). وقد كان انتصاره، في بداية حملته الثانية، كبيراً جداً، مثلما كان انتصار أسلافه. لكنه لم يُتبع بانسحاب ولا يعيوب (revers)، وهذا ما يعطيه قيمة كاملة. وفي المقابل فإن صدمة البربري لم تطرد العربي هذه المرة، من توسعاته (Conquêtes)، لأن حسانا عرف كيف يُوصل الاضطرابات التي كانت تسود المقاطعة إلى أوجها، وبحث عن وسيلة حكم في البلبلة الاستثنائية التي هيجت إفريقية¹.

ويعتقد Caudel دائماً أن هذه البلبلة تشكل "الخاصية الثالثة، الأكثر تأثيراً في تاريخ الغزوات (invasions) هذا"²: ففي القرن السابع من عصرنا صار "جرجير (Grégoire) مسيطراً على سبيطة، ولم يعد الإمبراطور (البيزنطي) يحكم؛ ولم يكن للمغتصب (جرجير) أية سلطة. والنظام النسبي موجود ولكن متزعزع أكثر فأكثر، ولم تستمر أنقاض المجتمع اللاتينو-إغريقي بإفريقية إلا بمعجزة، في توازن متقلب، في إمكان أية هبة ربح القضاء عليها. وقد أسقط العرب، أثناء الاحتلال (en envahissant)، كل شيء على الأرض.... ولم يلتقوا بمجتمع منظم تنظيماً جيداً، ومُهَيَّأ تقريباً للدفاع، وبعد سبيطة وقعوا في شغب (Cohue)؛ لا إسم له. وكان بإمكان محتلين (envahisseurs) أكثر مهارة وتنظيماً أن يستولوا على البلاد، أول مرة.... إذ تركوا للمكتسحين (envahis) فرصاً للنار. وتحصّن الإفريقي في مننه. وكل واحدة من هذه الأخيرة تعمل لحسابها: بعضها قاومت بحَيَوِيَّةٍ وبعضها الآخر افتدت نفسها. وفي النهاية سقط جميعها بسرعة، تقريباً، وزال المظهر الأخير،

(1) Les premières invasions arabes, p. 186 sq

(2) Ibid, p. 189

لنظام ما، مع زوال الرومي من إفريقية. والبربري جنب نفسه الخطر في بداية الأمر، بل قدّم أحيانا مساعدته في مشاريع بدت له مفيدة، ولما أقصاه عقبه، أغاضه وجعله يفكر في مشروع ائتلاف مضاد للعرب، وتمكن كسيلة ثم الكاهنة من جمع القبائل الأهلية ضد الأجنبي، ولم يكن سوى تنظيم ظاهري: وكان كافيا لإخراج العرب من إفريقية. لكن البربري بذل كل جهده، فهو لا يعرف أكثر من ائتلاف بدائي وغير ثابت يجعله بتقلبه، العوبة لأول فشل. وعاد حستان وانتصر، مرة أخرى، و لعلّمه بمكان الخطر الآن، عمل على تجنبه في المستقبل، وراح يؤلب البربر ضد بعضهم البعض فأوصل الفوضى إلى ذروتها وبفضلها احتل الساحة. إن عجز البيزنطي وخطأ البربري، وخفة جسد وروح العربي، كل هذه الأمور، تفسّر لنا نجاح الغزوات (incursions) الإسلامية في مقاطعات إفريقية، في القرن السابع (الميلادي): فالبيزنطي الذي شلّ بسرعة، قرّر الرحيل، وحمل معه القليل من التنظيم الذي بقي في البلاد، وهذه الأخيرة سقطت في أكثر الفوضى مصيبة: البربر والعرب يشكلون جهّالتين وعجّزين وهمّجيتين تتعانق (كلّها) في الظل... ولذهنية (esprit) العربي أضواء حتى وإن اختلفت عن أضوائنا: فهي لا تقل عنها لمعانا لكن تلك الأضواء غير مستقرة، ولا هي متساوية، فإن عرفت أمة خاضعة كيف تضبطها، أخذت منها ضوءا جميلا. وقد شهد ذلك في بلاد الشام وبلاد فارس ومصر. ولم يكن الأمر ممثالا في بلاد في البربر حيث وجد المحتل (envahisseur) العربي سكانا أدواقهم تشبه كثيرا أدواقه، فلم يتمكن اختلاط الجنسين من إنتاج شيء أحسن ممّا يعطيه كل طرف، على حده، وكان للعربي تفوقات فكرية وأخلاقية وسياسية كافية لتربية البربري، وهي ضعيفة إلى حدّ عدم تمكّنه منها، وقد كان للبربري

العدد الذي تغلب في نهاية الأمر. لكن تغلب وخذ، وتورط السكان الأهالي، الذين جعلهم الإحساس بالمصلحة، يتجهون نحو المحتل، في أعمال نهب، وذهبوا معه إلى إسبانيا للمشاركة، إلى جانبه، في الحرب، ودخلوا الإسلام، ودخلهم الإسلام بسرعة، ولم يحتاجوا إلى تغيير حياتهم لتطبيقه⁽¹⁾.

ويستخلص Caudel في نهاية الأمر أن الغزوات (invasions) العربية قام بها رجال رعاة أتوا من جهة أخرى "صنعت منهم الظروف نهابين، استولوا على البلاد ثم استقروا بها. قاومهم أصحاب الأرض في البداية، وهم أيضا رعاة ونهابون، يعيشون، مثل محتليهم في قبائل، وسرعان ما وخذ الميل إلى النهب الغزاة والمغزوين... واختفى السكان الحضار أو غمروا في الزوبعة. وحمل الغزاة (envahisseurs) معهم عقيدة وفرضوا قانونا. العقيدة جذابة والقانون مقبول. واعتناق العقيدة يؤدي إلى المساواة والتمتع بفائدة القانون. واستمر انتشار الإسلام تدريجيا، هنا وهناك، بعض المقاومات، شبه تنظيم في المجتمع الجديد، لكن الإسلام لم ينظم القبائل ولم يغير من تطلعاتها...".

ويرى Caudel، في مكان آخر، أنه "لا ينبغي الاعتقاد أن البربري استسلم لمحتله الجديد، نهائيا، لدرجة أفقده خاصيته، ولكن يمكن الاعتقاد أن هاتين الذهنييتين (esprits) المتساويتين في البدائية وأن هاتين الطبيعتين الخاضعتين، منذ القديم، لنفس الظروف المعيشية، وأن هذين الشخصين (individus) الخاضعين لمؤسسات كثيرة التشابه، والقسم واحدة تقريبا، سيجدون نقاط اتصال، دون البحث عنها. وسوف لن تكون

(1) Les premières invasions arabes, p.189 sq.

(2) Ibid, p.192

المساواة التامة في الهمجية، لأن العربي يمكنه أن يقدم لمولاه (vassel) وضعية اجتماعية ملموسة، وعقيدة دينية راقية وتصوراً كافياً للدولة وثقافة عامة، بدائية جداً لكنها واعدة، فخصائص ومؤسسات وتطلعات الجنسين متشابهة جداً، لدرجة تجعل بعضهما يفهم البعض الآخر ويندمج فيه، غير أنها تطرح اختلافات كبيرة إلى الحد الذي لا يصير فيه تقاربها تطابقاً غير مفيد ولكنه يغطي بعض النقائص لدى كل واحد من الشعبين المختلطين. وخاصة في الجانب البربري. إن العربي يندمج بسهولة مع الأجنبي الذي يعتنق الإسلام، والعقيدة الإسلامية بسيطة للفهم والتطبيق، وحكومة الخليفة من البساطة التي يمكن أن تعجب سكان إفريقية الريفين، إلا أن هؤلاء مرتابون ويفضلون الاستقلال على كل شيء لن يقبلوا التنازل بالإقناع، وينبغي إخضاعهم بالسلاح لكي يقدموا على الإسلام... إن تاريخ الغزوات (invasions)، وهو يبين لنا كيف تقارب البربر من المنتصرين، سيُمكننا من فهم الكيفية التي تم فيها، في القرن السابع، المزج العرقي والاجتماعي الذي ما زال يشكل اليوم كُنة (fond) سكان إفريقيا الشمالية⁽¹⁾.

ويستنتج Caudel من خلال النبذة التاريخية التي حاول إعطاءها عن خصائص الفاعلين (acteurs) أن ما جعل العربي يسيطر في مدة قصيرة جداً، على مقاطعة حاول آخرون، خلال قرون طويلة، أن يهيمنوا عليها، دون أن يستطيعوا ذلك، بصفة نهائية إلى "الكره العميق، بين الأهلي البربري و الحاكم (gouvernant) البيزنطي، الذي هيجته حياة الجوار، عوض تخفيفه"⁽²⁾، وإلى وجود "بعض التجاذب التي سيُطورها

(1) Les premières invasions arabes, pp.36-37.

(2) Ibid, p. 40.

الاتصال، بين هذا البربري نفسه وبين المحتل (envahisseurs) الذي يتقدم⁽¹⁾.

وفي رأي (E.F) Gautier أن هناك وقائع بلغت أهميتها درجة بدا فيها أنه "من العبث (absurde) محاولة فهم الغزو (conquête) العربي، قبل إبرازها، وهي: أن المغرب سبق وأن تلقى بصمة قرطاجة الشرقية، بقيت محتضنة، تحت الرماد، طيلة قيام الإمبراطورية الرومانية وأن ظهور الجمل المتسبب في تكوين القبائل الكبرى، خلق مغربا جديدا، مغرب البئر أو زناتة، المجاور لمغرب البرانس الملتئين، تقريبا (plus ou moins latinisé). وحتى عندما يكون الوعي بها قائما، ليس من السهل بمكان رواية أحداث هذا الغزو (Conquête)⁽²⁾.

وبالنسبة إلى هذا المؤلف، فإن "تاريخ المغرب أصبح، بعد زوال السيطرة البيزنطية فوضى (Tohu- bohu) مقنطة، من أحداث لا رأس ولا ذنب لها"⁽³⁾، ومع ذلك فهو يعتقد أنه "من الممكن العثور على خطوط عامة وإبراز اتجاهها ومعناها"⁽⁴⁾. ويلاحظ "أن نتائج الغزو (Conquête) العربي اليوم (في وقته)، بعد إثني عشر قرنا، تُذهلنا: عَرَب المغرب، بقدر واسع، وانتشر الإسلام بعمق في كل أنحاء؛ و من المسلم به (كما يضيف) أنها نتيجة رائعة. و قليلة هي المستعمرات (Colonisations) التي تحصلت على نجاح كبير كهذا، في تاريخ المعمورة"⁽⁵⁾ ويعود Gautier بعد ذلك، إلى عهد الغزو (conquête)، في القرن السابع الميلادي "حيث حدثت آنذاك، (في اعتقاده) ثورة هائلة:

(1) Caudel, Op. cit., p. 40

(2) Le passé de l'Afrique du Nord, p 247.

(3) Id

(4) Id

(5) Id

اجتازت فيها البلاد الحاجز الذي يفصل الغرب عن الشرق (مع أنه) مسيك (étanche) في كل البلدان الأخرى. وعند مقارنة ثورتين: الفرنسية والروسية يمثل هذه القفزة في المجهول فإنهما تبدوان مسكينتين، وفي حالة وجود فضول الإدراك وتمييز التفاصيل يتبين مباشرة أن الغزو (conquête) العربي كان بطيئا جدا ومُتَّسازًا عليه: كانت هناك مقاومة عنيفة" (1).

ومن ثمّ راح Gautier يحدّد زمنيا، المحطات الرئيسية التي قطعتها عملية (الغزو)، مسجلا " أن الغارات (Courses) العربية الأولى، على المغرب، تعود إلى 641 أو 642م، وأن هزيمة البطريق جرجير وبيزنطية بسبّطلة كانت سنة 647. وتأسيس القيروان كان 670، وجولة عقبة الكبرى التي قاد فيها العرب إلى المحيط الأطلسي (بدون أية نتائج دائمة) حدثت سنة 683 م؛ والحملة الكبرى الثانية، حملة موسى بن نصير، التي اقتصت فيها أثر عقبة، كانت سنة 708م وأخيرا غزو اسبانيا سنة 711م" (2).

وفي الأخير طرح gautier رقم 641، (الذي يمثل تاريخ وقوع أول الإحداث المشار إليها)، من 711، الذي يمثل آخرها فتحصل على رقم 71، واعتبره "المدة التي استغرقها الغزو (invasion)، لأنه (في نظره) لا ينبغي التسرع في تسميته احتلالا (conquête)" (3). ويبرّر هذا المؤلف رأيه بقوله: "إن العرب تكبدوا هزائم طاحنة، مرّات عديدة، وطردوا نهائيا من البلاد" (4) مضيفا "أن عقبة وأصحابه أبعدوا عن آخرهم،

(1) Gautier: op.cit., pp.247-248.

(2) Ibid, p.248

(3) Id

(4) Id

قرب بسكرة سنة 683؛ وأن زهيراً، بعدما حقق انتصاراً عابراً، سنة 690، رأى أن الوضعية مُزعزعة، فغادر إفريقية، وانسحب نحو مصر، وأثناء ذلك الانسحاب هُزم وقُتل في برقة؛ وأن حساناً هُزم في مسكيانة بسفح الأوراس سنة 698م، وهو يحاول الانتقام لسابقته بجيش قوي جداً، وكانت الهزيمة ساحقة لدرجة أن العرب انسحبوا، على ما يبدو، حتى برقة لإعادة تنظيم صفوفهم، ثم الصمود؛ ضف إلى أن ذلك تمّ في مواقع محصنة، قصور حسان، بل نقول خنادق حسان، وأن القيروان... التي كانت قاعدة الجيش العربي الأمامية في تلك الحروب الطويلة، كثيراً ما ضاعت واحتلتها المغاربة، عدة مرّات وحولوها إلى عاصمة بربرية لسنوات متتالية⁽¹⁾ ويحاول Gautier تأييد كلامه فيذكر "أن المؤرخين العرب سجلوا دراسة تلك الحرب"⁽²⁾ مستشهداً بما قاله ابن خلدون، عن ابن يزيد، من أن "البربر ارتدوا حوالي اثنتي عشر مرةً بإفريقية والمغرب، حاربوا فيها المسلمين في كلّ مرة" دون إشارة إلى ابن خلدون، مع تعليقه، على رقم اثنتي عشر "بأنه غير دقيق وهوميري (أي خيالي). كما استشهد gautier كذلك بما ذكره "ابن عبد الحكم، أقدم المؤرخين العرب الذين تطرقوا إلى غزو (conquête) المغرب، عن الخليفة عمر الذي يكون أجاب عن طلب السماح بغزو إفريقية قائلاً: "إنها ليست إفريقية وإنما هي المفرقة الغادرة (le lointain perfide)؛ لا يغزوها أحد ما مقلت عيناى الماء" ويعلق عن هذا الكلام أيضاً بقوله: "قد يكون صدور هذه الكلمة التاريخية عن

(1) Gautier: Op. cit., p. 248.

(2) Ibid, p.249

عمر نبوءة، وهناك احتمال أنها مزورة لكنها توجز، بكل تأكيد، في شكل رواية شعبية، عناء الرأي العام المتأثر بهذا العدد من الإخفاقات⁽¹⁾.

ومن المبررات التي وجدها هذا الكتاب الفرنسي لكلامه "أن المغرب بعيداً جداً عن مصر، القاعدة الجدية الوحيدة الممكنة للغزو (invasion)، ولا يربطه بها سوى طريق وحيد، طوله 2000 كلم وهو بالإضافة إلى ذلك صحراوي، نقاط مائة نادرة وريدئة، فإذا تم تذكر هذا الظرف، بدا الجهد العربي مدهشاً، لكن المقاومة المغربية أيضاً: فهي تعبر عن جذور عميقة، ألفتها سبعة قرون من السيطرة الرومانية والحضارة الغربية، وعلى كل فإن تلك الحضارة الغربية لم تنهار من أول إنذار، وأبعد من ذلك، يبدو واضحاً، أن الإنسان المغربي أحسن بنفور شديد، تجاه القادم الجديد. ولم يتم الحصول على نتيجة نهائية إلا مع موسى بن نصير والتوسع (conquête) في اسبانيا..."⁽²⁾.

ويعتبر Gautier "كسيلة والكاينة بطلي الاستقلال البربري أيام الغزو (l'invasion) العربي. لقد كانا، بطلي المغرب وسيديهن لسنسنوات عديدة"⁽³⁾ لكن مع ذلك يعترف أنه "لا يكاد يكون لهما تاريخ: فذكراهما بقيت غامضة في فنون الأوراس الشعبية (folklore)، جمعتها صاحب كتاب العدوان الذي نشره Féraud... يوجد اسماهما، حتى بعيداً جداً عن الأوراس، في بلاد السودان، لدى الطوارق إيفوراس (Iforass)،.... إن خرائب السوق، بأذرار إيفوراس، تُلقت النظر، خصوصاً بخرائب قليلة لقصر يسمى كُسَيْلَة (Koceilata)، قصر كسيلة (le palais de Koceila)، وعند استفسار إيفاراس عن هذه المسألة

(1) le passé de l'afrique du Nord, p. 249.

(2) Id

(3) Ibid, p.266

يتخذون من كسيلة امرأة، بمعنى أن ذكره اختلطت بذكرى الكاهنة، بعد أكثر من ألفية لدى برايرة (Barbares) بدون آداب، مع أن هذا البقاء الغامض للأسماء ليس إلا صدى لماضي كبير. لقد كان كسيلة والكاهنة كافرين. فحضي أعداؤهم بكامل تعاطف المؤرخين المسلمين. وهؤلاء المؤرخون اختصروا كلامهم، لكنهم جميعا متفقون... وعلى نهج المؤرخين العرب الذين ينقلون كلهم عن بعضهم، فهم يُزودوننا بنفس العبارات برواية جافة وغامضة لنفس الأحداث وبدون تعليق⁽¹⁾.

ويذكر Gautier بما وجده عقبة، حسب رأيه، من روم وسكان لاجئين في مدينتي باغاية ولمبيسة (Lambèse)؛ و المعركة التي خاضها بتاهرت، تقريبا، ضد الروم الذين تلقوا مساعدة البربر، وما أرشده إليه حليفه الجديد، القمص يُلِيان في طنجة، من مكان العثور على رؤساء الروم والبربر؛ واشترك البيزنطيون مع ملوك نومديين، في قتله بتهودة، والروم والبربر الذين قاتلوا زهير بن قيس في معركة ممّس؛ ومقتل هذا الأخير في منطقة طرابلس، على يد الروم الذين كانوا يعملون باتفاق مع البربر؛ وما كان للكاهنة من ولد يوناني⁽²⁾. كلّ هذه الأمور تعني، بالنسبة لهذا الكاتب: "أن البيزنطيين احتفظوا، حتى ذلك الوقت، بحاميات مبعثرة، في قلاع منيعة على الجيش العربي، وأن المواصلات بقيت حرة، بين قرطاجة وبيزنطة، والمدن بقيت بيزنطية، واقعا وروحا، وأن بيزنطة موّنت وسلّحت ونصّحت البربر، فوجد العرب أمامهم، آنذاك، كل المغرب مجموعا: اللاتين والبربر، حضر ورُحل، وبطبيعة الحال فإن حسانا احتل قرطاجة لتحطيم هذا الجمع، لكنه لم يحصل على

(1) Le passé de l'Afrique du nord , pp. 266-267.

(2) Ibid, p.273.

النتائج المرجوة، ما دامت الكاهنة هزمته بعد ذلك بقليل وأجبرته على مغادرة إفريقية. وكان الإغريق واللاتين في هذه الجمعية أتباعاً، مساعدين بسطاء؛ أما القيادة والسلطة فليملك نوميديا، القائد العسكري الوحيد. لقد حقق كُسيلة و الكاهنة ما يبدو أنه كان حُلماً لِمَاسِينِيَسَا، ذلك الذي قد يكون الرومان تفادوا تحقيقه بتحطيم قرطاجة البونيقيّة، لقد كانوا عملياً ملكي قرطاجة، وكان تحت تصرفهما المحاربون النوميديون، إضافة إلى ما تبقى من الجيش النظامي البيزنطي، ومعه موارد المدن وتأييدها المعنوي، وهذا بالطبع ما يفسر عظمتهم. لقد حققا وحدة المغرب لوقت قصير جداً⁽¹⁾.

ويردّ هذا المؤلف أسباب الانهيار، انهيار المقاومة، إلى أن جراوة كانوا بُثِّرا وأن ملكتهم الكاهنة ارتكبت أخطاء، من سوء تسيير واستبداد وظلم، في حق المزارعين وسكان المدن والحضر، فرأوا أن كل ما يعطي قيمة للحياة، في نظرهم، أصبح مهدّداً، ولمسوا، في بضع سنوات من حكم البتر، عدم تفهّم هؤلاء، كليا وبنويوا، لمصالحهم وهذا يمثل الصراع الأبدي، بين البدو والحضر، الذي نجده في كل مكان، والقاعدة الأبدية لازدواجية الروح في المغرب⁽²⁾.

في حين أننا نجد، عبر تاريخ المغرب، بكامله، كما يضيف Gautier، تجاذب البدو البربر والعرب إلى بعضهم البعض، لأن تشابه نمط الحياة والعواطف الأساسية أقوى، من اختلاف اللغات... ومن المفارقة أن هذا كان في الوقت الذي أعجب فيه الحضر بفوائد الخلافة:

(1) Gautier: Op. cit., p.274.

(2) Ibid, p.274 sq.

حكومة نظامية، إدارة نظام نسبي، وعلى الأقل الانشغال بحفاظ دافعي الضرائب على كل شيء لا تستطيع المدنية الاستمرار بدونها⁽¹⁾.

وبهذه الطريقة "حدث، بطبيعة الحال، الطلاق بين الأمراء النوميديين وبين رعاياهم في المدن... فكان انتصار الغزو (invasion) العربي؛ وهنا يكمن المنعطف الحاسم، وحسبان هو الذي اجتازه، وبإمكان موسى بن نصير أن يأتي، فهو لن يجد أكثر من عدد قليل من القبائل، بدون تنظيم؛ وحقيقة أنه لم يكن هناك خضوع حقيقي، في أية جهة، ولكن المقاومة الجدية لم تكن أكثر منه. وبإمكانه أيضا أن يقذف بالإسلام في مغامرة جدية أبعد، في إسبانيا. لاحظوا أنه آخر ظهور تاريخي لنوميديا، سوف لن يُعثر عليها أبدا، في الصف الأول والسبب واضح: وهو أن نوميديا تحولت، شيئا فشيئا، إلى بلاد الشاوية، وما كان قد تبقى في القرن السابع من الثروات الزراعية والمزارعين الرومان زال وتحول، وصار الرعي هو المهيمن... وهكذا تكون في نفس الإطار الجغرافي، بلد الشاوية التافه هذا الذي نراه بأعيننا⁽²⁾.

يلاحظ Marçais G. أنه عند قيام والي مصر، عبد الله بن سعد بغزو (envahi) إفريقية، كان الأكسارخوس (l'exarque) جرجير حاكم مقاطعة إفريقية البيزنطية قد تحرر من سلطة سيده قنسطانس الثاني (Constant II)، بسبب خلاف مذهبي ثم ما فتئ أن أعلن نفسه إمبراطورا، بموافقة محتمله من البابوية⁽³⁾.

وكان ذلك عند ظهور العرب، بسبب الخلاف بين المذهبيين التوحيدي والأرثوذكسي. وقد وجد Marçais في تلك المناظرات

(1) Gautier, p.279.

(2) Ibid., pp.279-280

(3) La Berbérie musulmane et l'orient, p.29

(débats) اللاهوتية المثيرة... (ما) يبرهن على الأهمية التي اتخذتها المسيحية في حياة الأفارقة ومدى اهتمام المسيحيين بمسائل العقيدة والعبادة... وهو ما يكشف أيضا عن الخلافات المستمرة التي كانت تسود بينهم، ويدفع إلى توقع غياب التضامن، وضعف مقاومتهم لدعاية ديانة أجنبية⁽¹⁾.

ويقتبس Marçais النص الذي رَوَى فيه النويري أن المسلمين دخلوا في محادثات مع جرجير، قبل المعركة، عرضوا عليه فيها اعتناق الإسلام ودفع الجزية، فرفض الأمرين رفضا قاطعا، معلقا عليه بقوله: "لا نعرف، بطبيعة الحال ما، إذا كانت الأمور سارت بهذه الطريقة، لكن السيناريو طقسي، تقريبا، لأن صدام الجيوش يجب أن يكون مسبقا ببناء يدعو الكافر إلى اعتناق الإسلام، وإذا كان هذا الكافر من أهل الكتاب... سيؤدي خضوعه، دون اعتناق الإسلام، إلى دفع الخراج، وهو كراء الأرض التي تترك له، أو الجزية، وإن رَفَضَ تلك الاقتراحات لن يبق إلا قتاله؛ وفي حالة انتصار الإسلام، تصبح ممتلكاته غنيمة، ويمكن أن يسلب ويخضع، هو نفسه، للعبودية؛ وبعد سكون الحرب وإحلال السلطة الإسلامية في البلاد، يمكن أن يتمتع الكافر الخاضع بالنظام المشار إليه سابقا، حيث يواصل، في ظل بعض القيود، تطبيق ديانته، والاحتفاظ بحق استخدام ممتلكاته، شريطة دفع الضرائب المحددة قانونا"⁽²⁾.

ويلفت Marçais الانتباه إلى أنه "ليس من باب التناقض المخفض القول: "إن الإسلام الذي جعل الجهاد (guerre sainte) أحد نظمهِ الأساسية، دينٌ تسامح، والدليل على ذلك، عدد غير المسلمين الذين كانوا

(1) Marçais : op.cit., p p. 37-38

(2) Ibid, p.38

يعيشون في أغلب بلدانه؛ يمارسون فيها التجارة والحرف والطب ويقومون بأعباء عمومية، ويُجندون في صفوف الجيوش... (علما) أن تواجد هؤلاء الكفار شرط ضروري، تقريبا، لتوازن النفقات، غير أن نظام هذه الوصاية، لا يقوم إلا بعد القضاء على كل مقاومة مضادة للسيطرة الإسلامية⁽¹⁾.

ويرى نفس المؤلف أن العرب حققوا انتصارا رائعا في أول غزوة (incursion) لجيش إسلامي في إفريقية (غزوة 27 هـ) والتي اتخذت شكل غارة (raid) أي عملية نهب واسعة، بما أنها لم تتبع بأية إقامة و تمّ فيها" القضاء على المقاومة البيزنطية وفُتحت ثغرة خطّ القلاع الأول الذي كانت تعتمد عليه حماية المقاطعة. إن إستراتيجية المنتصرين البدائية، أو قلة الجيش أو أوامر صادرة من المشرق، لم تمكن من استغلال تلك الهزيمة."⁽²⁾.

وقد سجل هذا الكاتب الفرنسي: "أننا (كما يقول) نعلم كم كان الصراع طويلا في بلاد البربر، ونعلم أيضا ماذا كانت تُمثّله هذه البلاد بالنسبة للمشرق: أرض الغنيمة، خزان للعبيد، بحيث لم يكن للقبائل، التي ليست مسيحية ولا يهودية، الحق في أية مراعاة: لقد رأينا النهب الذي كانت تُكافأ به الحملات الأولى، في الأرياف المحرومة من الدفاع، وكانت الوسيلة الوحيدة لتفادي النهب والعبودية هي اعتناق الإسلام. وهو ما كان يحدث جماعيا، حتى ولو أدى الأمر إلى احتمال العودة لممارسات الأجداد، بعد ابتعاد الفرسان مباشرة؛ وإلى تجنب شروطهم. من جديد، بالمجاهرة في ممارسة العقيدة، حال عودتهم إلى البلاد: لقد

1. La Berbérie musulmane et l'orient, pp.38-39

2. Ibid, pp.29-30.

ورد في نصّ يُستشهد به كثيرا أن بعض القبائل ارتدت أكثر من اثنتي عشر مرة؛ وإلى تجنب هذا الإنكار، على الخصوص، يعود تأسيس سيدي عقبة للقيروان⁽¹⁾.

كما سجل أيضا أن "انتصار (المحتّلين) على الجيوش البيزنطية والاستيلاء على قرطاجة نفسها، عاصمة إفريقية، وإحدى كبريات المدن المتوسطية، لم يؤدّي أبدا، إلى انهيار بلاد البربر: بقي إخضاع هؤلاء... الذين كانوا في تنافس مستمر، لكن غيرتهم على استقلالهم كانت كبيرة لدرجة تدفعهم إلى التضامن أمام الخطر المشترك؛ وعند تعرّضهم لقوة تفوق قوتهم يتفرقون ويلجأون إلى الصحراء أو إلى جبالهم، بعيدا عن متناول أيادي غيرهم؛ وعند انهزامهم لا يخضعون نهائيا. والسلطة التي يفرضها عليهم الأجنبي بصعوبة، لا تبقى إلا إذا تواجد معهم في البلاد... إضافة إلى أن خضوع البعض لا يكون بالضرورة متبوعا بخضوع البعض الآخر، واستسلام الابن لا يَنْهِي مقاومة الأب؛ وهناك مناطق كثيرة، لا يمكن الوصول إليها عمليا، يستطيع المتمردون المكوث فيها طويلا وقد سبق للسادة الرومان والبيزنطيين أن عرفوا ثورات أهلية، فتواصلت ضد السادة العرب، ووُجدت المقاومة البربرية، من الجنوب التونسي إلى المحيط الأطلسي، مواقعاً وقادة كانت أعمالهم أكثر نجاعة من القادة البيزنطيين، وهم بالنسبة إلينا، كما كانوا بالنسبة للشرقيين ولا شك، عبارة عن شخصيات مُتَّصِفَةٌ. ومن اللافت للنظر وشبه الرمزي (quasi-symbolique) أن يكون أحد الخصوم، الأكثر جدية، للتوسع العربي في بلاد البربر، امرأة: شخصيتها نصف أسطورية، غير أن

(1) Marçais: op.cit., p.39

موتها في السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادي جعل الانتشار البارز (notable) للإسلام أمراً ممكناً، وحدّد بداية مرحلة حاسمة⁽¹⁾.
وبعدما لاحظ Marçais أن سقوط قرطاجة وموت الكاهنة، يعبران عن نهاية ما أسماه الفترة البطولية (أي المقاومة البربرية) بحيث لّن يعرف المسلمون، في البضعة والعشرين سنة التي ستلي، صعوبات بارزة، وهذا لا يعني حسب رأيه، أنّ عهد الحملات قد ولى، إذ ليس هناك من المسلمين من قاد حملات أكثر ربحاً من موسى بن نصير لكنها كانت في شكل جولات عسكرية، وكان الحافز لدى البربر يبدو محطماً بحيث: لم يجرؤوا، أبداً، على المقاومة" كما قال النويري: فالغياب التقليدي لتضامنهم وتشتتهم، سهلاً مهمة الشرقيين، لكنّ إجراءات عامين قد يكونان أقاما علاقات سلمية بين المهاجرين والأهالي، وهما: الانتشار المنظم للإسلام بين هؤلاء الأواخر، وتجنيدهم الجماعي لاحتلال الأندلس⁽²⁾.

ويعتقد Marçais أن عقبة بن نافع، كان في ذهنه، من وراء تأسيس المعسكر الدائم، القيروان، "أن يكون له دور ديني بقدر ما يكون له دور عسكري... فكان نقطة انطلاق الدّعاة؛ ترك به عقبة بعض أصحابه لتعليم البربر مبادئ العقيدة والعبادة، وبعد حوالي عشرين عاماً، وسّع موسى بن نصير هذا النشاط إلى المغرب الأقصى، ويبدو أنه عمل، بمهارة، على غزو الأهالي فكرياً: حيث أنه لم يجمع الحشود من المساجين بل كان يقبض الرهائن الذين يكوّنون، بتضامهم مع المنتصر، أهم القوّات الخاصة باحتلال إسبانيا، وحول الكنائس إلى مساجد، وبنى أخرى جديدة، مثلما فعل في أغمات، وترك في المصامدة سبعة عشر

1) Marçais G., Op. cit., pp.28-29

2) Ibid, p 35.

عربيا لتعليمهم القرآن ومبادئ الإسلام، لكن نشر هذا الدين بطريقة منتظمة في إفريقية سيكون في عهد عمر بن عبد العزيز على الخصوص⁽¹⁾.

ويظهر لـ Marçais أن "التوسع الإسلامي، في شمال إفريقية هو أكثر المشاريع، التي حققها الإسلام صعوبة، ليس هناك من البلدان ما كلفه جهدا أكبر للسيطرة عليها: حيث لم يتطلب الأمر أكثر من أربع سنوات لإخضاع بلاد النهرين، وسبعا لإضافة كل البلاد الإيرانية، تقريبا، ومكنت أعمال تدريجية، أنجزت خلال سبع سنوات، من إلحاق فلسطين وبلاد الشام؛ وكان الاستيلاء على مصر وإسبانيا أسرع من ذلك أيضا، ثلاث سنوات لكلتيهما مثلما كان الأمر في عهد الاسكندر الأكبر، قضي على قوات المقاومة، في معركة أو اثنتين: إن فلسطين هي أجندين، وبلاد الشام هي اليرموك، كل واحدة من هذه البلدان ارتبطت باسم قائد مسلم أو اثنين: فعمرو هو قاهر مصر، وطارق البربري هو الذي سيخضع الأندلس...، والأمر عكس ذلك بالنسبة لبلاد البربر: فقد بدأت عملية إلحاقها سنة 647، ويمكن اعتبار نهايتها حوالي 710م، فلم تكن المسألة تحتاج إلى أقل من ثلاث وخمسين (53) عاما للحصول على نتيجة عابرة، مع ذلك، لأن عصر الصعوبات سيُفتح بعد قليل، ولا ينتهي إلا في بداية القرن التاسع..."⁽²⁾.

وأخيرا يحاول Marçais تفسير تأخيرات وصعوبات عمل، كان ميسورا جدا في أماكن أخرى، كما يقول: فيتساءل ما إذا كان العرب اصطدموا هنا بقوة أحسن تنظيمًا، وواجهتهم بحزم أكبر؟ ويجيب "بأن

(1) Marçais: Op. cit., pp.39-40

(2) Ibid, p 27

ذلك لم يحدث إطلاقاً، لم يكن لمقاطعة إفريقية ما تجابههم به، مقارنة بجهاز الساسانيين العسكري، بفرقه التي كان يقودها خمسة قادة معروفين وفيلته الثلاثة والثلاثين الحاملة لأبراج مملوءة برؤساء السهام؛ ولم تكن تعتمد، مثل بلاد الشام، على الإمدادات التي ترسلها القسطنطينية بسهولة، ولم تكن مواقع كبيرة للحصار ولا حواجز طبيعية، من أنهار وجبال، يصعب عبورها⁽¹⁾.

ولتبرير تلك المدة غير العادية للأوقات البطولية بـداء، للمؤلف المذكور، أنه بالإمكان "إثارة عدة أسباب: أولها البعد، الذي لا ينطبق على إسبانيا، مع أنها أكثر بعداً أيضاً، إنها وضعية المغرب الشاذة التي أرعبت الخليفة عمر، من قبل، فمن الواضح أن السلطة المركزية تغيب عن بالها، أحياناً، تلك المقاطعة التي اعتبرت تابعة لمصر، مدة طويلة، والتي لم تكن قيمة الاستيلاء عليها مساوية، دائماً، للتضحيات التي بُذلت من أجلها؛ ويأتي سبب ثانٍ لتدعيم الأول: فبقدر ما كان الغرب بعيداً، بقدر ما كان اهتمام المشاركة به أقل، خاصة وأن المشرق، نفسه، مضطرب بالأزمات... ومن ثم كان عمل متقطعاً وتأخيرات ممتدة تتطلب استنفادات أكثر حيوية للجهد. وبهذا، أخيراً، يتميز، على الخصوص، إلحاق إفريقية الشمالية، عن التوسعات (conquête) الأخرى: تعذية الخصوم، وقوة المقاومة التي في وسعهم القيام بها..."⁽²⁾.

وفي تقدير Terrasse H.: أن توسعات (Conquêtes). الإسلام الشرقية تمت بسرعة فائقة، في حين كان سبعون سنة ضرورية لكي تسيطر جيوش الإسلام على إفريقية الشمالية، وقد تكون الخلافة الأموية

(1) La Berbérie musulmane et l'orient , p 28

(2) Id

بذلت وهي في أوج قوتها، أحد مجهوداتها الكبيرة في إفريقية، كان لزاما عليها أن تسترجع، بدون انقطاع، العمل المنجز، بوسائل متزايدة. إن قيمة جيوش الغزو (invasion) ليست محل شك، إذ كانت لخلفاء دمشق فرقاً حربية ممتازة، وقيادات جيدة، بدليل الانتصارات الرائعة التي حققتها مراراً بأعداد تبدو ضعيفة، 40.000 رجل في حملة حسان بن النعمان الأولى. ولا شك أن جهل المسلمين للأرض قد ضايقهم في حملاتهم الأولى، غير أن القادة العرب كانوا في أتم الاستعداد لفهم عالم البربر الذي كانت بُنيته الاجتماعية شبيهة ببنية العالم البدوي؛ فدخولهم الوسط البربري كانت أكثر يسراً، وكان ذلك بالدبلوماسية بقدر ما كان بالسلاح، على ما يبدو⁽¹⁾.

ويفسر Terrasse ببطء الاحتلال وصعوباته "برداء قاعدة العمليات التي كانت القوات الإسلامية تستخدمها... وامتداد الطريق الساحلي الذي يربط الجنوب التونسي بمصر، على مسافة 2000 كلم طولاً، تقريباً، ولم يكن في وسع منطقة برقة سوى أن تكون قاعدة ثانوية، ومهما كان البدو متعودين على الصحراء إلا أنه كان من الصعب تموين ودعم الجيش المقدوف إلى إفريقية، عند اللزوم. ويُفسرُ (ذلك) البطء و(تلك) الصعوبات، على الخصوص، ببسالة البربر العسكرية، وكرهم للأجانب، فألحقوا مراراً، هزائم نكراء بالجيوش الأموية. ولو كان على الإسلام محاربة غالبية البربر، عوض عقد تحالفات جزئية معهم، يمكن التساؤل عما إذا لم يكن الغزو (conquête) الإسلامي قد توقف أمام إفريقيا الشمالية."⁽²⁾

(1) Histoire du Maroc, T.1, p.85

(2) Id

وفي اعتقاد Terrasse H. فإن "مقاومة بلاد البربر هذه القوية الضاربة، في عمومها، اتبعت منحى عجيباً، بعد الصدام الأول: فُتحت البلاد بسهولة كبيرة، أمام عبد الله بن سعد وعقبة، وبعد موت عقبة كانت المقاومة عنيفة، بقيادة كسيلة والكاھنة لنتھار بسرعة كبيرة، عند موت هذه الأخيرة، وكانت خطة المسلمين حتى نكبة عقبة فريدة، فهم لم يحاولوا، بعد سيطرتهم على الجنوب التونسي والساحل، إخضاع شمال البلاد حيث بقي البيزنطيون، وحاولوا، انطلاقاً من القيروان، أن يتوسعوا غرباً، في بلاد البربر التي كانت خارجة، كلها تقريباً، عن السيطرة البيزنطية، وقد وجدوا، في وقت مبكر أنصاراً ومساعدین، من بين القبائل الزناتية، وكانت غارة (raid) عقبة هي أفضل تطبيق (réalisation) لهذه السياسة: تمكّن من اجتياز ومن ضم مناطق بربرية واسعة، والمغرب الأقصى نفسه، وبقي البيزنطيون والأفارقة الملتئنين (latinisés)، في كل هذه المدة، على ما يبدو، في موقف دفاعي. ويظهر أن التحالفات الكبرى، بين البيزنطيين والبربر، لم تعقد بعد. وقد تكون انتصارات عقبة هي التي أيقظت المقاومة البربرية، وحركت جمود البيزنطيين. وصرنا نرى مع كسيلة، فيما عدا الدفاع عن المواقع المحصنة، دخول جيوش من البربر والروم على المسرح. والمعروف أن المصطلح الأخير كان يطلق على البيزنطيين ورعاياهم المسيحيين. ويبدو أن بيزنطة (Byzance) والنصارى - وربما كان أغلبهم من البرانس - شكّلوا روح التحالفات التي لم تفلح، ولا شك، سوى في جمع سكان شمال البلاد التونسية مع سكان جزء أو كل منطقة قسنطينة وخاصة الأوراس وضواحيه، عوضاً عن جمع غالبية البربر. ولم تكن - ولا ريب - لدى قادة إكسارخية إفريقية، فرق عسكرية كثيرة لكنهم كانوا يعرفون كيف

يؤثرون على البربر، وكانوا يَجْمَعُونَ على الخصوص العناصر المسيحية والمُلتَنِّنة التي كانت لها عقيدة وحضارة تدافع عنهما، على عكس البربر الذين انضموا بسهولة للديانة الجديدة⁽¹⁾.

فإن "أهل حسان بن النعمان بلاد البربر التي كانت تظهر لأسلافه بمثابة جبهة قليلة المقاومة، وإن ذهب مرتين للاستيلاء على قرطاجة، قبل الدخول في صراع يريده حاسما، فلا شك أنه عرف مكان رباط التحالف وروح المقاومة. وعندما فقد البيزنطيون، نهائيا، قرطاجة، وصارت قواتهم البحرية في وضعية دُنيا، فإن تحالف الروم والبربر تلاشى، وتمت الإطاحة بالكهنة، ولم يَعْذْ هناك بعد ذلك، ما يُحَفِّز، إن صح التعبير، ويُنْظَم المقاومة البربرية: فلم يَجِدْ موسى سوى مقاومات محلية، ووجد دعما في كل مكان، وبطرد بيزنطة من إفريقيا، ظهر عالم البربر المتروك لنفسه، كالعادة، ممزقا وغير مستقرّ وبقدر ما هو سهل للخضاع، في بعض الأوقات، بقدر ما هو صعب لإبقاء السيطرة عليه. لم يشارك المغرب الأقصى، في تلك المقاومة الإفريقية والبربرية الكبرى منذ البداية: لقد أخضعته، على التوالي، حملتان سريعتان. حتى وإن وجد عقبة وموسى معارضات (oppositions) محلية، فإنهما لم يسطرما، أبدا، بمقاومة شاملة. ويبدو أنهما بحثا عن الضمّ أكثر مما بحثا عن الحرب، ولم يزد الاحتلال (conquête) الإسلامي، في مناطق كثيرة من المغرب الأقصى، عن إدخال ديانة إضافية و تثبيت أو تدعيم سيطرة عصبية معيّنة أو قائد معين، دون تغيير حياة البلاد تغييرا عميقا. وقد عرف المحتلون الأوائل، المجبرون على تنظيم مناطق احتلالهم - أو

(1) Histoire du Maroc, T.1, p.85 sq.

بالأحرى محمياتهم كيف يكتفون - ولا شك - بالقليل. ويبدو أن شمال المغرب الأقصى، بمعنى المنطقة (pays) الملتئنة والمسيحية، هو الذي قاوم المحتلين أكثر، لكن المسلمين جرّوا قبائل كثيرة منه إلى احتلال (conquête) إسبانيا الذي بدأ سنة 709م⁽¹⁾.

ويتوقف Terrasse عند نظرية Gautier فيعرضها قائلاً: "لقد شرح قُوتَيَّه الفترتين الأخيرتين من هذا التاريخ - نزوة المقاومة البربرية وانهارها المفاجئ بحق جذاب. وبالنسبة لهذا المؤلف، كما يضيف Terrasse، فإن تاريخ بلاد البربر كلّها، في نهاية الحقبة القديمة من تاريخ العالم، وخلال جزء كبير من القرون الوسطى، يفسره التناظر الدائم بين مجموعتين كبيرتين: البرانس والبتّر. ويمثّل البرانس السكّان المستقرين، ويمثّل البتر البدو الذين أصبحوا جمّالين، منذ دخول وانتشار الجمل في شمال إفريقيا، حوالي القرن الثالث الميلادي، وقد لا يكون التعصب العرقي، بين البرانس والبتّر، حقق سوى إخفاء المواجهة (opposition) التي لا تقهر، بين الحضر والبدو. وقد تُفسّر الهزائم ثم الانتصارات النهائية للهجمات الإسلامية على أساس أن البرانس سبقوا بتنظيم مقاومة ضدها ثم بعدهم البتر، وقد يكون برانس كسيلة، وهم حسب Gautier مسيحيون، ونصف ملّتّين فعلوا ذلك باتفاق مع البيزنطيين وسكان المدن، وعلى العكس من ذلك، فإن جرّاة الكاهنة الزنّاتيين ربما كانوا بدوا، قليلي التعود على حياة التعايش مع المدن وهم، بدون شك، متهوّنون. وقد يكون البدو، آنذاك، اضطهّتهم الحضر وسكان المدن، وخربوا إفريقية في النهاية، وتفكّك التحالف الذي

(1)Terrasse: Op. cit., pp.88-89.

نجاح، حتى ذلك الوقت، في التصدي للجيوش الإسلامية، وانهارت المقاومة البربرية التي صارت شأن البتر وحدهم⁽¹⁾.

ويرى صاحب كتاب "تاريخ المغرب الأقصى" أنه على الرغم من بساطة هذه النظرية وضخامتها فهي لا تقوم على سند، وهي خاطئة في مبدئها: إذ لا يمكن التعرف على المجموعتين العرقيتين المصطنعتين جدا واللّتين يعرفهما ابن خلدون بنمطَي حياة تقاسمًا، دائماً، شمال إفريقيا. فهناك حضر قدماء وبدو، في كل واحدة من المجموعتين: بحيث شهد زناتيون، حضر أو رحل، في كل العصور، فضلاً عن أن صنهاجة، وهم برانس، كان من بينهم، دائماً، عدد من الرحالة والبدو الكبار... وقد أنجرَ Gautier وراء هذا الخطأ الأولي، ممّا أدى به إلى تحريف المعنى وحتى إلى اتباع طريق التخيل في تكملة الوثائق النادرة، الموجزة والغامضة التي تحدثنا عن المقاومة البربرية... نحن نجهل ما إذا كان جراوي الكاهنة بدوا. ويرجح انتشارهم، في الأوراس وضواحيه، بالأحرى، أن يكونوا حضرا. فنظرية Gautier المنبثقة عن فرضية غير مبررة، مرفوضة إذا. ومن الممكن إعطاء هذا التاريخ تفسيراً أقلّ طموحاً لكن أكثر تلاؤماً مع الوقائع النادرة المكتسبة أو المحتملة، وكذلك مع جغرافية الاحتلال (conquête) الإسلامي... والأمر يحتاج إلى تخصيص مكان عادل، في توسع (expansion) الإسلام، إلى حماسة الدعوة الدينية. ومن المعقول أن يؤخذ بعين الاعتبار، عند الحديث عن مقاومة بلاد البربر الشرقية، عمق الشعور المسيحي الذي كان يحرك جزءاً من سكانها، فإن تمّ الاتفاق على وجود فرق في سلوك عناصر برنسية وبين

(1)Terrasse, op.cit., p.86

عناصر بترية، ينبغي ولا شك، البحث عن الأسباب في العرقية والديانة وليس في نمط الحياة"⁽¹⁾.

وينطلق Julien (Ch. A.) مما أسماه "النتائج المرئية الضخمة للاحتلال العربي" لمحاولة تعرقه على المقاومة البربرية له، فيذهب إلى القول: "إن الإسلام وإفريقيا الشمالية متطابقان بقوة، لدرجة تتسي بسهولة ثمن الصراع الذي كلف المشرق الإسلامي لاستعادة (recouvrir) الغرب البربري.... واعتناق الأهالي للإسلام هو الذي يُذهلنا، وقد حدثت، كما يؤكد Gautier، "ثورة هائلة، اجتازت البلاد فيها الحاجز المسيك (étanche) الذي بقي بين الغرب والشرق، في الجهات الأخرى. وبالمقارنة مع قفزة كهذه، في المجهول، فإن ثورتينا: الفرنسية والروسية تبدوان مسكينتين". إن المغرب لم يقم بهذه القفزة، في المجهول، عن طيب خاطر، بل من المعروف أن مقاومته كانت طويلة وعنيفة، وسيكون من باب التهور انتظار أكثر من هذا اليقين: ليس هناك أرشيف، ولا روايات لرحالة أجنب، ولا كتابات تاريخية أروبية؛ وتنبغي العودة إلى إخباريين عرب، متأخرين جدا عن الأحداث، لتكملة الكتابات المنقوصة وقلة المسكوكات وغياب النصوص الموثوق بها"⁽²⁾.

ويتساءل Julien عما إذا كان "يجب التخلي، من أجل كل ذلك، عن كل تدقيق؟ (ثم يجيب بأنه يكاد يميل إلى هذا الرأي) أم ينبغي الإقدام بعد Gautier، على وضع بعض التنظيم لفوضى الحروب والتمردات وسقوط الممالك، بمحاولة تفسير واستكمال الأخبار العربية؟ وهذا المنهج إن لم يكن هو الأحسن، يشكّل على الأقل، الموساة الوحيدة وهو يحتوي

(1) Terrasse: Op. cit., p.86 sq.

(2) Histoire de l'Afrique du nord, T.2, P.11.

عنصرا ذاتيا لم يستطع نجاح كتاب "قرون المغرب المظلمة" (Les siècles obscurs du Maghreb) الباهر، إزالة أخطاره... ويمكن أيضا، مثلما فعل حديثا Marçais G.، دراسة النصوص بعناية واستخلاص ما يمكن منها: مجموعة من الحقائق، لا يمكن إهمالها، وعلامات استفهام كثيرة، مع عدم نسيان وضع كل شيء في سياقه التاريخي...⁽¹⁾.

وبعدما قام صاحب كتاب "تاريخ إفريقيا الشمالية" بعملية مسح لأهم ما وقع من أحداث، في بلاد المغرب، أثناء القرن الأول الهجري (7-8م)، منذ أن وطأته أقدام العرب، إلى مقتل الكاهنة على يد حسان بن النعمان الغساني⁽²⁾ والتي "انتهى بمقتلها، كما قال، عهد الدفاع البطولي"⁽³⁾ راح يغرض ما أسماه "معادلة البرانس + البتر = الحضر + البدو". وهكذا سيظهر النزاع الأبدي، بين الحضر والرُّحْل، في المقام الأول، وستضيء هذه المقاربة (opposition) تاريخ بلاد البربر، بصفة خاصة، إن كان بالإمكان ملاءمته مع الترتيب الذي وضعه ابن خلدون وإيجاد الحقيقة الجغرافية والاقتصادية تحت التخيل (fiction) العرقي. وهذا ما حاول Gautier (E. F.) في إحدى تلك النظريات الجريئة التي تُجبر على إعادة التفكير في التاريخ التقليدي. وقد يكون الجمال... هم البربر الذين يطلق عليهم المؤرخ العربي تسمية البتر، وهم أحفاد جد خيالي، هو مادغيس الأبتَر، في حين أن الحضر قد ينتسبون إلى البرانس الذين قد يكون جدّهم هو برنس، ولا تتكون كل مجموعة من أقرباء ولكن من سكان ذوي حياة متطابقة. وبهذا قد تُفسّر الحواجز التي وجدها

(1) Julient: op. cit., pp.12-13.

(2) Ibid, p.13 sqq

(3) Ibid, p 22

الاحتلال (conquête) العربي، وكذلك الانشقاق الذي مكّنه من الانتصار، فلم يتطلب إخضاع قدماء (vieux) مدنيي إفريقية أيّ جهد، لأن إقامة حكومة نظامية، ضرورة لحياتهم وأعمالهم، كانت تهمهم أكثر من الحرية، لكنّ مأساة اجتماعية أصابت على نوميديا، منذ عهد الوندال: فقد كان الرحالة الصغار وخاصة الرحالة الكبار الجمّالين يُبعدون، تدريجياً، مزارعي عهد السيطرة الرومانية. وقد تكون هاتان المجموعتان من السكان، مجموعة البرانس ومجموعة البتر، جسدتا بالتناوب، المقاومة البربرية، أوزبة الحضر بقيادة كسيلة وجراوة الرحل بقيادة الكاهنة، وقد تكون ثورة الحضر ضد أساليب الرحل هي التي فصلت في انتصار الغزاة (Envahisseurs) ومكنتهم من دفع توسعاتهم ونشر دعواتهم (conversion) نحو الغرب، وهنا يستدل Julien بما يستنتجه Gautier: بأنّ "البدو والحضر لم يتمكّنوا أبداً، في المغرب، من التعايش مع بعضهم، دون أن يتقياً بعضهم البعض الآخر، فكان نجاح الغزو العربي وهنا يوجد المنعطف الحاسم الذي اجتازه حسان"⁽¹⁾.

ويلق Julien على نظرية Gautier قائلاً: "إنها تمكّن، إذاً، من تفسير حالة الغزو العربي تحديداً... وإنه ليبو مستحيلاً لوليام مارسي (Marçais W.) دمج البتر في الرحل والبرانس في الحضر" لأنّ جزءاً كبيراً من زناته، الممثلين البارزين لفرع البتر كانوا، ولا شك، جمّالين ولكن يصعب إعطاء صورة الرحالة الكبار إلى بتر آخرين كثيرين... (كما) أننا نجد من بين البرانس أكبر الرحالة، على الإطلاق، صنهاجة الصحراء... إن نظرية (Gautier E. F.)، المغرية جداً من جهة أخرى

(1) Julien: Op. cit., pp. 22-23

ينبغي أن تُرفض، إذا، فيما لها من نسيئة كبيرة. غير أنها تبرز التأثيرات الاجتماعية للاحتلال (conquête) العربي، ومن هذا الباب تستحق أن تؤخذ بعين الاعتبار، لقد لوحظ، مرات عديدة، واقع يتمثل في خروج البدو، أوقات الأزمات السياسية، من عزلتهم وظهورهم في بلاد الحضر للاستفادة من الضوضاء... فبعد الاضطرابات المعتبرة التي سببها الغزو الإسلامي، على شرق إفريقيا الشمالية، على الأقل، ليس من الغريب أن يظهر الرجل على المسرح. وتُشدّ نظرية Gautier، من جهة أخرى، على أهمية طرق الحياة التي تختلط بشدة (étroitement) مع روابط الدم، والتي يميل إخباريو اللغة العربية، إلى بخس قيمتها، بسهولة مع إصرار انشغالهم بالعرقية. والأمثلة كثيرة عن قبائل منحرفة مبدئية، من نفس الجذ لكنّها مكوّنة، في الواقع، من عناصر خليطة، متقاربة بطريقة معيشية واحدة. وتخيلُ التبنّي وحده هو الذي أعطاه خاصية الوحدة العرقية التي تشبّث بها المغرب كلّ بشدة. وفيما يخصّ الدور المتبادل لكسيلة والكاينة فإن توضيحه، بالاعتماد على النصوص المتوفرة، غير الموثوق بها والمتناقضة، يظهر أنه من باب التهور فشخصية كسيلة الحيوية جداً" أول بطل للاستقلال البربري، أخذت تتضح كثيراً على مرّ القرون: إن البلاذري لا يعرفه بتاتا، والبكري جعله يفرّ من طينة أمام موسى بن نصير ومنتحل ابن قتيبة جعل موته سنة 702، في حرب مع موسى نفسه على ممر نهر ملوية، وابن عبد الحكم لا يعرف كثيرا، ما إذا كانت موت عقبة بن نافع تنسب إليه أو إلى ابن الكاينة وقد يعتبرهما، في الواقع، شخصا واحدا. وليس هناك، من بين هؤلاء الإخباريين القدماء، من ينسب إلى "كسيلة صفة رئيس أوربة" بالإضافة إلى أنه لا يوجد، ما يسمح بتحديد مجال سكناها الرئيسي في الأوراس، أثناء الاحتلال العربي... بقيت نظرية

الأوراسين التي اقتبسها (E. F.) Gautier من Masqueray. فقد تكون اعتمدت على تمييز مؤسس على أخطاء كثيرة، وهي مرفوضة اليوم من كل الناطقين بالبربرية، لأن أطروحة (thèse) Masqueray عن ازدواجية أرض الشاوية، ما بين لهجة أراسي الغرب، المنحدرين من رعايا كسيلة، ولهجة أوراسي الشرق، المنحدرين من رعايا الكاهنة، تبدو كثيرة الهشاشة... فظروف المقاومة البربرية تُخفي، إذًا، على فضولنا، وليس هناك ما يمكن فعله في ظل الظروف الراهنة، سوى التذكير من جهة، بترجمة (vulgate) الاحتلال (conquête) كما جرت عادة أخذها من المؤرخين العرب، باختيار لا يستجيب دائمًا، إلى متطلبات ملحة وناقدة، و من جهة أخرى، عرض الفرضيات (hypotheses) والمناقشة التي أوحّت بها الرواية الشعبية إلى عقلين نافذين بوجه خاص. هل معنى ذلك أن محاولة Gautier غير مفيدة؟ بعيدا عن هذا، وبغض النظر عن موهبة الكاتب الطيبة، يبقى أنه ألح أكثر، من سابقه على التمييز بين "أهل مساكن الشجر" و"أهل مساكن الطين" وأظهر كل النتائج التي يستطيع مؤرخ مُبْطِنٌ بجغرافي أن يستخلصها منها..."⁽¹⁾.

ويسجل Bousquet (G. H.) أنه لم تمض عشر سنوات على وفاة النبي محمد (Mahomet) (صلعم) حتى استولى خلفاؤه (successeurs) على جزء من بلاد البربر: بلاد برقة سنة 642، ومنطقة طرابلس، على أبواب شمال إفريقيا سنة 643؛ وقد وقعت أول غارة على الممتلكات البيزنطية بالبلاد التونسية سنة 647-648؛ ثم إن الاضطرابات الداخلية التي هزت الإمبراطورية العربية، تركت بعض

(1) Histoire de l'Afrique du Nord, T.2, p.22 sq.

الاستراحة (répit) لتلك المناطق. وقد أسس المحتل (conquérant) عقبة بن نافع القيروان، في البلاد التونسية سنة 670، وهذا تاريخ مألوف (traditionnel) لكنه محلّ خلاف (...) ثم شرع في احتلال (conquête) شمال إفريقيا بكامله. وليس هناك ما يؤكد أنه وصل إلى المحيط الأطلسي، ولو أن الأمر يبدو محتملا في أيامنا لكن مقاومة البربر الضارية، مدة سبعين عاما على الأقل، أمر واضح: فما يسميه العرب "ردائهم" المتكررة، لم تكن سوى ثورة سياسية برعايا غير خاضعين بما فيه الكفاية والذين لم تكن الديانة الجديدة، بالنسبة إليهم، سوى مظهرا من مظاهر القهر الأجنبي، إضافة إلى أن حملة عقبة انتهت بكارثة؛ وانتظمت المقاومة بقيادة كسيلة وقُضي على القائد المسلم سنة 683... في معركة ضدّ البيزنطيين والبربر، وتراجع العرب إلى ما بعد برقة في سيرينايقا (Cyrénaïque). لكن كسيلة قُتل بدوره سنة 686. وعندئذ أعيد تنظيم المقاومة بالأوراس، حول امرأة، هي الكاهنة (المتنبئة) (La prophétesse) التي حققت عدة انتصارات، في حين أسس العرب مدينة تونس سنة 698. وبعد ذلك بقليل قُتلت الكاهنة، بعدما أرسلت ولديها إلى العدو...⁽¹⁾.

ويقتبس Bousquet من الأستاذ (Maître) وليام مَارْسِي (Marçais W.) ما ذكره من: "أن بلاد البربر، قطعت صيانتها بالغرب، في القرن السابع (الميلادي)، لترتبط بالشرق، نهائيا وبلا رجعة، وعلى ما يبدو، بدون انشقاق داخلي، وبدون أزمة ضمير. وقد تمكّن سادتها (Maître) الجدد العرب، فيما بعد، من الكفّ عن ممارسة السلطة

(1) Les Berbères, Que sais-je, Presses universitaires de France, Paris 1957, p.47.

المباشرة عليها. إذ استطاعوا إعادتها إلى نفسها، لكنهم وسَمَوْها ببصمة ثابتة، حيث عرَبَوْها لدرجة أن المغرب اليوم، بكامله تقريبا، يمكن أن يعتبر مقاطعة قصوى، ومختلفة المراكز للعروبة⁽¹⁾.

ويعلق Bousquet على هذا الكلام قائلا: "يصعب عليّ عدم التفكير في أن هذه النتيجة، إن حَقَّقت فلأنّ ذهنية المحتلين (Conquérants)، كان لها، عموما، تجانس مع ذهنية البربر أكثر مما كان عليه الرومان..."⁽²⁾.

(1) Bousquet, Op. cit., p.45.

(2) Id, p.45.

بيبليوغرافيا

باللغة العربية:

- البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

باللغة الأجنبية:

- Bousquet G. H.: Les Berbères, Que sais- je, Presses universitaires de France, Paris, 1957.
- Brémont G.: (2)Berbères et Arabes, La Berbérie est un pays européen, Payot- Paris.
- Caudel:M. les premières invasions arabe dans l'Afrique du nord ,21-78/641-697 j. c.
- Fournel H.: Les Berbères, 1875, T. 1.
- Gautier E. F.: Le passé de l'Afrique du Nord, Payot- Paris, 1937.
- Hamet Ismail ,Note complémentaire sur l'origine des Foulane ou peuplades Foulbé du Soudan, Revue africaine, n° 228, 1899.
- Julien Ch. A.: Histoire de l'Afrique du Nord, Payot- Paris, 1966, T. 2.
- Marçais G.: La Berbérie musulmane et l'orient au Moyen Age, Paris 1946.
- Mercier E.: Histoire de L'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale, Constantine- Alger 1875.
- sidi Okba,ses expéditions dans l'extrême sud,Revue africaine, n°23, 4^{ème} trimestre, 1898.
- Pellat Ch.: Dans Encyclopédie de l'Islam, n^{elle} éd., Leiden New York, Paris, 1993, T. VII, art. Mu'awiya B. Hudaïdj.
- Provencal E. Lévi: Dans Encyclopédie de l'Islam, n^{elle} éd., Leiden- Paris, 1936, T. III, art. Okba B. Nafi'a.
- Talbi M.: Dans Encyclopédie de l'Islam, n^{elle} éd. leiden- Paris 1978, T.4, art. Al- Kahina.
- : dans Encyclopédie de l'Islam, n^{elle} éd, leyde – paris 1990, T.III, art. Hassan B. Al- Numan al- Gassani.
- : dans Encyclopédie de l'Islam,E.I.,n^{elle} éd, Leyde- Paris, 1960, T.1,art. Abd Allah b.Sa'd
- : dans Encyclopédie de l'Islam, E.I. n^{elle} éd., Leiden- Paris 1986, T. V, art Kusayla b. Lemzam.

- : dans Encyclopédie de l'Islam, E. I, N^{elle} éd. Leiden- New York- Paris, 1993, T. 7, art. Musa b. Nusayr.
- Terrasse H.: Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du protectorat français, éd. Atlantides, Casablanca 1947, Livre II.

فهرس الموضوعات

- مقدمة 5
- أسباب الفتح الإسلامي 7
- حملة عمرو بن العاص على منطقتي برقة وطرابلس 16
- أوضاع إفريقية البيزنطية عشية الفتح الإسلامي 21
- حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح 27
- حملة معاوية بن حديج التجيبي 49
- نشاط عقبة بن نافع الفهري قبل ولايته الأولى 63
- ولاية عقبة بن نافع الأولى على بلاد المغرب 72
- ولاية أبي المهاجر دينار 90
- ولاية عقبة بن نافع الثانية على بلاد المغرب 101
- ولاية زهير بن قيس البلوي 135
- ولاية حسان بن النعمان الغساني على بلاد المغرب 161
- ولاية موسى بن نصير 214
- مقاومة البربر للفتح الإسلامي 224
- بيبليوغرافيا 257
- فهرس الموضوعات 259

